المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

مقرر الثقافة الإسلامية

(٤٠١)

إعداد
اللجنة العلمية
بكلية الدعوة وأصول الدين

١٤٣٥هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلا يخفى ما للعلم الشرعي من أهمية بالغة ومنزلة سامقة في حياة الأمم والشعوب، في تصحيح مفاهيمها وتصوراتها للكون والحياة، في تعاملها مع ربها وخالقها تعالى بالتوحيد الخالص والعبودية الحقة، ومع البشرية في تهذيب أخلاقها وسلوكها وقيمها الفاضلة وفي شأنها كله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]؛ لأن من المؤكد أنه لا صلاح ولا سعادة للبشرية جمعاء إلا بالعلم النافع والعمل الصالح ؛ والعلم النافع ما كان مصدره الوحي الرباني المعصوم، والعمل الصالح ما كان على هدي النبي، صلى الله عليه وسلم، وسنته.

ومن نعم الله تعالى علينا في هذه البلاد المباركة العناية بالتعليم الشرعي في جميع المراحل الدراسية، فقد نصَّت سياسة التعليم بالمملكة العربية السعودية على أن العلوم الدينية أساسية في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي بجميع فروعه، كما أولت الثقافة الإسلامية عناية خاصة حيث نصت على أن «الثقافة الإسلامية مادة أساسية في جميع سنوات التعليم العالي».

وذلك لأن من أهم أهداف التعليم الجامعي تخريج الكفاءات المؤهلة للمشاركة في التنمية الحضارية بكافة مجالاتها، وهذا التأهيل يتطلب العناية بجانبين:

الأول: الجانب العلمي والمعرفي من خلال المقررات التخصصية في شتى العلوم والمعارف وما يخدمها من معامل وبرامج تدريبية ونحوها.

الثاني: الجانب الفكري والسلوكي من خلال مقررات الثقافة الإسلامية التي تعنى بتزويد الطلاب والطالبات بقدر مناسب من المفاهيم الإسلامية، توضح لهم التصور الصحيح للكون والحياة، وتوضح لهم منهج الوسطية والاعتدال،وتحذرهم مناهج الزيغ والانحراف والانحلال، وتقرب لهم ما في الإسلام من حلول لمشكلات الحضارة والحياة.

ومن هنا أولت جامعة أم القرى، ومنذ غراس بذرتها الأولى التي كانت نواة للتعليم العالي في المملكة العربية السعودية ممثلة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، هذه المادة بمزيد من الاهتمام والعناية فقررت تدريس أربعة مقررات في الثقافة الإسلامية لجميع طلابها وطالباتها على تنوع كلياتهم ومختلف تخصصاتهم، وأَلَّفت لكل مقرر كتابا قام على تأليفه نخبة من كبار أساتذتها في ذلك الوقت، وقد حذت الجامعات الأخرى حذوها، وقررت

بعض الجامعات تدريس تلك المقررات نفسها.

ولما كانت صور الحياة متجددة ومطالبها متداخلة خاصة في هذا العصر الذي انفتحت فيه الشعوب بعضها على بعض، وسهل معها رحيل الثقافات من بيئة إلى أخرى مع تطور وسائل التواصل والاتصال، إضافة إلى بعض المستجدات العالمية والنوازل المستجدة مما يتطلب تحصينا للطالب الجامعي في عقيدته وفكره وسلوكه بما يمكنه من المحافظة على هويته الإسلامية واعتزازه بقيمه الإيمانية وصموده في وجه التيارات المنحرفة وتعامله الراقي والمتزن مع مستجدات الفكر والحياة.

وسعيا من الكلية في تحقيق الجودة العالية فيما يقدم لطلاب الجامعة من مقررات دراسية، ومنها مقررات الثقافة الإسلامية، فقد قامت الكلية، وبعد موافقة إدارة الجامعة، بتشكيل لجان علمية من مختلف التخصصات لإعادة صياغة وتأليف كتب الثقافة الإسلامية الأربعة لتكون مؤائمة لما أقره مجلس الجامعة من مفردات للمقررات، وما صدر من توجيهات عليها بضم بعض الموضوعات المهمة لمقررات الثقافة الإسلامية، مستفيدة من المقررات السابقة، وما استجد من موضوعات ثقافية مهمة وما تم إقراره في الجامعات الأخرى وتوصيات الندوات العلمية التي تمت إقامتها حول مقررات الثقافة الإسلامية..

ونظراً لكون هدف هذه المقررات هو تقديم الثقافة الإسلامية العامة فقد حرصت هذه اللجان على أن تكون الصياغة بلغة واضحة وسهلة بعيدة عن لغة التخصص الشرعي الدقيق، مع الحرص على عدم التوسع في التفريعات والخلافات المذهبية والتركيز على الأصول والكليات العامة التي يشترك في الاحتياج إليها الطالب المتخصص في العلوم الشرعية والمتخصص في فنون العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، ولا تكون تكرارا لما يتلقاه طالب العلوم الشرعية في دراسته التخصصية.

وقد تمت مراجعة عمل كل لجنة عدة مرات، ثم تطبيقه ـ تجريبيا ـ في عدة فصول دراسية، واستصحاب ملحوظات أساتذة وطلاب كل مقرر على حدة، حتى خرجت بهذه الصورة التي نحسبها مرضية، إن شاء الله تعالى.

سائلين المولى عز وجل أن يتقبل من الجميع جهودهم وأن يجزيهم خير الجزاء وأوفاه، وأن يكتب لهذا العمل المبارك النفع والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

د/ محمد بن سعيد السرحاني

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدى عباده للتي هي أقوم بما أنزله من الكتاب والحكمة، وجعل وحيه المنزل قائداً لكل خير وهدى ورحمة، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، فكان هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ما من خير إلا ودعا أمته إليه، وما من شر إلا حذرها منه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن هذا المقرر الأخير من مقررات الثقافة الإسلامية روعي في اختيار موضوعه ما ينبغي أن يكون وصل إليه الطالب الجامعي من النضج الفكري والنمو المعرفي فكان الموضوع الرئيس لهذا المقرر هو دراسة المجتمع الإسلامي من جهة بيان مصادر قوته وأسباب ضعفه، وسبل النهوض به، وبيان مواضع الخلل وسبل العلاج.

فجاء القسم الأول من الكتاب عن المجتمع المسلم بين المثالية والانحراف في ثلاثة فصول: الأول عن: المجتمع الإسلامي والمجتمعات المغايرة. والفصل الثاني: عن الانحراف في مصادر التلقي ومنهج الاستدلال. وأما الفصل الثالث: فعن ما حدث من انحراف في المفاهيم: مثل مفهوم التوحيد، ومفهوم العبادة، ومفهوم التكفير، ومفهوم القدر، ومفهوم الزهد وغيرها. بينما جاء القسم الثاني محتوياً على: أحوال المجتمع المسلم المعاصر وسبل النهوض به في ثلاثة فصول، الأول تضمن: أحوال المجتمع المسلم المعاصر بيَّنا من خلاله الغزو الفكري وأثره على المجتمع المسلم، وأبرز التيارات الفكرية المؤثرة على المجتمع الإسلامي. والثاني حول: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية ودورها الريادي في الإصلاح. والفصل الثالث: اشتمل على سبل الإصلاح والنهوض بالأمة.

وكان الهدف الرئيس من هذا المقرر هو ربط الطالب بمجتمعه الذي يعيش فيه والذي سيتخرج إليه بعد شهور قليلة ـ إن شاء الله ـ ليكون لبنة بناء صالحة ومصلحة، في هذا المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا يقتضي أن يكون على إلمام تام وتصور واضح لواقعه ومشكلاته ومواطن الخلل فيه، وسبل العلاج والنهوض به إلى مراتب العلو والرقي والتقدم الحضاري المنشود، وقد روعي في الصياغة تقديم مادة علمية محررة، وواضحة، ومختصرة، ومفيدة للطالب تزيد من إيمانه، وترتقي بفكره وثقافته، وتقوم من سلوكه، وتقوي من قناعته، وتعزز

انتمائه، وتتناسب مع استعداده ومستواه العلمي من جهة، وما يسع له زمن الفصل الدراسي من جهة أخرى.

نرجو أن نكون حققنا الهدف المنشود، وقد بذلنا وسعنا، ننشد الكمال بحسب الوسع والطاقة البشرية، ومع ذلك يبقى جهداً بشرياً عرضة للنقص والخلل، ويبقى الكمال لله وحده، والعصمة لرسوله ﷺ.

سائلين الله أن يتقبله، وأن ينفع به، ويبارك في أثره. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

اللجنة العلمية

بكلية الدعوة وأصول الدين

تقسيم موضوعات المقرر التدريسية

(من غير الاختبارات الفصلية والنهاية)

القسم الأول: المجتمع المسلم بين المثالية والانحراف

الأسبوع الأول	⟸	التعريف بالمقرر وأهدافه. الفصل الأول، المبحث الأول والثاني (ص ٧- ٢٠)
الأسبوع الثاني	⟸	الفصل الأول، المبحث الثالث والرابع (ص ٢١- ٥٣)
الأسبوع الثالث	⟸	الفصل الثاني، المبحث الأول (ص ٥٥- ٧٠)
الأسبوع الرابع	⟸	الفصل الثاني، المبحث الثاني (ص ٧١- ٨٨)
الأسبوع الخامس	⟸	الفصل الثالث، المبحث الأول والثاني (ص ٩٠- ١٠٦)
الأسبوع السادس	⟸	الفصل الثالث، المبحث الثالث إلى السادس (ص ١٠٧- ١٢٠)
الأسبوع السابع	⟸	الفصل الثالث، المبحث السابع والثامن (ص ١٢١- ١٣٥)

القسم الثاني: أحوال المجتمع المسلم المعاصر وسبل النهوض به

الأسبوع الثامن	⟸	الفصل الأول، المبحث الأول (ص١٣٨-١٤٧)
الأسبوع التاسع	⟸	الفصل الأول، المبحث الثاني (ص١٤٨-١٦٤)
الأسبوع العاشر	⟸	الفصل الثاني، إلى المبحث الثاني (ص١٦٦-١٧٢)
الأسبوع الحادي عشر	⟸	الفصل الثاني، المبحث الثالث إلى الخامس (ص١٧٣-١٩٢)
الأسبوع الثاني عشر	⟸	الفصل الثالث، المبحث الأول والثاني (ص١٩٤-٢٣٠)
الأسبوع الثالث عشر	⟸	الفصل الثالث، المبحث الثالث (ص٢٣١-٢٤٨)

ملاحظة: وما تعذر تدريسه من مفردات فيكلف به الطلاب أعمالا فصلية.

القسم الأول

المجتمع المسلم بين المثالية والانحراف

ويحتوي على:

الفـــــــصل الأول: المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية.

الفـــصل الثـــاني: الانحراف في مصادر التلقي ومنهج الاستدلال.

الفـــصل الثالـــث: الانحراف في المفاهيم والمصطلحات الشرعية.

الفَصْلُ الأَوَّل

المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية

ويحتوي على:

المبحـــــث الأول: المجتمع المثالي للأمَّة المسلمة.

المبحـــث الثـــاني: أساس بناء المجتمع المسلم.

المبحـــث الثالـــث: مقومات بناء المجتمع المسلم.

المبحـــث الرابـــع: الجاهلية وحال العرب قبل الإسلام.

المبحث الأول

المجتمع المثالي للأمة المسلمة

إنَّ أي منهج للحياة مهما كان نصيبه من المثالية والصحة النظرية سيبقى مجرد خيال وحلم تنقطع الآمال دون تحققه في الواقع ما لم يكن له نموذج واقعي يشهد بصحته ونجاحه في تحقيق الحياة الطيبة التي تأملها المجتمعات البشرية وتسعى جاهدة لتحصيلها، ويكون هذا النموذج التطبيقي بعد ذلك مقياسًا لسائر التطبيقات الأخرى لهذا المنهج.

ومن هنا كان من خصائص المنهج الإسلامي للحياة الطيبة واقعيتُه ومراعاته للطبيعة البشرية على مستوى الفرد والجماعة، وبعده عن الإيغال في المثالية العالية للكمال البشري، وإعطاؤه مثالاً بل أمثلة واضحة نقية للتطبيق الصحيح لهذا المنهج، وذلك ما تمثل في الجيل الذي رباه النبي ﷺ، وامتد أثره في القرون (الأجيال) الإسلامية المفضلة التي أشار إليها الحديث النبوي الشريف: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١)، وهي الأجيال التي تعارف المسلمون على تسميتها بـ (السلف الصالح)، والمتمثلة في جيل أصحاب النبي ﷺ، وجيل تلاميذهم التابعين، وجيل اتباع التابعين، ثم مَنْ جاء من بعدهم من العلماء والعباد والقادة وغيرهم من أهل الاقتداء ملتزماً بمنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه.

فالصورة المثالية للمجتمع الإسلامي هي تلك الصورة التي تحققت في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين عقيدة وعبادة وأخلاقاً وشريعة، والتي تمثلت في التزامهم الكامل بالكتاب والسنة، فلن نهتدي لصورة مثالية لتدين الفرد والجماعة أفضل مما تحقق للنبي ﷺ وأصحابه، وما لم يكن عندهم ديناً لا يكون اليوم عندنا ديناً؛ وذلك لأن النبي ﷺ جاء ليبلغ ديناً ويربي أمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولذا أمرنا الله أن نقتدي بنبيه الكريم، ونتبع هدي أصحابه الصادقين الذي رباهم النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]،

(١) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٢٥٠٩)، ومسلم (ح: ٢٥٣٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، فضمن الهداية لمن أطاعه ﷺ، وقال ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وعن العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رُجُلٌ: إِنّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدّعٍ فَبِمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رسُولَ الله؟ قالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسّمْعِ وَالطّاعَةِ وَإِنْ عبد حَبَشِيٌّ؛ فَإِنّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَ اخْتِلاَفاً كَثِيراً، وَإِيّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنّهَا ضَلاَلَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْكم بِسُنّتِي وَسُنّةِ الخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ الْمُهْدِيّينَ، عَضّوا عَلَيْهَا بالنّوَاجِذِ**»(١). وقد قال النبي ﷺ: «**فَإِنّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىَ مُحَمّدٍ، وَشَرّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلّ بِدْعَةٍ ضلالة**»(٢).

ومن هنا كان من الضروري أن تكون مثالية الجيل الأول من المسلمين محل اتفاق بين أهل القبلة، وأن يكون ذلك الجيل مقياساً للفهم الصحيح للإسلام، ومرجعاً عند التنازع في فهم أصل من أصول الإسلام أو نص من نصوصه، كما ينبغي أن يكون الواقع العملي لذلك الجيل مرجعاً لجميع المسلمين في التطبيق الصحيح للإسلام، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وغيرها من أدلة كثيرة.

وبهذا يُعلم أن أي قدح في ذلك الجيل الفريد، أو تشكيك في أهليته ليكون قدوة لأجيال المسلمين في فهم الإسلام وتطبيقه، هو في الحقيقة طعن في صميم الإسلام، وقدح في نجاح التربية النبوية لذلك الجيل، بل رد للشهادة الإلهية الكريمة لذلك الجيل بالصدق والفلاح كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

(١) رواه الترمذي (ح: ٢٦٧)، وقال هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح: ٢٥٤٩.

(٢) رواه مسلم (ح: ٤٢٠٢).

ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وأمام هذه التزكية الإلهية العامة الشاملة لهذا الجيل نجد أن ما قد يُنسب إلى بعض أفراده من هَناتٍ يُظن أنها تتعارض مع هذه التزكية، فهي أولاً: في غالبها أمور قد وقعت ــ بلا شك ــ عن تأويل واجتهاد، وكل واحد منهم كان يظن أنه على الحق، واعتقادهم ذلك لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ؛ فصاحبه معذور مغفور له.

وإن بعض تلك الأمور لا تخلو من أحد حالين:

إما أن تكون افتراءات وكذباً محضاً لم يقع منهم، أراد بها الحاقدون على الإسلام النيل من ذلك الجيل تذرعاً للنيل من الإسلام نفسه، وهذه تكثر في المرويات التاريخية غير الموثّقة التي امتلأت بها كتب الحكايات الأدبية والشعوبية والقصص والأخبار عند الفرق التي لا تراعي الصحة والثبوت فيما ينقلون، ويعتمدون، وإما أن يكون أصل المنقول صحيحاً ثم نقص فيه وزيد وغيِّر عن وجهه الصحيح، وهذا كثير جداً، فالواجب علينا الاعتماد على الروايات الصحيحة الثابتة في مصادرها الموثوقة.

وإما أن تكون زلات فردية محتملة اقتضتها الطبيعة البشرية، فعادت التوبة منها منقبة لصاحبها، فهي على الحال التي تكرر الثناء الإلهي على أصحابها كثيراً في نحو قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، فهم غير معصومين عن كبائر الإثم وصغائره، ولكن العصمة في إجماعهم، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر[1].

(١) انظر: شرح العقيد الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٢٨٥ ــ ٢٩١).

ولا يخرج عن هذه الطبيعة البشرية ما قد يحصل بين المؤمنين من الخصومات التي قد تصل إلى حد الاقتتال – وهو أشد ما تمسك به الخائضون في نقد جيل الصحابة – الذي بيّن الله تعالى سلفاً سبيل معالجته بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩ – ١٠]، فلم يجعل مجرد الاقتتال مانعاً من وصفهم بالإيمان والأخوّة(١).

ومن ظن أن من شرط المثالية والإمامة في الجيل الأول السلامة التامة والعصمة الشاملة فإنه يفترض مجتمعاً ملائكياً على غير التركيبة البشرية والجِبِلّة الآدمية، فلا يصلح قدوة لمن لا يشاركه في فطرته وخلقته.

وحتى الأنبياء عليهم السلام، وهم صفوة الخلق، قد قص الله علينا في كتابه الكثيرَ من استغفارهم وتوباتهم، فقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقال عن آدم عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وقال عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤ – ٣٥]، فبأي حق بعد ذلك يُتذرع إلى الطعن في جيل الصحابة لمجرد فتنة سعى فيها أهل الشقاق والنفاق من غيرهم حتى أدت إلى اقتتالهم، مع ما حصل بعد ذلك منهم من الندم والتألم لما جرى واستغفار بعضهم لبعض!(٢).

---

(١) انظر عن فتنة الاقتتال بين الصحابة والرد على من تذرع بها للطعن فيهم منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٤/ ٣٩٤ وما بعدها.

(٢) للاستزادة في موضوع الدفاع عن جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أحيل القارئ الكريم على المؤلفات التالية: "صب العذاب على من سب الأصحاب" لمحمود شكري الآلوسي[١٣٤٢هـ]، حواشي محب الدين الخطيب على القسم المتعلق بتحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ من كتاب "العواصم من القواصم" لأبي بكر بن العربي المالكي[٥٤٣هـ]، "فصل الخطاب في مواقف الأصحاب" لمحمد صالح الغرسي، "حقبة من التاريخ" لعثمان الخميس.

ومما سبق تتبين أهمية دراسة ذلك الجيل الخيّر، دراسة تحليلية متزنة موثقة، تجلّي المقومات التي أهلته لأن يوجه له الخطاب الإلهي الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتكشف سر استحقاقه للوعد القرآني: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله تعالى ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، فهذه الآيات كلها قطعاً في الصحابة قرر الله فيها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ ووعد الله لا يخلف كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

وإن من حقائق التاريخ المستعصية على التجاهل والكتمان أن المسلمين الأوائل تسلموا قيادة العالم، فكرياً وعسكرياً وسياسياً، أحقاباً من الزمن، لا لمجرد دراسات فكرية، أو انتصارات عسكرية، أو دهاء سياسي، بل لأمر من وراء ذلك كله، أخرجهم من ظلمات الجهل والخرافة والذل والتبعية لأعدائهم، إلى نور العلم والإيمان والتوحيد والعزة والكرامة، وحررهم من استرقاق الشهوات والنزوات التي طالما استعبدت أمماً وشعوباً، فحق على من خلف تلك الأجيال في حمل رسالة الإسلام أن يستطلع ذلك السر، ويستخبر ذلك الأمر، طمعاً في تحققٍ آخرَ للوعد الإلهي القرآني متى ما تحققت شروطه.

المبحث الثاني

أساس بناء المجتمع المسلم

لقد خلق الله تعالى الإنسان مدنياً اجتماعياً ألوفاً لبني جنسه[١]، فلا بد له في وضعه الطبيعي من الانضواء تحت تجمع يلاقي مصالحه، ويحقق له أكبر قدر ممكن من مقومات العيش الرغيد، إلا أن ملامح هذا التجمع تتغاير تبعاً لاختلاف التصورات التي على أساسها تكون التجمعات البشرية، ابتداء من أصغر وحدات هذا التجمع وهي الأسرة، وانتهاء بأكبرها وهي الدولة.

ولما كان لهذه الفطرة الإلهية في الإنسان أكبر الأثر في قيامه بوظيفة العبودية التي خلقه الله من أجلها، جعل له الإسلام منهاجاً محدد الملامح لعلاقته بمجتمعه، يترتب على الالتزام به والسير عليه تحقق الحكمة التي خلق من أجلها.

وإذا كانت الحكمة الإلهية لخلق الإنسان هي العبودية لخالقه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإنَّ هذه العبودية لا تقتصر على العلاقة الفردية بين العبد وخالقه، بل هي تتمثل كذلك في أنواع من العبوديات يؤديها الناس لخالقهم حال اجتماعهم، كما يؤدون شعائرهم حال انفرادهم.

وليس المقصود هنا بهذه العبوديات الاجتماعية الشعائرَ التي تؤدَّى في جماعة، كصلاة الجمعة والجماعة والعيدين والحج ونحوها من الشعائر على قداستها وأهميتها البالغة، وإنما المقصود هنا القيامُ بتلك الشرائع الربانية التي من شأنها أن تبسط العدل والأمن في الأرض، وترفع الظلم والبغي والعدوان، والتي ينتظمها الفهم العام الشامل لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوّهِ بها في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فكما أن الله تعالى، إذْ أمر بعبادته، بيّن صفة هذه العبادة في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وبين أنه لا يقبل عبادة على غير الصفة التي بيّن، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وكما في قوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا**

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤١.

هذا ما ليس منه فهو رد»[(١)]، كذلك فإنه لم يترك الناس هملاً في شؤون اجتماعهم، بل بين لهم ما يؤدون به حقه عليهم في هذا الحال، وحقوقهم فيما بينهم، ويعمرون به الأرض على ما يوافق وظيفة العبودية التي خلقهم لها، وإن كانت العبودية في هذا الجانب غير مقيدة بصفة محددة كحال الشعائر، بقدر تقييدها بمقاصدَ عامةٍ ومصالحَ معتبرة، وضوابطَ كليةٍ تتناسب وجماعيةَ التكليف.

لقد جعل الإسلام أساس الرباط بين اتباعه هو رابط الانتماء لهذا الدين، وهو ما يعني بالدرجة الأولى، الالتقاء على أصوله الكبرى القطعية من العقائد الغيبية المتمثلة في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، والشعائر العملية المتمثلة في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وعنوان هذه الأصول كلها كلمة "لا إله إلا الله"، فمن قالها مدركاً لمعناها ملتزماً بمقتضاها فهو في عداد المجتمع المسلم المرتبط برابطة الأخوة الإيمانية التي تعلو على كل رابطة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكما قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)]، وعن حُمَيْد قَالَ: سَأَلَ مَيْمُونُ بن سِيَاهٍ أَنَسَ بن مَالِكٍ قَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، مَا يُحَرِّمُ دَمَ الْعبد وَمَالَهُ؟ فَقَالَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ وَعَلَيْهِ**»[(٣)].

وللمسلم بذلك على إخوانه حقوق هذه الرابطة من الحب والولاء والنصح والنصرة في الحق، ولهم عليه مثل الذي له عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذا الرابط خاص بالمؤمنين بالإسلام الذي هو شريعة محمد خاتم الأنبياء والرسل، صلوات وسلامه عليهم أجمعين، لا يشمل المعرضين عن اتّباعه، سواء من المنتمين إلى الشرائع المنسوخة المحرّفة، فضلاً عن اتباع الديانات الوثنية الوضعية، أو من غيرهم، كما قال سبحانه:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٢٢٥٠)، ومسلم (ح: ١٧١٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٢٤٤٢)، ومسلم (ح: ٦٧٠٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٣٩٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وفي الحديث: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يردّ مشدّهم على مضعفهم، ومتسرعهم على قاعدهم، لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده**»(١).

وهذه الخصوصية لا تعني مطلقا استباحة البغي والظلم والعدوان على غير المسلم، بل إن له حقوقا ضمنها الإسلام حتى في حال الحرب من شأنها أن تحقق العدالة والرحمة العامة الشاملة للعالمين، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

ولا تنفصم هذه الرابطة العقدية إلا بالإخلال بتلك الأصول الكبرى المعلومة من الدين بالضرورة على وجه لا يتصور معه بقاء مصداقية الانتماء للإسلام، وهو ما سماه القرآن رِدّةً في نحو قوله تعالى: س وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وذلك يكون على صور عدة سماها العلماء: "نواقض الإسلام" و "قواطع الإسلام" وشرحوها باستفاضة في كتب العقائد، وفي أبواب الردة من كتب الفقه.

ومن قصّر في شيء من حقوق هذه الرابطة العقدية بأن زاغ في شيء من العقيدة والشريعة عن كتاب الله وسنة نبيه، وما أجمع عليه المسلمون الأوائل من أصول الدين العلمية والعملية لم يفقد رابطة الأخوة الإيمانية إلا أن يقع في كفرٍ صريح بواح عندنا فيه من الله برهان، كعبادة غير الله تعالى، أو الاستهزاء بشيء من دينه، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة، لكنه لا يكون في مؤاخاته كمن سلم من هذا التقصير، فالمستقيم على طريقة السلف الصالح أولى منه، وهو أولى

(١) رواه أبوداود ٢٧٥١ برقم، والنسائي برقم ٤٧٣٥، وابن ماجه برقم ٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥، وأحمد في مسنده ١/ ١٢٢، ٢/ ٢١١، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" برقم ٢٢٠٨.

من الكافر الأصلي، كما أن الكافر الكتابي أقرب من الكافر الملحد أو الوثني، وهذا من حيث الجملة، كما أن هناك اعتبارات أخرى في التفريق بينهم فالداعي إلى بدعة ليس كغير الداعي، والكافر المقاتل ليس كالمسالم وهكذا.

وقد كان من الحكمة الإلهية أن جعل كثيراً من شعائر الإسلام العظام ذات صبغة جماعية تأكيداً على هذه الرابطة، كما في القبلة، وصلوات الجمعة والجماعة والأعياد، ورمضان، والحج والجهاد؛ فإن لهذه الشعائر الجماعية أثراً بالغاً في إبقاء الشعور بالارتباط العقدي حياً بين المسلمين.

وإذا كانت العلاقة العقدية الإيمانية هي الأساس الذي يقوم عليه بناء المجتمع المسلم، وإذا كان تحققها شرطاً لأهلية الأمة المسلمة لحمل رسالة الإسلام للعالمين، وإذا كانت الهوية العقدية وحدها هي العنوان الذي يؤهلهم منصب القيادة والريادة بين الأمم، فإنه من الضرورة القصوى أن نعلم أن هذه الهوية لا مفعول لها ما لم تكن باقية على صفائها ونقائها كما أنزلها رب العالمين على خاتم المرسلين، ﷺ، سالمة من جناية التبديل والتحريف والتزييف تحت أي ذريعة من تأويل أو توفيق، وأن السر في استحقاق هذه الهوية أن تكون عنوانَ الأمة الأوحدَ هو ربانيتها الخالصة من شوائب الابتداع والزيادة والنقصان.

وهذا يعني أنه لا دور في تكوين هذه الهوية لميراث الآباء أو المتبوعين، واجتهادات الغالين أو المفرّطين، والعصبيةِ لغير ميراث سيد المرسلين، فضلاً عن أن هذه الجنايات والشوائبَ والعصبيات من شأنها أن تشتت الأمة، وتفتت مرجعيتها الأصلية في الكتاب والسنة إلى مرجعيات لا حصر لها، كل منها يزعم أنها أهلٌ لالتفاف الأمة حولها.

كما أن هذه الهوية الربانية الخالصة هي وحدها التي تخوّل الأمة طرح ثقافة عالمية غيرِ محسوبة على قومية أو عصبية أو إقليمية أو مصالح معينة، وإنما هي الفطرة الإلهية النقية الصافية، وخلاصة ميراث الأنبياء والمرسلين جميعاً من لدن آدم ونوح إلى خاتمهم عليهم الصلاة والسلام، كما قال سبحانه: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٨].

وأما نظرة الإسلام إلى الروابط الأخرى التي يلتقي عليها البشر في تجمعاتهم فهي جامعة بين الرحمة والحق، وبين الحكمة والعدل، فالرابطة التي يترتب عليها مصالح معتبرة للناس ولم تتضمن ظلماً وعدواناً واجتماعاً على الباطل لا يلغيها الإسلام، بل يهذبها ويوجهها للخير، والرابطة الفاسدة من أصلها، المبنية على عصبية باطلة، أو قيم فاسدة، أو مصالحَ غيرِ عادلة ينعم بها أناس على حساب آخرين، لا اعتبار لها في الإسلام، بل هي مصنفة في خصال الجاهلية التي جاء الإسلام لمحوها وشفاء الناس منها.

وقد بُعث النبي ﷺ في بلاد العرب والرابطةُ الأولى لتجمعاتهم العصبيةُ القبلية، المبنية على قرابة النسب والرحم والمصالح المشتركة لأبناء القبيلة من القوة والكثرة، في مجتمع يعتبر الاستيلاء على مال الغير بالقوة من طرق الكسب المشروعة، فهذب الإسلام هذه العلاقة بأن أصّل في نفوس الناس مبدأ العدل، وأمات العصبية القبلية التي تجعل الفضل في مجرد الانتماء إلى القبيلة(١)، واستثمر هذه العلاقة النَّسَبية الفطرية بين الأقارب في الخير، وسخّرها في الحق، فكان يجعل العرفاء على القبائل(٢)، ويعقد الألوية في غزواته قبيلة قبيلة(٣)؛ لما في ذلك من الحث على التنافس بين القبائل في نصرة الله ورسوله، فلم يكن من هم النبي ﷺ أن يلغي هذه الرابطة بالمرة، وإنما كان همه أن يهذب هذه الرابطة الطبيعية ويوجهها إلى الوجهة الصحيحة(٤).

إن من يقدم نفسه للعالم اليوم من المسلمين بهُوية قومية حتى ولو كانت القوميةَ التي منها نبي الأمة، عليه الصلاة والسلام، لَيفوّت على نفسه رصيداً ضخماً من مسوغات القيادة والريادة لأمم الأرض، فضلاً عن تفريطه في الأمانة التي تحمّلها بانتمائه إلى الإسلام، وسيبقى بهذه الهُوية القومية المحدودة أو تلك نظيراً أصغر أو مساوياً في أحسن حالاته لقوميات لا حصر لها، كل يدعي لنفسه أنه على طريقة مثلى، وثقافة فضلى، فبأي حق يتحول إلى طريقة قوم آخرين!

---

(١) انظر في هذا الآثار التي أوردها أصحاب التفسير المأثور كابن جرير وابن كثير والسيوطي في الدر المنثور عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات ١٣].

(٢) انظر: صحيح البخاري، حديث ٦٧٥٥، وبوب عليه البخاري: باب العرفاء للناس.

(٣) انظر: صحيح البخاري، حديث ٤٠٣٠.

(٤) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٣/ ٥٩٥ وما بعدها.

أما من لا يرى أصلاً تقديم نفسه للعالم، ويعتبر ذلك عبئاً ثقيلاً، من الذكاء طرحُه، ومن الحزم الإعراض عنه، ويرضى بأي موضع من الأرض ينتسب إليه، ويوالي ويعادي من أجله فقط، ما دام يحقق مصلحته الدنيوية، ويحصّل به شهوته ولذته ومتعته البهيمية، فواضح أن الخطاب لا يشمله؛ فإن هذه الرؤية غير متصوّرة من مسلم صادق يعرف نعمة الله عليه في هذا الدين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

إن التزام المسلم بهويته العقدية لا يعني تنكّره لانتماءاته الطبيعية الأخرى، فهو ابن أسرته البارّ، وهو فرد خيّر محسن في قبيلته وقريته وحيّه، وهو عضو منتج فعّال في مجتمعه ووطنه الذي ينتمي إليه، وهو في ذلك كلّه يستلهم استقامته وخيريّته وإيجابيته من عقيدته، فهو يتعامل مع الله وبالله في ذلك كلّه، قد ربح دينه، ولم يخسر دنياه، فإذا جمح شيء من هذه الانتماءات بدافع شهوة أو عصبية كبَحَه بالانتماء الأعظم، وألجمه بلجام الإيمان، كما حصل مع الأوس والخزرج لما حرّش بينهم رجل يهودي حتى كادوا يقتتلون، فأدركهم النبي ﷺ وزجرهم ووعظهم وذكرهم بقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣][(١)].

وإذا كان المسلمون في تاريخهم الطويل قد عرفوا أنواعاً من الانقسامات والانتماءات السياسية والإقليمية، التي بلغت أوجها في هذا الزمان الذي قد تقسمتهم فيه الأوطان، وصنفتهم الحدود إلى جنسيات منتمية إلى وحدات سياسية، ودول ودويلات تتفاوت في إمكاناتها، في واقع يطول شرح الظروف المؤدية إليه، منها ما يرجع إلى الاستعمار، وحركات الاستقلال في القرن الماضي، ومنها ما يرجع إلى طبيعة الأقاليم الجغرافية، وتركيباتها السكانية، ومنها ما هو امتداد تاريخي طبيعي لكيانات قديمة، حتى صارت الانتماءات الوطنية هي السمة العامة في واقع المسلمين اليوم؛ فإن الإسلام يبقى هو الرابط الرئيس الذي يجمع كل هذه الكيانات والانتماءات، وتبقى الرابطة الإيمانية هي الجامعة لكل تلك الانتماءات.

والإسلام يمتلك من مقومات التغيير إلى الأصلح وإعادة البناء ما هو كفيل بتجاوز أي واقع قد يكون غير ملائم لعقيدته أو شريعته، وربما يتحقق ذلك على السنة الإلهية المذكورة في

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فإن الله جعل للمسلمين فسحة في دينهم، فلهم في التعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق والعدل، والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، والتكافل والتعاون الاقتصادي والسياسي والعسكري بين دولهم وأوطانهم، ما يحققون به بعض ما فاتهم إذ لم يكونوا دولة واحدة، من القوة والمهابة والثروة.

وقد قال نبينا ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»(١)، وقال: «**المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله**»(٢)، فالواجب على المسلمين في علاقاتهم السياسية بين دولهم من التآخي والتآزر والتكافل والتعاون والتناصر في الحق والعدل كالواجب عليهم في علاقاتهم الفردية، وحقوقُ الأخوة الإيمانية تشمل الحالين.

أما إذا طغت الصبغة الوطنية والنعرة الإقليمية على رباط العقيدة الإيمانية، بحيث تقدّم استحقاقاتها والتزاماتها، أيا كانت، على حقوق الأخوة العقدية تجاه كل مسلم، فإنها تعود في ميزان الشرع ضرباً من دعاوى الجاهلية.

(١) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٤٦٧) ومسلم (ح: ٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٤٦٧) ومسلم (ح: ٢٥٨٥).

المبحث الثالث

مقومات بناء المجتمع المسلم

إذا تبين مما سبق أن الأساس العقدي هو الرابط الرئيس والمقدم للتجمع الإسلامي، وأن ما سواه من الروابط خاضعة له مضبوطة به؛ فإن لهذا الرابط استحقاقات عقدية على المجتمع المسلم تشكل قوام الصبغة الإلهية التي رتب الله عليها خيرية الأمة المسلمة، على أنه سيلاحظ أنها ليست جميعاً قضايا نظرية بحتة، كما هو المعتاد في غالب الدراسات العقدية المتأخرة عن عصر السلف، بل منها قضايا عملية تُجسد الأثر العقدي الصادق لرابطة الأخوة الإيمانية، وتترجم المبدأ الراسخ للسلف في تفسير حقيقة الإيمان بما يجمع العلم والعمل(١). وفيما يلي عرض لأهم هذه المقومات، وبعض ما قد تواجهه من التحديات المعاصرة داخل المجتمع المسلم وخارجه.

المطلب الأول: الإيمان الصحيح الراسخ:

سبق أن أشرنا إلى أن الأساس الذي قام عليه التجمع الإسلامي هو رباط العقيدة، وقد صار من البدهيات لدى كل دارس للثقافة الإسلامية الأصيلة أن العقيدة الإسلامية ليست مجرد معارف ومعلومات يتصورها المسلم ويصدق بها وحسب، بل هي إيمان راسخ في القلب، يتجلى في التزام عملي بالجوارح، وأن الإيمان لا يصح إلا باليقين المنافي للشك والريب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وإذا كان هذا شرطاً لصحة إيمان الفرد المسلم فإنه كذلك من أعظم مقومات خيرية الأمة المسلمة بين الأمم؛ وذلك أن حمل

---

(١) يعتقد أهل السنة والجماعة أن الحقيقة الشرعية للإيمان تتجاوز الحقيقة اللغوية، فتشمل الجانب العملي من الدين كما تشمل الجانب الاعتقادي، فالإيمان عندهم تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، يزيد وينقص ويتجزأ ويتبعض، خلافا للمرجئة الذين أخروا العمل عن حقيقة الإيمان ومسماه هروباً من مذهب الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة بناء على زوال كل الإيمان بزوال بعضه لاعتقادهم أنه لا يتجزأ ولا يتبعض، وغفل المرجئة الذين وافقوا الخوارج على فكرة عدم تبعض الإيمان عن أن مذهب الخوارج ليس بلازم لمذهب السلف، وأن تأخيرهم العمل عن مسمى الإيمان أدى إلى التقليل من أهمية الالتزام العملي بالدين، فضلاً عن مخالفته لحقائق المصطلحات الشرعية المأخوذة من نصوص الكتاب والسنة. انظر تفصيلاً أكثر في مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٤٢ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٥٥ وما بعدها.

رسالة الإسلام والعملَ من أجل الدين القويم ما هو إلا فرع عن اعتقاد راسخ بربانيته وعصمته وأحقيته بالاتباع بين المناهج الوضعية، وانفراده بالصلاحية والإصلاح لكل زمان ومكان، ومناسبته لكل عصر ومصر؛ حيث إن واضعه وشارعه هو خالق الخلق جل وعلا وهو أعلم بما يُصلح خلقه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن هنا كانت البداية الأولى في الإصلاح النبوي هو تصحيح العقيدة في الله كما جاء في صحيح البخاري في سؤال هرقل لأبي سفيان فقال له: (فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعبد اللهَّ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعبد آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ)(١).

وهي من أكثر الموضوعات وروداً في القرآن، ولا يمكن إقامة بناء الإسلام في العبادة أو الأخلاق أو السياسة أو الاقتصاد دون تجلية موضوع العقيدة، وترسيخ قيم الألوهية في قلوب المؤمنين، حتى يكون الله تعالى حاضراً في قلوبهم في كل لحظة، يراقبونه ويتقونه في كل تصرفاتهم، ويستعينون به في كل أحوالهم، ويتطلعون إليه بالرجاء والخشية، وذلك هو الطريق الذي أصلح به الأنبياء النفوس البشرية، وهدموا به الحياة الجاهلية؛ ولذا عني القرآن بتعريف المؤمنين بربهم بكل صفاته، وعمَّق في قلوبهم عظمته من خلال ما عرض من عظيم صفاته، وآياته في الكون الخاضع لعظمته، بما تحدث القرآن عنه من سننه في أخذ الظالمين في الأرض، مع بيان قدرته المطلقة في الكون الخاضع لعظمته.

المسلم في عهد النبي ﷺ، منذ اللحظة الأولى التي يعلن فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يصبح انتماؤه لدينه، ويتبرأ بعدها من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فتتحول حياته كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء: في الاعتقاد، والعبادة، والأخلاق، وفي الحكم، وفي سياسة المال، وفي سياسة المجتمع... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها؛ فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ

(١) حديث رقم ٢٩٤١.

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

ويصبح الانتماء إلى التوحيد هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة كبرى، ولا شيء غيره، فهو أساس الانتماء، ورابطة الولاء... وإذا ما نحيَّنا الإسلام بعقيدته جانباً فمن المستحيل أن نجد قاسماً مشتركاً آخر تتفق عليه وتلتقي عنده الأمة الإسلامية، فلا الأرض ولا اللغة ولا التاريخ يمكن أن تكون القاسم المشترك لأمتنا، وذلك لأن الأرض واللغة والتاريخ تعتبر امتداداً للإسلام.

إن العناية بصفاء التوحيد، ونقاء العقيدة، مع انتزاع رواسب الجاهلية في عبودية غير الله، كان من أهم مقومات الإصلاح النبوي، وما تزال هي الطريق الوحيدة لكل تربية جادة لا تريد العبث واللهو والتسول على فتات الشرق والغرب، باسم الإسلام، وضغوط العصر الحاضر ومدنيته المادية.. وذلك للآتي:

أولاً: لأن أساس الإصلاح يقوم بصلاح المعتقد: لأن من عرف الله بذاته وصفاته سهل أخذه بشريعته؛ ولذا فالمشركون لما جهلوا قدر الله جهلوا قدر شرعه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانياً: لأن الله لا يقبل الأعمال بفساد المعتقد: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦]، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ: «**لاَ يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِيخَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(١).

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٥٤٠.

ثالثاً: لأن منهج جميع المرسلين قائم على هذا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ولذلك كانت الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام، واتباعهم أول ما يبدؤون من الدعوة بتوحيد الله عز وجل، فلم يكونوا يعالجون بادئ الأمر المشكلات الأخلاقية ولا الاقتصادية وغير ذلك مما افتتن بمعاجلته كثير من الدعاة اليوم مع الغفلة عن المشكلة الأساسية، وهي انحراف الكثير من المسلمين اليوم وما قبل عن العقيدة الصحيحة.

فالإيمان الصحيح الراسخ هو الذي يثمر أمة تغير وجه الأرض من الشر إلى الخير، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى الوحدانية، ومن الظلم إلى العدل، ومن الفواحش واتباع الشهوات إلى العفاف والطهارة والزكاء؛ ليس تعصباً لمذهب موروث عن الآباء، أو لفرقة ذات تاريخ مشترك، أو لطائفة تربطها مصالح فئوية، أو غير ذلك من التجمعات ذات العنوان الديني المجرد من أهم مرتكزات الاعتقاد، ألا وهو الدليل والحجة والبرهان؛ فإنَّ مجرد التعصب لفكرة معينة، والتشبث بها حتى التضحيةِ في سبيلها بالنفس والنفيس قد يحصل من صاحب النحلة الباطلة، وليس هذا مقصودَنا ومرادَنا هنا، وإنما نريد صحة الإيمان ورسوخ اليقين المبني على آيات بينات كالشمس في رابعة النهار، وكالبدر ليس دونه سحاب، المبني على أدلة الوحي المحفوظ المعصوم، والمؤيد بالعقل الصريح، والحس السليم، والفطرة المستقيمة، فهذا هو اليقين الذي يرفع صاحبه عن حال من أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

أما مجرد التمسك بالموروث لا لشيء إلا لكونه موروثا عن الآباء فهذا في متناول الجميع مهما تناقضوا في آرائهم واختلفوا فيما يظنون أنه الحق، وليس هذا من الخيرية في شيء، وبهذا نعلم أن سبيل الخلاص لأمة الإسلام من اختلافاتها العقدية الكبرى إنما هو بنبذ التعصب الأعمى لكل ما هو موروث عن غير خاتم الأنبياء، عليه وآله الصلاة والسلام والسلف الصالح، ومراجعةِ كل رأي ومقولة بعرضها على الوحيين وما فهمه منهما الصحابة والتابعون، واستبعاد كل ما هو أجنبي غريب عما كان عليه المسلمون الأوائل من مصادر معرفة العقيدة والشريعة.

وقد نوه القرآن بهذه السمة في الأنبياء واتباعهم فيما قص علينا من خبرهم وخبر أعدائهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ٩-١٢].

المطلب الثاني: التمسك بالوحي الإلهي (الكتاب والسنة) علماً وعملاً:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(١)، فإن محور الإيمان برسالة الإسلام الاعتقاد اليقيني الجازم بأن محمداً ﷺ لم يأت بشيء من الدين من عند نفسه، فضلاً عن غيره من الجن والإنس، وإنما هو كما وصفه ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، واللازم البدهي المباشر لهذا الاعتقاد اليقيني أن يكون الميراث العلمي للرسول مصدراً يقينياً ملزماً لاتباعه في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، العلمية والعملية، ولا يتصور في مسلم يوقن بالرسالة المحمدية أن يعرض عن شيء من هذا الميراث وهو يعلم أنه من الهدي النبوي؛ ولذا كان الإعراض عن حكم الله ورسوله من سمات المنافقين الظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

(١) رواه مالك في الموطأ (ح: ١٥٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٠٨٣٣، والحاكم في المستدرك (ح: ٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

[النور: ٤٧-٥٢].

إن معنى شهادة المسلم بأنَّ محمداً رسول الله أن يكون الرسول مصدراً يقينياً لجميع المعتقدات لديه عن عالم الغيب وحقائق الكون والالتزام بما جاء عن الرسول ﷺ من صفات المهتدين قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، فلا يلتفت إلى غيره إذا خالفه، بل يجزم بأن أي تصور مخالف لما جاء به هو كاذب خاطئ مبني على الهوى، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فإذا علم المسلم مثلاً أن الرسول أخبر بأن صاحب التصرف المطلق في المخلوقات هو الله وحده، وأن المطلع على الغيب هو الله وحده، وأن المعبود بحق هو الله وحده، لم يسعه بعد ذلك أن يكون له الخيرة في اعتقاد متصرف في الكون مع الله، أو مطلع على الغيب سوى الله، أو مستحق للعبادة من دون الله.

كما تعني هذه الشهادة العظيمة الالتزام التام بالأحكام التي جاء بها الرسول، وألا يكون الالتزام بها وقفاً على شيء سوى ثبوتها عن الرسول وصحة فهمها، فلا يتوقف قبولها على قناعات المفكرين، أو تصويت المجالس، فإذا علم المسلم مثلاً أن المعاملات الربوية، وأن تعاطي الخمور والمتاجرة بها، وأن كشف العورات محرمات في شريعة الرسول لم يسَعْه بعد ذلك أن يتنصل من الالتزام بهذه الأحكام تحت أي ذريعة ما دام قادراً، وإلا كان متناقضاً مع الشهادة التي يعلن بها انتماءه إلى الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولا يكفي في تحقيق الشهادة بالرسالة مجرد قبول ما جاء به الرسول والإعراض عما خالفه من التصورات والتشريعات الدينية حتى يضم إلى ذلك الاكتفاء بهذا المصدر، والإعراض عن أي زيادة من المصادر الأخرى، وضعية كانت أو منسوخة، حتى لو لم تكن مخالفة؛ لأن من المقاصد الشرعية الكبرى التي نادت عليها نصوص الوحيين النظر إلى الشريعة بعين الكمال(١)، مع الرضا والاستسلام، رضاً بلا تردد، وتسليم بلا كراهة، واتباع بلا مخالفة، كما

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي ٢/ ٣١٠.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

والله تعالى كما لا يقبل ديناً إلا إذا كان خالصاً لوجهه كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، كذلك لا يقبل تديناً إلا إذا كان وفق الشرع الموحى إلى رسوله كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعلى هذا نادى الرسول ﷺ على منبره بقوله: «**خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»(١).

ولما رأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحيفة من التوراة قال له: «**أمتهوكون فيها يا بن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو يخبروكم بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني**»(٢).

أما التصورات غير المخالفة وغير الموافقة في المصادر الأخرى فليس على المسلم من حَجْر ولا حرج أن يطلع عليها ويعتبر بها، غير أنها تبقى بعيداً عن معتقده الذي يدين الله به، فلا يترتب على قبولها أو ردها زيادة إيمان أو نقصانه، وقد قال النبي ﷺ في شأن أخبار بني إسرائيل: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»(٣)، «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (ح: ٨٦٧).

(٢) رواه أحمد ٢٣/ ٣٤٩ برقم ١٥١٥٦، وغيره. وحسنه الألباني لشواهده. إرواء الغليل ح: ١٥٨٩.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٣١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٤٢١٥).

وهكذا التشريعات الدينية المحدثة سواء كانت عبادات أو أحكاماً، فإنها مردودة بحكم صاحب الشريعة: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»(١).

أما التنظيمات المدنية، واللوائح الإلزامية المتعلقة بمصالح الناس الدنيوية فالباب فيها مفتوح لأصحاب العلم والخبرة والأمانة أن يحدثوا فيها ما يرونه أقرب إلى تحقيق مصالح الناس في حدود ما تسمح به الشريعة الإسلامية في رعايتها للمصالح العامة، ووفق قواعدها وأصولها العامة، كما دل على هذا قول النبي ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»، وقوله: «**إنما أنا بشر فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**»(٢)، مع أن الأصل في كل ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام من أمور الدين والدنيا أنه وحي إلا إذا اقترن بقوله ما يدل على أنه رأي أو ظن من عنده هو الذي يقال فيه: «**أنتم أدرى بشؤون دنياكم**»، وما لم يقترن بذلك فالأصل أنه وحي من الله، وعلى هذا جرى فعل السلف، رضوان الله عليهم.

وقد استدل قوم بهذه الروايات على أن الرسول ليس معصوماً من الخطأ في أمور الدنيا، وليس واجباً اتباعه وتصديقه فيها. بل قالوا يعرض ما يقول على ميزان النقد كسائر الناس، فإن جاء موافقاً قبل وإلا رد عليه. فردوا لذلك أحاديث صحيحة في البخاري وغيره، وتناسوا أن من أمور الدنيا أبواب المعاملات، والعقوبات، والحروب، والمواعظ، والطب، وأخبار الأمم الماضية والآتية، وأن الأمور الدنيويات قسمان: وحي من الله؛ كحديث الذباب وأحاديث الدجال، وسجود الشمس تحت العرش. واجتهاد رأي؛ (فالأول) معصوم فيه ولا ريب (والثاني) هو الذي يجوز فيه الخطأ، كما جاء في حديث أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شيئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا**»(٣).

وهذا النوع الثاني لابد أن يكون فيه من النص أو يحفه من القرائن الواضحة ما يدل على أنه اجتهاد من النبي ﷺ وليس من الوحي المعصوم.

وهنالك أمور سكتت عنها الشريعة فتح فيها العلماء باب الاجتهاد كحكم بين متخاصمين؛ ولهذا جعل علماء الشريعة من مصادر التشريع الفرعية في الإسلام "المصالح

(١) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٢٥٥٠)، ومسلم (ح: ١٧١٨).

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٣٦١-٢٣٦٣

(٣) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٨٠)، ومسلم (ح: ٤٥٧٠).

المرسلة"[١]، وهي الأحكام المتعلقة بمصالح الناس مما يستجد في حياتهم، ولم يأت التنصيص عليها في الكتاب أو السنة، فأُرسلت – أي لم تقيد بحكم معين- لاختلاف وجوه المصالح بحسب ما يستجد من أحوال الناس، وإن كانت قد قيدت بأصول وقواعد عامة لا تخرج عن دائرتها.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما استحدثه السلف بعد النبي ﷺ من جمع القرآن ونسخ المصاحف وتحزيبها وشكلها ونقطها، واتخاذ السجن والدواوين (المصالح والوزارات) ونحوها من الأمور غير التعبدية التي لم تكن في عهد النبي ﷺ ولم ينص عليها الوحي؛ لكنها تندرج تحت عمومات النصوص ومقاصد الشريعة، فلا تتصادم معها بحال[٢].

المطلب الثالث: التخلق بمكارم الأخلاق:

من أعظم مميزات الإسلام العناية الكبيرة بجانب الأخلاق الذي لا يوجد عمل واحد ينفك عنه، أو قائم على أساس غير خلقي؛ ولذا كان من أوائل الأمور التي دعا إليها النبي ﷺ العناية بهذا الجانب، كما جاء في قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي، (فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، أيها الملك...)[٣].

---

(١) انظر مثلاً: روضة الناظر لابن قدامة ١٤٨-١٥٠.

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/ ١٨٠ وما بعدها.

(٣) مسند الإمام أحمد (ح:١٧٤٠).

وقد جاء عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَله. وقيل: قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله. ثلاثاً. فجئت في الناس لأنظر. فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(١).

وقد اتسع الكلام في الأخلاق قديماً وحديثاً، وتناولتها الفلسفات والمناهج التربوية المتنوعة تأصيلاً وتفصيلاً، محاولة تحديد طبيعتها وأسسها ومعاييرها ومصادرها ووسائل الإلزام بها والتربية عليها(٢).

وجاء الإسلام ليرفع من شأن الأخلاق إلى الغاية، فجعل استكمال مكارم الأخلاق وتتميم صالحها المقصد الكلي للرسالة المحمدية الخاتمة، كما دل على ذلك الحديث الشريف: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٣) وفي رواية: «**مكارم الأخلاق**»(٤)، وبين ﷺ أن حُسن الخلق من أعظم ما ينافس به العبد العُبَاد الصائمين القائمين، فقال ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»(٥)، وربط ﷺ الخيرية بحسن الخلق فقال: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقا**»(٦).

وقد سبق الكلام بتوسع في هذا العنصر في المستوى الأول بما يغني عن الإطالة فيه.

المطلب الرابع: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله :

التضحيات في سبيل المبادئ تأتي على قدر قناعة العقول بها، وتشرّب النفوس لها، ومحبتها لواضعيها، وإذا كان هذا مشاهداً حتى عند اتباع المبادئ الوضعية، والمناهج الأرضية،

---

(١) رواه الترمذي وغيره (ح:٢٤٨٥)، وقال حديث صحيح.

(٢) راجع في هذا "مقدمة في علم الأخلاق" للدكتور محمود زقزوق، ٤٧ وما بعدها، "كلمات في الأخلاق الإسلامية" للدكتور كمال عيسى، ١٣٧ وما بعدها.

(٣) رواه أحمد٢/ ٣٨١، وقال ابن عبد البر: (هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً) انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ١/ ١٨٠.

(٤) رواها البزار، انظر: مجمع الزوائد: ٩/ ١٥.

(٥) رواه أبو داود ٤٧٩٨، وهو في صحيح الجامع للألباني برقم ١٩٣٢.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (ح: ٣٣٦٦)، ومسلم (ح:٢٣٢١).

والمصالح الدنيوية، والارتباطات العرقية، بل حتى المذاهب المنحرفة، والعصبيات الجاهلية، فكيف به عند اتباع الأنبياء والمرسلين، الذين بنوا مبادئهم على يقينيات الوحي الإلهي المصون المؤيد بالفطرة والعقل السليم، الممتزجة بوجدانيات الحب والخوف والرجاء، وعواطف المجاهدة والمصابرة والاقتداء بأطهر الخلق وأتقاهم وأنقاهم وأكملهم إنسانية، حتى استعذبوا العذاب، واستلانوا أقسا الشدائد في سبيل رضا محبوبهم سبحانه وتعالى.

فلا عجب إذن إن رأينا سلف هذه الأمة من القرون الخيّرة المفضلة، كاتباع الأنبياء وحوارييهم من الأمم السابقة، يسجلون أنبل المواقف، ويعرضون على رؤوس الأشهاد أبهى صور التضحية والفداء في سبيل الحق الذي دانوا به، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] مستلهمين قول ربهم: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وإذا كانت التضحية بالنفس في ساحات الجهاد من أعظم مظاهر التضحية فإن التضحية بالراحة والمال، وتحملَ أنواع المشاق النفسية والجسدية في سبيل رفعة الإسلام ونشر رسالته لا تقل عنها عظمة وثقلاً في الميزان الإلهي، وخذ مثلاً على ذلك المعاناة الهائلة التي تحملها علماء الإسلام قديما وحديثا وعلى رأسهم المحدّثون في سبيل حفظ الشريعة ونقلها ونشرها وبيانها والذب عنها وتبليغها، على قلة ما يملكون وعسر ما يواجهون، في صبر عجيب وجلَد مذهل، كل ذلك إيماناً واحتساباً، لا يبتغون عليه أجراً ولا راتباً، سوى الوعد الإلهي الكريم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ومن أمثلة العبر الرائعة في جدية حمل هذا الدين والتضحية في سبيله ما رواه ابن جرير بسنده عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال**

الرواسي»[١].

ومن هنا ربى الإسلام ذلك الجيل الفريد على تحمل مسؤولية الإسلام مع نبيه ومن بعده نشراً لقيمه في الأرض، ودفاعاً عنه بالنفس والمال وغيرهما؛ لأن الإسلام جعل أهله أصحاب رسالة قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فجعل الله سبيل نبيه والمؤمنين الدعوة إلى الله على بصيرة في صورة لازمة دائمة قبل التمكين وبعده؛ ولذا قال تعالى في وصف الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبذلك جعلهم شهداء في أرضه، والقائمين على دينه من بعده؛ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمكلفين من بعد نبيه في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فجيل لا يحمل قيمه ولا يدافع عنها بالسّنان واللسان والمال والقلم وغيرها غير مؤهل لحمل رسالة الإسلام.

المطلب الخامس: الوحدة وترك التنازع والاختلاف:

الوحدة بين المسلمين فريضة إلهية مؤكدة، يدل عليها قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]، وقوله ﷺ: «**مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٢].

وهي وثيقة الصلة بصحة المعتقد وسلامة المنهج وبقائه على صفائه كما أنزله الله[٣]؛ لذلك جاءت البراءة من أهل الفرقة والاختلاف في القرآن على هذا الأساس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ

(١) جامع البيان (٧/ ٢٠٧).

(٢) رواه مسلم برقم ٢٥٨٦.

(٣) انظر: الوحدة الإسلامية لأبي زهرة ص ٢٤٦.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وهي كذلك ضرورة عصرية لحصول الأمة الإسلامية على حقوقها ومحافظتها على كيانها أمام التكتلات الدولية العسكرية والاقتصادية.

وهذا تاريخ المسلمين يشهد بأن الأمة ما فقدت شيئاً من عزتها وهيبتها وأوطانها وثرواتها إلا وكان التشتت والتشرذم من أعظم أسباب ذلك، ولا يزال خبر الفردوس المفقود (الأندلس) وما أدى إلى فقدانه من تنازع ملوك الطوائف أمام صولات الصليبيين شاهداً على ذلك(١)، وهكذا اغتصاب اليهود فلسطينَ ما كان له أن يكون لولا فرقةُ المسلمين وانقساماتهم وخذلان بعضهم لبعض(٢)، فما بال أمة تملك من مقومات الوحدة والتعاون ما لا تملكه غيرها من الأمم غدت لقمة سائغة سهلة لأعدائها؟!

إن الاتحادات الوطنية والاقتصادية والتكتلات، والتحالفات السياسية التي نجحت فيها بعض الدول والقارات وجنت ثمارها ازدهاراً اقتصادياً وهيبة عسكرية واستقراراً أمنياً واجتماعياً لم تكن بمعجزات إلهية، ولا وصفات سحرية، ولا طفرات سريعة في برهة من الزمن، وإنما كانت نتيجة إرادة صادقة من القيادات، تترجمها جهود حثيثة وتنازلات ثمينة عن المصالح الشخصية أو الإقليمية الضيقة لحساب المصلحة الاتحادية العليا، كما كانت نتيجة وعي متكامل من الشعوب، وإلحاح مستمر من المفكرين على ضرورة تحقيق هذا المطلب، حتى غدت الوحدة والاتحاد ثقافة عامة تتربى عليها الأجيال فتتشبث بها وتؤمن بضرورتها لنيل مكانة كريمة بين الأمم(٣).

وأمة الإسلام مطالبة، شرعاً وعقلاً، أن تأخذ بهذه الأسباب وزيادة، فيجب على ولاة أمور المسلمين صدقُ الإرادة وتقديم التضحيات وإعطاء قضية الوحدة الإسلامية حقها من العناية والاهتمام، والنظر إليها على أنها ضرورة دينية ودنيوية، وأنها الملاذ الإلهي من سيطرة قوى الظلم والابتزاز، وتسلط المعتدين الذين لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، كما يجب على دعاة الإسلام وعلمائه ومفكريه بذل النصيحة للولاة في هذه القضية باستمرار، والحذر

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي للدكتور علي جريشة ص٩٩-١٠٨.

(٢) ولا يعني هذا غياب العوامل الأخرى التي في مقدمتها التآمر العالمي. انظر حاضر العالم الإسلامي للدكتور جميل المصري ص٣٠٥ وما بعدها.

(٣) انظر عن هذه التكتلات العالمية وتمزق العالم الإسلامي بينها المرجع السابق ص ١٤١ وما بعدها.

والتحذير من إغفالها، وتنبيه المسلمين دائماً إلى ضرورتها، وأنها مطلب شرعي أكيد، وضرورة دنيوية حتمية في الذب عن حياض الأمة ودينها ومقدساتها وثرواتها، والسعيُ الحثيث في سد كل باب للفرقة والتناحر وتفريق الصف الإسلامي، والمبادرة الدائمة المستمرة لإصلاح ذات بين المسلمين كلما نشأ خلاف أو ثارت حرب داخلية، وتذكيرهم وبذل النصح لهم بما أوجب الله تعالى عليهم من جمع الكلمة والاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبذ الفرقة والخلاف.

عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلّغت؟ قالوا: بلّغ رسول الله ﷺ. ثم قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: ليبلغ الشاهد الغائب(١).

المطلب السادس: تحقيق قيم العدل بين الناس:

من أعظم ما دعا إليه الإسلام وربى عليه النبي ﷺ أصحابه العدل فيما بينهم، والعدل مع الناس كافة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والإسلام حث على العدل حتى مع الخصوم والمفارقين للحق، لأن الله يحب القول والعمل بعلم وعدل، ويكره القول والعمل بجهل وظلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، قال ابن عاشور: «فإن العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عن

(١) رواه أحمد في مسنده: ٥/ ٤١١، وأكثر ألفاظه في الصحيحين.

ذلك، ولو قيد أنملة، يجر إلى فساد متسلسل»[١]، وقد ضرب أصحاب النبي ﷺ أروع الأمثال في العدل فيما بينهم ومع أعدائهم، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: **والله لقد جئتكم من أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض)**[٢].

وقد كان إقامة القسط في الأرض ومحاربة الجهل والظلم والفساد من أعظم ما دعا إليه الإسلام؛ وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء إما الجهل وإما الظلم، فالجهل علاجه العلم، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط.

ويكتسب هذا العنصر من مقومات خيرية الأمة أهميته الخاصة في عصرنا هذا من جهة أن هذه الخصلة من أكبر الدعاوى التي يتشدق الغرب بأنها صارت سمة لمجتمعاتهم، وأنها من عناصر القوة والاستقرار لديهم، وذلك ما يجعل لثقافتهم بريقاً يبهر المفلسين من الثقافة الربانية الأصيلة، ويحملهم عل اللهث وراء سراب الثقافة الغربية الخادع، ظناً منهم أن مجرد الاصطباغِ بهذه الثقافة سيولد لهم هذا المطلب الإنساني الضروري.

ومع أننا لا ننكر مصداقية هذه الدعوى إلى حد كبير على المستوى الداخلي في المجتمعات الغربية وأنها من أقوى أسباب هجرة المستضعفين والمقهورين إلى تلك المجتمعات ولجوئهم إلى الضمانات والحقوق التي تكفلها لهم قوانينهم الوضعية، إلا أن هذه المصداقية للعدالة في الثقافة الغربية لا تلبث أن تنحسر على المستوى العالمي أمام الخيارات الصعبة بين المصالح القومية للغرب، وبين تحقيق العدالة في الأزمات الدولية، فما من أزمة عالمية أو إقليمية شارك الغرب في صنعها أو تدخل في حلها إلا كانت مصالحه وأمنه القومي هي القيمة المطلقة في توجيه سياساته تجاهها، ثم تتولى الآلة الإعلامية الغربية الضخمة تغليف ذلك بدعوى تحقيق العدالة ونشر الحرية ونصرة المظلومين والمضطهدين والمستضعفين، مع أن الأمر في حقيقته غالباً ما يؤول إلى التضحية بهذه القيم في سبيل ضمان مصالحهم، وهذا هو الفارق الأعظم الذي ينبغي أن يدركه كل مخدوع بالثقافة الغربية بين العدالة باعتبارها قيمة ربانية ثابتة مرتبطة بالمعتقد، وبين العدالة باعتبارها قيمة نسبية تابعة للمصلحة القومية العليا.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٣٨.

(٢) رواه وأبو داود (ح: ٣٤١٠)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (ح: ٢٩١٠).

ومن الظلم البين وقصور النظر الاكتفاء بمقارنة ساذجة بين واقع المجتمعات الغربية المتمتعة بسيادة القانون على جميع طبقات المجتمع، وعدالة توزيع الثروات، وكفالة الحقوق والضمانات والحريات، وبين واقع المجتمعات الشرقية التي تغلب عليها معاناة الاستبداد والظلم والقهر والفساد المالي والإداري، ثم سحب ذلك على الثقافة الإسلامية باتهامها بأنها تمهد لذلك.

ومن باب إعلاء الإسلام من قيمة العدل حرم الرب سبحانه وتعالى الظلم على نفسه، فكيف بالخلق، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا**»(١)، ويأمر بتحقيق العدل مع جميع الناس حتى غير المسلمين كما سبق بيان ذلك، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

فالعدل في الإسلام قبل أن يكون مقتضى العقل والمروءة والإنسانية، هو عقيدة يعتقدها الإنسان في خالقه جل وعلا، وعبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه، ويقوم به لله حتى مع المخالفين الذين انعقدت أسباب بغضهم بحق، وهم أقرب ما يكونون عرضة للظلم والانتقام بغير حق، والتشفي حال التمكن منهم بمقتضى الغريزة البشرية، فيجعل الإسلام توقي المسلم من ذلك في حقيقته توقياً لعذاب الله تعالى وحذراً من حسابه وجزائه؛ لأنه بمقتضى عقيدته يتعامل مع الخالق قبل أن يتعامل مع المخلوق.

وإذا كان العدل فريضة على المسلم في خاصة نفسه وفي تعامله مع الناس على اختلاف طبقاتهم فإنه كذلك فريضة على الدولة الإسلامية في جميع سياساتها الداخلية والخارجية، ولا محل في المنهج الرباني الإسلامي لسياسة النفاق والكيل بمكيالين حسب ما تقتضيه المصلحة العليا كما في المناهج الجاهلية، بل المصلحة العليا في التصور الإسلامي في تحقيق العدالة المطلقة، والصدق والتضحية في سبيل ذلك هي عين الحكمة والحنكة السياسية، ولا تسقط هذه الفريضة الإلهية حتى حال العجز؛ إذ تحقيق العدل هو المبرر الأعظم لتولي قيادة الناس والفصل بينهم.

أما تأكيد الإسلام على مبدأ الطاعة لولاة الأمر فهو عين الحكمة والمصلحة؛ فإنه لم يُلزم

(١) صحيح مسلم (ح: ٢٥٧٧).

بذلك لأناس بأعيانهم على وجه مطلق[١]، بل جعله لمن انعقدت له الولاية الشرعية من قبل أهل الحل والعقد ممن اكتملت فيه شرط الولاية الشرعية، وهم وجوه الناس وقادة المجتمع من العلماء والفقهاء والخبراء والوجهاء والأعيان وزعماء القبائل وشيوخهم وعرفائهم في كل مجتمع وإقليم، حسب أعرافهم وثقافتهم المحلية المتلائمة مع الشرع، فهؤلاء إذا بايعوا من يرضونه لدينهم ودنياهم على إقامة شرع الله انعقدت له الولاية الشرعية، ووجبت طاعته على من بايعه ومن تبعهم من أهل ذلك الإقليم المنتفع بهذه الولاية.

وجعل الإسلام هذه الطاعة مقيدة بالمعروف، كما قال ﷺ: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يُؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[٢]، وقال ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»[٣].

ولا يخفى على أي عاقل أن هذه الطاعة ضرورة بدهية لانتظام أمر الحكم، واستقامة المصالح المناطة به، فإذا ما أخل المبايع له بعقد البيعة بأن أعرض عن تحكيم الشريعة الإسلامية أو مال إلى الجور مثلاً كان لأهل الحل والعقد استبدالُه بخير منه، فإن تعذر ذلك لم يجز الخروج عليه إلا بشرط إعلانه الكفر الأكبر الصريح[٤]، وتحقق القدرة على ذلك انتفاءِ الوقوع في مفسدة أعظم من بقائه، كأن تقع فتنة بين المسلمين تُزهَق فيها الأرواح وتُتلف الأموال، فتحريم الخروج على أئمة الجَور إذن ليس لأجلهم، وإنما لأجل المفسدة الغالبة المترتبة على ذلك، وهذا ما أكده الواقع في التاريخ الإسلامي، فإنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قَلَّ من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من

---

(١) انفرد الشيعة الإمامية بين طوائف الأمة بدعوى أن الإمامة منصب إلهي معصوم كالنبوة يتطلب تعييناً بالوحي، وتأولوا لذلك، على منهج باطني آيات من القرآن، وساقوا أخباراً مكذوبة نسبوها إلى النبي ﷺ، واحتجوا عقلاً بأن الحكمة الإلهية تقتضي عدم ترك الأمة في شأن الإمامة فريسة للنزاعات والأطماع، وانقلبت هذه الحجة على ما يعتقده معظمهم من غيبة الإمام! وترك الأمة في بلائها أكثر من ألف عام، ثم تدارك بعضهم هذه الورطة بنظرية ولاية الفقيه، ومما ألفه علماؤهم في شأن الإمامة "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة" لابن المطهر الحلي، وقد نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية بكتابه المشهور "منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية".

(٢) صحيح البخاري ٦٧٢٥، وصحيح مسلم ١٨٣٩.

(٣) صحيح البخاري (ح: ٧١٤٥)، ومسلم (ح:٤٨٧١).

(٤) انظر صحيح البخاري (ح: ٦٦٤٧)، وصحيح مسلم (ح: ١٧٠٩).

الخير)[١]،ولهذا قال السلف: «ستون سنة من إمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان»[٢].

المطلب السابع: التراحم والتكافل الاجتماعي :

إن الإسلام اهتم بصورة كبيرة بالتراحم والتكافل بين أفراده، حتى أصبح الواحد يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه كما قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣] وأصبح المجتمع كما وصفه النبي ﷺ بالجسد الواحد والبنيان المرصوص كما جاء في الحديث: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٤].

والمراد بالتكافل[٥]هنا أن المجتمع المسلم المحقق لروابط الأخوة الإيمانية يكفل بعضه بعضا، فيعطف القوي على الضعيف، ويواسي الغني الفقير، ويعلّم العالم الجاهل، ويحنو الكبير على الصغير، ويُرعى فيه حق المحرومين من ذوي الاحتياجات الخاصة من المرضى والمعاقين والمسنين ونحوهم، كل ذلك إيماناً بالله وطلباً للأجر والمثوبة، واعتقادا بأن الله جل وعلا ما أعطى فريقاً وحرم آخر إلا ابتلاء وامتحاناً، وأنه لو شاء لأفقر الأغنياء، وأمرض الأصحاء، وأضعف الأقوياء، وغيّر النعم. وإذا كان هذا الاعتقاد هو الباعث الأعظم للتكافل بين المسلمين فإنه لا يلغي ولا يعارض الباعث الإنساني المبني على الجبلّة البشرية الداعية إلى التعاطف بين بني الإنسان؛ فإنه من الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها.

وقد جعل الإسلام للتكافل تشريعات وأحكاماً جعلته في بعض الأحيان فريضة لازمة، وفي بعضها قربة مرغباً فيها من شأنه أن يملأ المجتمع رحمة وعطفاً وحناناً ورفقاً، لو أنها التزمت به تربية وتشريعاً وسلوكاً، من ذلك:

أ/ إيتاء الزكاة: الذي جُعل ثالثَ أركان الإسلام، وجُعل قرين الصلاة في القرآن، وقاتَل الصحابة، رضوان الله عليهم، من امتنع عنه بعد موت النبي ﷺ، معتبرين ذلك من حق "لا

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٥٢٨، وانظر ما بعدها حيث ذكر وقائع تاريخية تثبت ذلك.

(٢) ذكره ابن تيمية في السياسة الشرعية (١/ ٢١٧).

(٣) صحيح البخاري (ح:١٣)، وصحيح مسلم (ح: ١٧٩).

(٤) صحيح مسلم ح: ٦٧٥١.

(٥) والتكافل تفاعل من الكَفالة، وهي الحفظ والرعاية والضمان. انظر: لسان العرب ١١/ ٥٨٨.

إله إلا الله" الذي لا يستقيم إسلام أحد بدونه(١)، فهل هذا إلا مفخرة من مفاخر الإسلام ومزية من مزاياه؛ أن يكون للفقير والمسكين والضعيف والمحتاج حق واجب في مال الغني القادر، لا مِنّة له فيه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣]، هذا سوى الكفارات والصدقات النافلة، التي جاء الترغيب الشديد فيها، والوعد الإلهي الكريم بجزيل الثواب لباذليها، كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ....﴾ الآيات [البقرة: ٢٦١-٢٧٥].

ب/ **إطعام الطعام**: الذي جاء التأكيد عليه في أكثر من آية، قال تعالى في ذكر صفات الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠]، بل أبلغ من هذا أن عدم الحض على طعام المسكين يعد في التصور الإسلامي جريمة تقُرن بعدم الإيمان بالله تعالى في سببية استحقاق العذاب والنكال في الجحيم، كما في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٨]، وفي هذا تأكيد عجيب على مدى ارتباط الجانب العقدي في الإسلام بالجانب العملي، وأن التمايز بينهما إنما يكون في التصور الذهني(٢).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تعالى**»(٣).

ج/ **كفالة اليتيم**: وقد أكد عليها القرآن أيضاً في غير ما آية، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩]، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، وسبق قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**». وعن

(١) انظر صحيح البخاري ح: ١٣٣٥، وصحيح مسلم ح: ٢٠.

(٢) ولذلك كان إدخال الجانب العملي في مسمى الإيمان الشرعي هو التعبير الصادق للتصور الإسلامي كما هو مذهب السلف رحمهم الله، وانظر ماسبق ص٣٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده ح: ٤٨٨٠، وذكر الحافظ ابن حجر أن لمتنه شواهد تدل على صحته، انظر القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد ص ٢٠.

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا شكا إلى النبي ﷺقسوة قلبه فقال: «**امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين**»(١). وعن أبي أمامة عن النبي ﷺقال: «**من مسح رأس يتيم أو يتيمة لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرّت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين**» وقرن بين إصبعيه(٢).

د/ نصرة المظلوم: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥]، وقال ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: تحجزه – أو تمنعه – من الظلم؛ فإن ذلك نصره(٣).

وقال النبي ﷺعن حلف المطيبين الذي تعاقدت فيه قبائل قريش في الجاهلية على نصرة المظلوم ورد الفضول على أهلها: «**شهدت غلاماً مع عمومتي حلف المطيبين فما يسرني أن لي حُمْرَ النَعم وأني أنكثه**»(٤).

هـ/ إعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وتعليم الجاهل: قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الأعمال أفضل؟ قال: **الإيمان بالله والجهاد في سبيله**، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: **أنفَسُها عند أهلها وأكثرها ثمنا**، قال: قلت: فإن لم أفعل، قال: **تعين صانعاً أو تصنع لأخرق**.. الحديث(٥). وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: **على كل مسلم صدقة**. فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: **يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: **يعين ذا الحاجة الملهوف**. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: **فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر فإنها له صدقة**(٦). وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أمرنا

---

(١) مسند أحمد ١٤/ ٥٥٨ وضعف محققوه إسناده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٠): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد في المسند ح: ٢٢٣٣٨، وقال في المجمع (٨/ ١٦٠): فيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف.

(٣) رواه البخاري برقم٢٣١١، ومسلم برقم ٢٥٨٤.

(٤) رواه أحمد برقم ١٦٥٥، وهو في صحيح الجامع للألباني برقم ٣٧١٧.

(٥) رواه البخاري ح: ٢٣٨٢، ومسلم ح: ٨٤.

(٦) رواه البخاري برقم ١٣٧٦، ومسلم برقم ١٠٠٨.

النبي ﷺبسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم(١).

و/ **الشفاعة الحسنة**: قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥]، وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجة قال: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(٢) ﷺ.

ز/ **تزويج الأيامى**: قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت أهب لك نفسي. قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعّد النظر فيها وصوّبه ثم طأطأ رسول الله ﷺرأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: وهل عندك من شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله، فقال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: انظر ولو خاتماً من حديد، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا إزاري – قال سهل ما له رداء – فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك شيء، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ مولياً، فأمر به فدُعي، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال معي سورة كذا وسورة كذا، عدّدَها، فقال: تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال: نعم، قال: اذهب فقد ملّكتُكها بما معك من القرآن(٣).

فهذه نماذج أردنا بها التأكيد على عناية الإسلام الفائقة بالتكافل الاجتماعي، واشتمال شريعته الربانية على ما هو كفيل عند التطبيق بتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، وسد الثغرات الناجمة عن التفاوت الفطري بين الناس في مقدرتهم على الكسب وتدبير شؤون حياتهم.

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٨٨١.

(٢) رواه البخاري برقم ١٣٦٥.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٧٩٩.

وقد تطور هذا التكافل في عصرنا الحاضر حتى أخذ شكل مؤسسات ومنظمات وجمعيات خيرية تطوعية متنوعة في تخصصاتها كالتي تهتم بكفالة الأيتام، أو تزويج الشباب، أو إطعام الفقراء، وإغاثة المنكوبين في الزلازل والفيضانات والسيول، أو مساعدة المعاقين أو مرضى الكلى، أو التي تهتم بمحاربة المخدرات، ومكافحة التدخين، أو مساعدة الأسر الفقيرة على الإنتاج، إضافة إلى مؤسسات تهتم بالجانب الدعوى والعلمي والبحثي، أسهمت بصورة فاعلة في الرقي بهذه المجتمعات وتنميتها وتطويرها والحفاظ على أمنها وسلامتها من الانحراف والفساد، حتى أصبحت تصنف بالقطاع الثالث بعد الدولة والقطاع الخاص من خلال مجموعات طيبة من شباب الأمة مقتنعين بأهمية العمل التطوعي، بل نابع ذلك عندهم عن عقيدة تأمرهم بالبر والإحسان وتحثهم على الصدقة لكل المحتاجين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]؛ ولذا لم تتوقف مسيرة العمل الخيري الإنساني في تاريخ أمتنا الطويل على الرغم من محاولات الأعداء المستمرة للنيل منه، بل سجلت من خلاله صور مشرقة للإنسانية عن عظمة هذا الدين.

ولئن كانت المجتمعات الغربية قد أبدعت من أنظمة الضمان الاجتماعي ما يُحسب لها فإن الإسلام بجعله مجالات التكافل الاجتماعي شرائع ملزمة، وشعائر تعبدية، وقربات يرجو بها المسلم الأجر والثواب من خالقه قبل أن تكون عاطفة إنسانية فطرية، إن الإسلام بذلك لَيعطي الحل الأمثل لمشكلات الحياة المادية المعاصرة، التي رسّخت الأثرةَ والأنانية والقطيعة والجفاء بين الناس، حتى ظهرت الطبقية الكريهة، والتمييز العنصري المقيت، ونُزعت الرحمة من قلوب كثير من الناس حتى أصبحوا كالوحوش في الغاب، يأكل القوي الضعيف بلا شفقة ولا رحمة، ولا يفوّت فرصة للنيل من أخيه الإنسان إلا اهتبلها لأكل ماله واغتصاب حقه، فأين هذا من حال تلاميذ التربية النبوية الذين وصفهم العزيز الحكيم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

المبحث الرابع

الجاهلية وحال العرب قبل الإسلام

المطلب الأول: حقيقة الجاهلية:

معرفة حقيقة الجاهلية التي هدمها الإسلام من الأهمية بمكان لمعرفة حقيقة نعمة الإسلام كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية)؛ لأن الإسلام هو الوجه المقابل تماماً للجاهلية، وقد سمى الله في كتابه تلك الحياة المخالفة للإسلام بالجاهلية، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال النبي ﷺ لعائشة: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيث عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ**»(١).

والجاهلية وإن عرف العلماء أيامها، كما قال الكرماني، أيام الجاهلية هي: «مدة الفترة التي كانت بين عيسى ورسول الله، عليهما الصلاة والسلام، وسميت بها لكثرة جهالاتهم»، إلا أنها ليست محصورة في وقت محدد، إنما هي مبادئ مناقضة للإسلام حيثما توفرت سمي ذلك المجتمع بالمجتمع الجاهلي، وإن اختلفت المظاهر من زمان إلى زمان.

فالجاهلية إذن ليست منحصرة في ما كان قبل بعثة النبي ﷺ بل قد توجد في مصر من الأمصار، أو توجد في شخص من الأشخاص ولو بعد البعثة، ولكن بعد بعثة الرسول ﷺ: «فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه يكون في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام. فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين(٢)؛ فإذا فعل المسلم بعض ما يخالف الإسلام من الأعمال كان على أعمال الجاهلية، وقد ثبت أن هذه الأمة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ح: ١٥٨٦، ومسلم ح: ٣٣٠٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٨، ٧٩.

تفعل أموراً من أمور الجاهلية هي من الكفر العملي الذي لا تخرج عن الملة كحديث: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»(١).

ومن هنا نبين المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية، ثم نتحدث عن بعض مظاهر الجاهلية الأولى في إجابة عن سؤالين: ما المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية في كل زمان؟ وما أبرز مظاهر الجاهلية الأولى؟

المطلب الثاني: المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية:

الجاهلية في كل زمان تتفق على مبادئ واحدة وإن اختلفت المظاهر، ومن هنا فهنالك فرق بين جوهر الجاهلية ومظاهر الجاهلية، فمن مظاهر الجاهلية الأولى: عبادة الأوثان، ووأد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، والتفاخر بالأنساب ونحو ذلك، وقد توجد جاهلية اليوم بمظاهر مختلفة لكنها في جوهرها وأصولها تتفق تماماً مع الجاهلية الأولى، فالجوهر المشترك بين الجاهليات جميعها على مر التاريخ يتلخص في أمرين هما:

أولاً: الجهل بالألوهية:

فأهل الجاهلية عبر التاريخ لم يعرفوا الله تعالى فلم يفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبودية؛ ولذا كانت قضية الدعوة إلى التوحيد الخاص هي دعوة جميع الأنبياء والرسل، عليهم السلام، قال تعالى عن دعوة نوح عليه السلام إلى قومه: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٢٣]، و قال تعالى عن دعوة هود عليه السلام: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٥]، و قال تعالى عن دعوة صالح عليه السلام: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [الأعراف: ٧٣]، و قال تعالى عن دعوة شعيب عليه السلام: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى عن دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿**وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال

(١) رواه مسلم ح: ٢٢٠٣.

تعالى عن دعوة عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى عن دعوة محمد عليه السلام: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ١ - ٥]، و قال تعالى عن دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وذلك لأن الجاهلية في كل زمان قائمة على عبودية غير الله؛ ولذا عندما طلب قوم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً من دون الله وصفهم بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ -١٤٠]، وكذلك وصفهم هود عليه السلام بالجهل في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٣].

ثانياً: اتباع غير ما أنزل الله:

وكذلك من مبادئ الجاهلية اتباع غير ما أنزل الله؛ إما بسبب الجهل بالحق الذي أنزله الله وعدم معرفته، أو بالعدول عنه إلى الآراء والأهواء واتباع الآباء والعادات والتقاليد ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

[الزخرف: ٢٣ – ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقالتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ – ٦١]، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة، وعلى طريقتهم كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان.

وكل الأمور التي وقعوا فيها ناجمة عن انحرافهم في هذين الجوهرين من عبادة الأوثان أو الجن أو الملائكة أو الشمس أو القمر ونحو ذلك من صور العبودية المنحرفة على مر العصور، كما أن تركهم لما أنزل الله كان سبباً لكل انحراف اجتماعي وأخلاقي، ولذا نجد مظاهر الجاهلية عبر التاريخ تنوعت في قوم لوط وشعيب وصالح وغيرها لكن الجوهر واحد، وهي في الحقيقة جاهلية ما دامت لا تعرف الله ولا تتبع منهجه.

فالجاهلية التي يصفها الله في كتابه هي عبودية الخلق للخلق دون إفراد الله بالعبادة، مع اتباع غير ما أنزل من الأهواء والعادات والتقاليد والتشريعات نحو ذلك، ومن هنا فإن الجاهلية ليست فترة من الزمان وانتهت ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام في كل الصور التي تبعد الفرد أو الجماعة عن منهج الله في العقيدة والعبادة والسلوك والسياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، ولو كان ذلك في أمر جزئي؛ كما في الحديث الشريف: أن الرسول ﷺ قال لأبي ذر ـ وقد عيَّر رجلاً بأمه ـ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». أي فيك روح الجاهلية وطيشها، وهو الفخر بالحسب والنسب لما عيّره بأمه «يا ابن السوداء».

المطلب الثالث: من مظاهر الجاهلية:

أطلق القرآن على الفترة السابقة لبعثة النبي ﷺ الجاهلية الأولى، وهي فترة كانت الإنسانية تعيش عهوداً مظلمة بائسة، وهي فترة قد تمتد إلى مائتي عام قبل البعثة وأكثر، لأن ما وراء ذلك من الزمن يشوبه الغموض، ولم يصل إلينا في التاريخ أو الشعر الجاهلي ما يرتكز عليه، فإليك بعض تلك الصور الجاهلية التي صورها القرآن الكريم، وتحدثت السيرة كثيراً عن معالمها، حتى

نعرف عظمة نعمة الإسلام الذي رضيه الله ديناً للناس إلى يوم الدين، ولن يقبل ديناً غيره، ولن تسعد البشرية يوماً إن تحاكمت إلى سواه، إليك بعض تلك المظاهر الجاهلية.

١/ عبودية غير الله:

لقد تحولوا من عبادة الله ووحدانيته التي تركهم عليها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الأوثان، حتى أصبح حول البيت العتيق أزيد من (٣٦٠) صنماً، بقصد أن تقربهم إلى الله زلفى كما زعموا، وتكون لهم شفعاء عند الله مع إقرارهم بالربوبية لله سبحانه وتعالى، بأنه وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر، قال تعالى﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، فعبدوا الأصنام والأحجار والأشجار والجن والشمس والقمر والكواكب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ – ٤١]، ومن تلك الأصنام المشهورة: (هبل) الذي كان في جوف الكعبة، و(العزى) التي كانت في وادي نخلة لقريش وكنانة، و(اللات) التي كانت لثقيف، فقال تعالى منددا بهذه الأصنام التي عبدت من دونه، وهي لا تملك لنفسها فضلاً لغيرها موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]. بل كانت آلهة قائمة على الهوى قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه إلى أن قال: قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر

الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول[١].

وهذا كان هو الغالب على حالهم، ولم يكن يعرف التوحيد إلا طائفة محددة كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ممن بقوا على بقايا الحنيفية السمحة من دين إبراهيم الخليل عليه السلام، ولذا عاش ذلك المجتمع، بعد فساد المعتقد، كل أنواع الفساد والانحرافات الأخرى؛ لأن فساد المعتقد يتبعه كل فساد آخر.

٢/ الشك في البعث بعد الموت:

ومن مظاهر الجاهلية الأولى كذلك الشك في أمر البعث كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ -٧٩]، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨١ – ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٦ – ٧٢]، والأدلة على ذلك كثيرة.

٣/ الانحراف الأخلاقي:

العرب على ما كانوا عليه من بعض الصفات الكريمة من شجاعة ونجدة وكرم ونصرة مظلوم؛ إلا أن بعض الأخلاق السيئة بسبب جاهليتهم غطت على كثير من جوانب حياتهم بصورة جعلتها حياة بائسة، من ذلك: كانت الخمر تشرب كالماء، والميسر تعج به المجتمعات، والدماء كانت تسفك لأتفه الأسباب، والزنا كانت له رايات بمكة، وسبي النساء وسلب الأموال فاشٍ، بل وصل بهم الحال إلى وأد البنات وقتل الأولاد خشية الإنفاق وخوف الفقر، والقوي آكل والضعيف مأكول، مع تكبر وإعراض وعناد، فقد وصف جعفر بن أبي طالب الأخلاق الجاهلية أمام النجاشي فقال: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل

(١) تفسير ابن كثير ٦ / ١١٣.

الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»[١].

٤/ ظلم المرأة واضطهادها أو إطلاق العنان لها وتبرجها:

كانت المرأة في الجاهلية مهدورة الحقوق والكرامة ينظر إليها بمنظار النقص والكراهة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩]؛ ولذا كانت المرأة تحرم نصيبها من الميراث، بل كانت عند بعض العرب تعد جزءً من الميراث، وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاته، وذلك بعد أن يأتي الوارث فيلقي ثوبه على زوجة أبيه ثم يقول ورثتها كما ورثت مال أبي، فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر، أو زوجها لمن شاء وتسلم مهرها، وتعضل بعد طلاقها وهو منعها الزواج حتى يأخذ منها ما يشاء، وقد كان التعدد بلا عدد، والمرأة تلاقي من زوجها نشوزاً وإعراضا، ويساء عشرتها وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة حتى ترد إليه مهرها فحرم الإسلام هذه الصور الجاهلية الظالمة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ [النساء: ١٩].

كما كانت الجاهلية من وجه آخر تطلق العنان للمرأة فتخرج من غير حاجة، وتخرج سافرة متبرجة، مزاحمة للرجال في شتى ميادين الحياة من غير حشمة ولا ضوابط ترعى الشرف وتحقق الطهر والعفاف؛فجاء قوله تعالى لنساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فأمر الله المرأة بالقرار في البيت لتقوم بدورها الأساس، وإن دعت الحاجة للخروج تخرج وفق الضوابط المانعة من محركات الشهوة، ومداخل الفتنة، فلا خضوع بالقول، ولا خلوة، ولا اختلاط، ولا تبرج، ولا طيب ولا بخور، ولو كان ذلك الخروج إلى المسجد.

٥/ حمية الجاهلية:

كانت الجاهلية الأولى قائمة على الأنفة والتكبر والغرور والبطر والتعنت والتعالي بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥٨.

كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦]، إضافة إلى التقيد بالحمية الباطلة التي لا تقوم على دين وخلق قويم، وإنما تقوم على رابط القبيلة التي تقتضي أن يُنصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالماً أو مظلوماً، نصرة عصبية دون الاحتكام إلى عقل مستنير ولا هدى أو بصيرة، وهذا المبدأ الذي كانوا يسيرون عليه قد عبر عنه دريد بن الصمة بقوله:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومن هنا كان التفاخر بالأحساب من أبرز صفات الجاهلية، وقد كانت كل قبيلة لها اعتزاز بنسبها وقوتها، فهم خير الناس، وقبيلتهم خير قبيلة، وآباؤهم أشرف آباء، وأمهاتهم أكرم أمهات، ولعل هذا ما يفسر لنا تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي، وذلك الفخر الذي تدوي أصداؤه في قصائد شعرائه؛ ولذا قال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والناحبة –أو قال: النائحة– إذا لم تتب قبل موتها**»(١)، قال ابن تيمية رحمه الله: «إن تعليق الشر ففي الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل.. ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحداً بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان»(٢)، ثم استشهد بالحديث الشريف: «**أربع من أمر الجاهلية**»، وقد سبق ذكره فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية.

وقد تسببت تلك الحمية الجاهلية إلى تفرق نتجت بسببه حروب داميةسفكت فيها الكثير من الدماء.. حتى كأن إراقة الدماء أصبحت سنة من سنتهم، فهم دائماً قاتلون مقتولون لا يفرغون من دم إلا إلى دم. وكانت الحروب تبدأ صغيرة ضعيفة، ثم تقوى ويصطلي الجميع بنارها، بل يترامون فيها ترامي الفراش، إن القتال في الجاهلية يكاد لا يهدأ، فالأرواح تُزهق، والنساء تُرمل، والبيوت تخرب، والثأر يزيد الحروب اشتعالاً، في أرض لا تعرف الهدوء، ووسط صحراء قل فيها الرحماء، قال تعالى ممتناً عليهم: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١ / ١٦٤.

٦/ ظن الجاهلية:

والظن هو التخرص الذي هو ضد اليقين ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقد يطلق أحياناً الظن على اليقين كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يعني: أنهم مستيقنون. لكن في الأغلب أن الظن لا يطلق إلا على ضد اليقين.

وظن الجاهلية: يعني: ظن أهل الجاهلية، أو ظن حال الجاهلية التي لا يعرف فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على جهل، وهو من خصال الجاهلية المذمومة التي ذكرها الله تعالى، التي قد يقع فيها بعض المنتسبين إلى الإسلام، وقد ذكر الله تعالى في سياق أحداث ودروس غزوة أحد حين انقسم صف النبي ﷺ ومَن معه إلى طائفتين، قال عز وجل عن الأولى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المؤمنون الخُلَّص، قال ابن مسعود: «النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان»(١).

ثم ذكر الطائفة الثانية وهم المنافقون الذين ليس لهم هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق، فقال عز وجل: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهذا الظن هو كما ذكر تعالى في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وهذا حال المنافقين في كل زمان ومكان وشأن أهل الشك والريب إذا رأوا للمشركين والكفار ظهورًا في ساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، فإذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة(٢).

وهذا خلاف ما وعد الله عز وجل أنبياءه وأتباعهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ في ثلاث آيات(٣). وقوله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) [التوبة: ٣٣] و[الفتح: ٢٨] و[الصف: ٩] وآخرها في التوبة والصف: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وفي =

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١] وغيرها من النصوص الكثيرة.

قال ابن سعدي رحمه الله: «لأنه لا يتم لعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ وسوء ظن بالله أو نفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده»(١).

قال ابن القيم: «فمن ظن أنه ـ أي الله تبارك وتعالى ـ يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى ـ يعني في أحد ـ بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد؛ بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فذلك ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده ووعده الصادق، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً(٢)

٧/ تفشي الربا:

كما كانت الجاهلية تعيش وضعاً سياسياً متدهوراً، كانت تعيش كذلك وضعاً اقتصادياً سيئاً للغاية، تمثل ذلك في تفشي الربا حتى أصبح أصل المعاملة فأطلق عليه النبي ﷺ ربا الجاهليةِ، وهو صورة من الأثرة والجشع وسوء استغلال حاجة الآخرين، وانعدام المروءة

=

الفتح: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

(١) القول السديد (ص٥٠) ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٨- ٢٣٥) ونقله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾.

وسيطرة الماديات على العقول والأنفس، مع انعدام للمعروف بين الناس، حيث يعطي المدين مالاً لدائنه زائداً على قدر الدين لأجل الانتظار، فإذا حلّ الأجل ولم يدفع زَاد في الدين، يقولون: إمّا أن تَقْضيَ وإمّا أن تُربِي.

فجاء الإسلام فحرم أصل الربا وأعلن حربه عليه، ونفر منه تنفيراً شديداً؛ ولذلك سماه ربا الجاهلية، من قبل أن تدرك الأمم مخاطره، وما يمكن أن يسببه من كوارث اقتصادية تؤثر على النشاطات النافعة في الحياة من صناعة وزراعة وتجارة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، وقد جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ»(١).

وما كانت حرب الإسلام للربا بهذه الصورة الصارخة إلا لما له من آثار سيئة على المجتمعات، فهو قائم على استغلال حاجات الناس، ومن أسبابتضخم المال بطرق غير مشروعة؛ لأنه تضخم على حساب سلب مال الفقير وضمه إلى كنوز الغني، كما هو أداة هدامة للنشاط، والعمل الشريف، واستثمار الأرض واستخراج طيباتها.. في صور مفسدة للحياة البشرية، ممحقة لكل بركة وخير، ولذا حذر منه النبي ﷺ في وداعه لأمته في خطبة الوداع فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلاَ كُلُّ شَىْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَىَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بن الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِى سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا: رِبَا عَبَّاسِ بن عبد الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم ح: ٤١٧٧.

(٢) رواه مسلم ح: ٣٠٠٩.

الفَصْلُ الثَّانِي

الانحراف في مصادر التلقي ومنهج الاستدلال

ويحتوي على:

تمهيـــــــــــد.

المبحـــــــث الأول: أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة.

المبحـــث الثـــاني: الانحراف بالمصادر المعتمدة فهماً واستدلالاً.

تمهيد

منهج دراسة الثقافة الإسلامية هو الطريقة التي يتبعها الناس لمعرفة دينهم وتقرير أصوله ومسائله ودلائله[١]، وذلك يشتمل على جانبين: جانب المصادر التي يستقي منها الناس معتقداتهم ومبادئهم وأفكارهم حول الحقائق الغيبية للكون وخالقه، والإنسان والحياة، والجانب الآخر هو أسلوب تعاملهم مع هذه المصادر ليفهموا منها رأيًا معينًا؛ فإن اتفاقهم على مصدر معين لا يعني ضرورة اتفاقهم على الأحكام المستخرجة منه؛ لاختلاف طرائق الفهم عند الناس.

ولما كان تنوع الآراء والمذاهب والمعتقدات الدينية تابعا لاختلاف المناهج المتبعة في معرفة الدين وتنوع مصادرها وطريقة فهمها كان من الضرورة القصوى لمبتغي الإصلاح والتصحيح العقدي البدء بهذه القضية، وإلا سيذهب جهده سدى في التوفيق بين آراء متناقضة ومذاهب متشعبة لم تتفرع عن طريق واحد في الأصل، وهذه هي العلة التي لم يفطن لها المجتهدون في سبيل التقريب بين أصحاب المذاهب والديانات، حتى أدت إلى ضياع جهودهم[٢].

لقد كانت قضية منهج تلقي المعتقدات الدينية والاستدلال عليها واضحة تمامًا في دعوة الأنبياء والمرسلين، فالدين مبني أساسًا على الإيمان بالغيب، وهذه القضية لا مجال فيها لأخذ العلم المفصّل وتلقّيه إلا عن الأنبياء والرسل وعن اتباعهم من الدعاة المصلحين، واعتماد ما يوحى إليهم من مرسلهم جل وعلا، سواء كان ذلك في معرفة الله تعالى تفصيلا، أو معرفة ما غاب عنا من حقائق الكون وسر وجود الإنسان، وما يتبع ذلك من مصيره بعد انقضاء الحياة الدنيوية، أو ما يجب على الإنسان أداؤه ليحقق حكمة وجوده فينال السعادة والراحة والطمأنينة. أما العقل البشري الذي توهّم الكفار استغناءهم به عن الوحي الإلهي فإنه يقف في مجال معرفة الغيب عند حدود المعرفة المجملة بأن لهذا الكون خالقًا، ولهذا الوجود حكمة،

---

(١) عن مصطلح المنهج وأهميته في العلوم انظر: "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة" لعثمان علي حسن: ١/ ١٩-٢١.

(٢) انظر أمثلة على ذلك في "مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة" للدكتور ناصر القفاري: ٢/ ١٤٨ وما بعدها، وعن دعوة التقريب بين الأديان وآثارها انظر "الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان" للدكتور بكر أبوزيد: ١٧-٣٤.

ولا يتجاوز ذلك إلى تفصيل معرفة هذا الخالق ولا إلى تفاصيل حكمة الوجود[١]، كما أن نظرته التشريعية قاصرة وليست عادلة.

وقد تجلت قضية تحديد منهج تلقي العقائد الغيبية بجانبيه في الرسالة الخاتمة بغاية من الصرامة، كما يظهر في التأكيدات القرآنية المتتابعة على وجوب الإيمان بالله ورسله وما جاء في الوحي الإلهي إليهم، والتحذير من الكذب على الله والافتراء على رسله والزيغ عن آياته، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧٠، ١٧١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

كما جاء الذم لمن تفرقوا واختلفوا حول ما جاءت به الرسل، أو دانوا بغير ما أذن به الله وأوحاه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾... إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ١٣-٢١].

وجاءت السنة المشرفة بمثل ما جاء به القرآن من الأمر بأخذ الدين من الوحي المبين، والاكتفاء به عن غيره، والتحذير من الزيادة فيه والنقصان، أو التبديل والابتداع، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان إذا خطب يقول: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[٢].

---

(١) انظر: "الرد على المنطقيين" لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٨٦٧.

وعن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضّوا عليها بالنواجذ**»(١).

ومنع النبي ﷺ اتباعه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين لتفريطهم في حفظ كتابهم من التحريف وصيانة دينهم من الابتداع فقال: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا؛ فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق؛ فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني**»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يُشَب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم(٣).

ورُوي عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «**والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين**»(٤).

---

(١) تقدم (ص١٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٣٣٨، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢) وغيرهم. وتقدم (ص٣٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم ٢٥٣٩.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٥، وهو شاهد للحديث المذكور أعلاه.

وهكذا فإن السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين واتباعهم من أئمة الفقه والدين مجمعون على وجوب اتباع الكتاب والسنة، والاستغناءِ بهما في فهم أصول الدين وفروعه عما سواهما من المصادر، وكانت سيرتهم العملية شاهدة على حزمهم البالغ في التصدي بالرد والإنكار لكل بدعة تنشأ، وكل بادرة انحراف في تلقي الدين وفهمه عما كان عليه الحال في العهد النبوي(١).

إذا تقرر هذا فإن الانحراف قد دخل على منهج تلقي العقائد لدى بعض المسلمين من جانبين، الأول: أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة، الثاني الانحراف بالمصادر المعتمدة. ولنسلط الضوء فيما يلي على كل من هذين الجانبين في مبحث مستقل.

❀❀❀❀❀❀

(١) انظر: "موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع" للدكتور إبراهيم الرحيلي ١/ ٨٠-٨٦.

المبحث الأول

أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة

المصادر المعتمدة من رب العالمين للدين الإسلامي هي الكتاب والسنة والإجماع، وهي متوافقة مع الفطرة المستقيمة، والعقل السليم، وقد تواترت الدلائل على ذلك وتتابعت بحيث صار الرجوع إلى هذه المصادر والاعتماد عليها في تلقي العقيدة الصحيحة وشرائع الإسلام معلوماً من الدين بالضرورة، وهي محل اتفاق بين المسلمين(١)، على اختلاف واسع بينهم في تقدير مدى الاعتماد على هذه المصادر، وطريقة فهم الدين منها، على نحو ما يأتي الحديث عنه في المبحث الثاني.

وعلى هذا فكل ما ناقض تلك المصادر أو زاحمها فهو مصدر غير صالح لأخذ الدين منه؛ لأنه لا يجوز أخذ الدين من مصدر غير معتمد. وفيما يلي إشارة إلى المصادر غير المعتمدة التي كثر دخول الانحراف على عقائد المسلمين من المطالب التالية.

المطلب الأول: الاعتماد على العقل وتقديمه على النقل :

للعقل دوره الأساس للوصول إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل : ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]، وهو الغريزة الفطرية التي ميّز الله بها العقلاء عن البهائم، وهو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية؛ فالإسلام رعى دور العقل ومكانته، ولم يرد في القرآن الكريم آية تذم العقل أو تزدريه، ولكن وضعه في حدود إمكاناته وقدراته، وقد ضل قوم عند ما حَكَّموا العقل وقدَّموه على الشرع.

والمسلم الموقن يجعل معتقده المبني على الوحي المعصوم بشقيه الكتاب والسنة عمدة وأصلاً يزن به الأفكار، ويرد لأجله النظريات والأفهام حال معارضتها له، ويجزم أن العقل

---

(١) لم ألتفت هنا إلى طائفة القرآنيين الذين ينبذون السنة النبوية؛ باعتبارها طائفة غالية خارجة عن دائرة الإسلام بإجماع العلماء؛ ولو أنهم يأخذون بالقرآن حقاً للزمهم الأخذ بالسنة؛ لأن الله تعالى قد أمر بطاعة الرسول ﷺ في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن. انظر عنهم "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" لخادم حسين إلهي بخش، مكتبة الصديق، الطائف.

الصريح لا يمكن أبدا أن يناقض الوحي المبين، كيف وقد حكم العقل حكماً يقينياً قاطعاً بصحة الوحي وعصمته، وأنه صادر من خالق العقل، ومعلمِه أحكامَه الأوليةَ ومبادئه الفطرية؟!.

ولكن من لا يقدُرون الوحي حق قدره يقلبون القضية، فيجعلون العقل عمدة، والوحي تابعاً لا متبوعاً، فلا تُقبل أحكامه العقدية إلا بعد تزكية العقل لها، وإذنه بها، فيصير الوحي على ذلك فضلة لا حاجة للناس إليه في معرفة عقائدهم، فحال هؤلاء – كما يقول أبو المظفر السمعاني[١] – كمن يقول: أشهد أن عقلي رسول الله!. ولهؤلاء حجة مشهورة في مسلكهم هذا، وهي أنهم يقولون: إن العقل هو أصل معرفتنا بالوحي، ولا يجوز تقديم الفرع على الأصل؛ وإلا لزم القدح في الأصل، فينهدم الأصل والفرع جميعاً[٢].

والحق أن هذا الكلام فيه مغالطة بينة؛ وذلك أن العقل عندما شهد بصحة الوحي شهد مع ذلك بعصمته، وأنه يمتنع عليه الخطأ، في حين أن العقل لم يشهد بعصمة نفسه مطلقاً في جميع أحكامه، ولا الوحي أعطى العقل هذه التزكية المطلقة، فلو قبلنا بتقديم العقل على الوحي لكان ذلك في حقيقته حكماً بتخطئة الوحي، فيعود هذا بالنقض على حكم العقل السابق بعصمة الوحي[٣]. والمثل الذي يقرب ذلك: لو أن مُستفتياً سأل عامّياً عن أعلم أهل بلده ليستفتيه، فذهب العامّي به إليه، وقال له: هذا أعلم أهل بلدنا فاسأله، فلما سأل العالمَ وأجابه اعترض هذا العامّي على الفتيا، فأعرض عنه المستفتي لكونه عامّيا جاهلا، فقال له هذا العامّي: كيف تُعرض عن قولي وتُقدّم عليه كلام المفتي وأنا الذي دللتُك عليه، ولولا أنا لم تعلم أنه مفتٍ؟!، فيقول له المستفتي حينئذ: أخذي بدلالتك عليه وتزكيتك إياه لا يلزم منه أن أقبل باقي أحكامك، كما أن تقديمي لكلام المفتي العالم على قولك لا يلزم منه القدح في دلالتك عليه وتزكيتك إياه[٤].

فتبين أن الذي يعرفُ للوحي قدره يدرأ تعارضه مع صريح العقل أصلاً، ولا يجوّز

---

(١) انظر: "الانتصار لأصحاب الحديث" لأبي المظفر السمعاني ص ٧٨، وأبو المظفر اسمه منصور بن محمد بن عبد الجبار، من أئمة الشافعية، توفي سنة ٤٨٩، انظر "طبقات الشافعية الكبرى" لابن السبكي: ٥/ ٣٣٥.

(٢) انظر: "التفسير الكبير" للفخر الرازي: ٢/ ٥٢.

(٣) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٧٠، ١٧١.

(٤) انظر المرجع نفسه: ١/ ١٣٨، ١٣٩.

التعارض إلا بين وحي صريح وعقل غير صريح، أو بين عقل صريح ووحي مزعوم أو غير صريح، فيقدم حينها الصريح مطلقاً لا لكونه مجرد حكم عقلي، بل لصراحته وقطعيته وعدم صراحة المعارض له[١]، وما عارض الوحي فهي ليست دلالة عقلية وإن زعم أصحابها ذلك، وإنما هي من جملة الأهواء قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فهما طريقان لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول ﷺ باتباع الوحي، وإما اتباع الهوى وإن سماه أصحابه عقلاً أو كشفاً أو غير ذلك.

وهكذا فإن مقتضى الإيمان بالرسل عليهم السلام، الاستيقان من أنهم لا يأتون أبداً بما يمنعه صريح العقل ويحكم بانتفائه، وإن كانوا كثيراً ما يأتون بما يعجز العقل عن معرفته ويحتار له ويتعجب منه، من آيات الله التي لا تنقضي عجائبها[٢]، فالحق المقطوع به يقيناً هو ما جاء به الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

وبنظرة سريعة في الكتب العقدية للمذاهب التي تقدم العقل على النقل يدرك الباحث هذه الحقيقة[٣]، فالمتفلسفة[٤] يناقض بعضهم بعضا، والمتكلمون[٥] يناقضون المتفلسفة[٦]،

---

(١) انظر المرجع السابق: ١/ ٧٩.

(٢) انظر المرجع نفسه: ١/ ١٤٨.

(٣) قارن مثلاً بين كتب المعتزلة كـ"المغني في أبواب العدل والتوحيد" و"شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار المعتزلي وبين كتب الماتريدية والأشعرية كـ"التوحيد" لأبي منصور الماتريدي و"الإرشاد" و"الشامل" للجويني و"نهاية العقول في دراية الأصول" للفخر الرازي، وانظر في ذلك مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١-٥٦.

(٤) طائفة من المنتسبين إلى الإسلام تبنت آراء فلاسفة اليونان وخصوصا أرسطوطاليس وأدخلتها على بعض المسلمين بثوب إسلامي، من أشهرهم الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، انظر عنهم : "الملل والنحل" للشهرستاني ٢/ ١٥٨ وما بعدها، "إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان" لابن القيم ٢/ ٢٦٦-٢٦٨.

(٥) هم المشتغلون بعلم الكلام، وهو علم يطلب به إثبات العقائد الإسلامية بالطرق العقلية دون الالتزام بالوحي وفهم السلف له، ومن أشهرهم المعتزلة والأشاعرة، انظر عنهم "أبجد العلوم" لصدّيق حسن خان ٢/ ١١٠-١١٢.

(٦) من أشهر ما ألف في ذلك "تهافت الفلاسفة" لأبي حامد الغزالي، وقد رد عليه الفيلسوف ابن رشد بكتاب =

ثم يناقض بعضهم بعضاً، فالمعتزلة[١] منهم بين أئمتهم من المناقضات ما سطروا به المجلدات[٢]، والأشعرية[٣] يناقضون المعتزلة في كثير من عقلياتهم، مع اشتراكهم معهم في الثقة البالغة في العقل وتقديمه على النقل وسلوك طريق التأويل، ثم الأشعرية لهم أطوار يخالف فيها المتأخرون ما قرره المتقدمون[٤]، ومن هنا كان من الضروري استبعاد العقل من منصب القيادة المطلقة في معرفة أمور الغيب والعقائد، وتسليمها للوحي المعصوم الذي حكم العقل الصريح بصحته وعصمته، كما أنه من الضروري التمسك بالعقل الصريح خادماً للوحي المبين، وشاهداً على صحته، ومكذباً ما يناقضه من الأوهام والخرافات.

المطلب الثاني: اعتماد النقل غير الصحيح:

أهل السنة لا يعتمدون في عقيدتهم ودينهم إلا ما صح نقله عن النبي ﷺ؛ ولذا وضعوا قواعد في علم مصطلح الحديث تضبط من خلالها الروايات المنقولة، وقد انحرفت طوائف وفرق بسبب ما اعتمدوه من روايات غير صحيحة.

ونحن نقصد هنا بالنقل ما نُقل إلينا من نصوص الوحي المعصوم، ونقصد بغير الصحيح منه ما لم تثبت صحة نقله عن مصدره بحسب القواعد المقررة في علم مصطلح الحديث وفي علم التاريخ، وهي قواعد مستندة في الأصل إلى بدهيات فطرية وعقلية وحسية يُعرف بها

=

سماه "تهافت التهافت"، كما ألف الشهرستاني "مصارعة الفلاسفة" وأجابه الطوسي بكتاب سماه "مصارعة المصارع".

(١) مدرسة كلامية يجمعهم القول بالأصول الخمسة: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قرروا هذه الأصول على خلاف منهج السلف، انظر عن أصولهم "شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار.

(٢) انظر عن آراء أئمتهم: "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري ١/ ١٥٥ وما بعدها.

(٣) أتباع أبي الحسن الأشعري [ت٣٣٠]، وقد كان معتزلياً ثم تحول إلى عقيدة ابن كلّاب ثم رجع إجمالاً إلى طريقة الإمام أحمد بن حنبل، ثم تطور المذهب من بعده على يد أبي المعالي الجويني [ت٤٥٠] والفخر الرازي[ت٦٠٦]، انظر "الفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة والمبتدعة" لإسماعيل اليازجي ص ٣٣، ٣٤.

(٤) انظر عن تطور المذهب الأشعري "موقف ابن تيمية من الأشاعرة" للدكتور عبد الرحمن المحمود ص ٥٠٩ وما بعدها.

صدق الأخبار من كذبها[١].

وسواء جزمنا بكذب المنقول أو توقفنا في صحته فإنه لا يصح الاعتماد عليه في معرفة الاعتقاد الصحيح، أما ما دون الاعتماد كالاعتبار والاعتضاد فالخطب فيه أيسر، فيجوز فيه استعمال ما لم يحتمل الكذب من الأخبار، مع التزام الإشارة إلى عدم صلاحيته للاعتماد، وعلى هذا جرى عمل السلف كما هو معلوم من التفاسير المأثورة، وكتب العقائد المسندة[٢]، فهم قد يروون فيها ما لم يبلغ درجة الاحتجاج، ويلتزمون بذكر أسانيدها ليتبين حالها من رواتها، وهذا على سبيل الاعتضاد لا الاعتماد، وإلا فليس هنالك عقيدة سلفية مقررة تعتمد أو تنبي على روايات ضعيفة.

وعلى هذا فكل ما يتداوله أصحاب المذاهب التي تعتمد في عقائدها على المرويات دون أن يثبتوا صحة نقله عن النبي المعصوم فإنه يعد مصدراً من مصادر الانحراف العقدي.

ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع من الانحراف؛ الأحاديث والآثار التي شُحنت بها كتب التراث لدى بعض الطوائف كالصوفية[٣] والشيعة[٤] وبعض المنتسبين إلى

---

(١) وتسمى علم رواية الحديث، انظر عنه "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" لأحمد بن مصطفى: ٢/ ٥٢، ٥٣.

(٢) مثل كتاب "السنة" لعبد الله بن أحمد، و "الشريعة" للآجرّي، و "شرح أصول الاعتقاد " للّالكائي، والإبانة لابن بطة.

(٣) مثل كتب الحكيم الترمذي وأبي القاسم القشيري وأبي حامد الغزالي، وخصوصاً كتابه "إحياء علوم الدين"؛ فهو على شهرته مشحون بالأحاديث الموضوعة والضعيفة، وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥): وكلامه – أي الغزالي – في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة. ا. هـ. وقد عبر أبوحامد عن قلة درايته بعلم الحديث بقوله عن نفسه في آخر رسالته "قانون التأويل": (وبضاعتي في الحديث مزجاة)، وقد سرد ابن السبكي أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسناداً في ترجمة الغزالي من "طبقات الشافعية الكبرى": ٦/ ٢٨٧، وحكم العراقي على أحاديث الإحياء في كتابه " المغني عن حمل الأسفار في الأسفار " المطبوع بهامشه.

(٤) مثل كتاب الأصول من الكافي للكليني الذي يعده الشيعة أصح كتب الروايات، والعجيب أن معاصري الشيعة ينوهون بعدم وجود كتاب خاص بصحيح الأحاديث لديهم، وأن هذا من المرونة في مذهبهم والبعد عن الجمود؛ ليُترك المجال بزعمهم للمجتهدين في كل عصر ليحددوا المرويات الصالحة، فإذا طولبوا بتمييز ما يرونه ثابتاً عن أئمتهم مما هو منحول عليهم نكلوا!، مع أن عقائدهم المنحرفة مبنية على هذه المرويات المكذوبة عن آل البيت أو غيرهم.

السنة[١] وغيرهم دون أن تتوفر فيها أدنى الشروط المعتبرة لتوثيق المرويات، مع ما فيها من مناقضة لصريح القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الثابتة والعقل الصريح، مثل ما لدى الإمامية[٢] من أكاذيب وافتراءات على النبي الكريم وآل بيته الطاهرين حول الإمامة والموقف من الصحابة[٣]، ومثل ما لدى المتصوفة من مرويات مفتراة حول حقائق التوحيد والولاية والكرامات[٤]، ومثل بعض المرويات الإسرائيلية الواردة في بعض كتب التفسير[٥].

المطلب الثالث: التقليد المجرد من الدليل:

أكثر بني آدم يقلدون في عقائدهم المختلفة من يتوهمون فيه العصمة من الخطأ، أو من يغلب على ظنهم أنه أقرب إلى الصواب، دون أن يكون لهم جهد عقلي في التأكد من صحة ما عليه من يقلدونهم، وإنما يسلمون بالأمر الواقع، وهو أنهم ولدوا في أحضان هذه الطائفة أو تلك، فيتمسكون بما يغذّيهم عليه أهلوهم ومربوهم، سواء كان حقاً موافقاً للفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها، أو كان باطلاً مخالفاً للفطرة والوحي والعقل الصريح، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[٦]، يعني يفسدان فطرته بتلقينه عقيدة فاسدة أو محرفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يقل: يؤسلمانه؛ لأن الإسلام هو الفطرة[٧].

ومما يدلك على أن هذا حال أكثر بني آدم أنك تجد اتباع المذاهب والديانات يولدون وينشؤون ويعيشون ويموتون على حال أسلافهم في الدين، سواء في ذلك علماؤهم وعامتهم، ويندر أن تجد من يتحول عن دينه أو مذهبه من تلقاء نفسه، حتى يأتي من يحوله إما بالدعوة

---

(١) من أمثلة كتب العقائد المسندة المشتملة على بعض الموضوعات كتاب "العظمة" لأبي الشيخ الأصبهاني.

(٢) هم كل من عدا الزيدية من طوائف الشيعة، نُسبوا إلى الإمامة لاعتقادهم أنها منصب إلهي جاء النص عليه في حق عليّ وذريته. انظر عن فرقهم: "الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي ص ١٧ وما بعدها.

(٣) انظر مثلاً "الأصول من الكافي" للكليني ١/ ١٧٧ وما بعدها.

(٤) انظر مثلاً ما أورده ابن الجوزي في كتاب الموضوعات ٣/ ١٤٨-١٥٢ من أحاديث موضوعة عن صفة الأولياء وعددهم.

(٥) انظر: "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير" للدكتور محمد أبوشهبة ص ٢٥٦-٣٠٥.

(٦) رواه البخاري ١/ ٤٥٦، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي..، حديث رقم ١٢٩٢، ومسلم ٤/ ٢٠٤٧، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم ٢٦٥٨.

(٧) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٤٤٤.

والإقناع، وإما بالقهر والإرغام.

وطائفة من بني آدم ممن أُعطوا مزيداً من الذكاء والفطنة يلحظون أن مجرد انتمائهم إلى طائفة معينة لا يستوجب كونها على الحق الذي لا يجوز خلافه، وإلا تعدد الحق وتناقض بعدد الطوائف ومذاهبها، وذلك ما تأباه الفطرة ويرفضه العقل السليم.

فقِسم من هذه الطائفة يعزّ عليه الاعتراف بضلال طائفته، وتسفيه ما كان عليه الآباء والأجداد، فيستنجد بالتأويلات المتكلَّفة لتسويغ عقائده الباطلة ومحاولة التوفيق بينها وبين الوحي والعقل، ويستخدم المهارة الجدلية في إقناع بني طائفته بأنهم على شيء، وهذا حال المتعصبين من علماء الديانات المحرفة والمذاهب الفاسدة، وحال هؤلاء كحال من قال الله تعالى عنهم: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢١-٢٤].

وقسم آخر من هذه الطائفة يستهجن غش الناس في عقائدهم بمثل هذه التلفيقات، لكنه يجعل قضية الاعتقاد برمتها من باب الموروث الثقافي الذي يتنوع بتعدد الأمم والشعوب، ويجب احترامه لمجرد كونه موروثاً، تبعاً لاحترام الأمة التي تدين به، بغض النظر عن كونه حقاً أو باطلاً، موافقاً للأدلة الصحيحة أو مناقضاً لها، وهذه نظرة الليبراليين(١) والعلمانيين(٢) الذين يجعلون الدين من أساسه أمراً هامشياً في الحياة، لا يتجاوز التفاعل الشخصي بين الإنسان ومعتقده.

وقسم ثالث ألهمه الله تعالى الصواب، فراح ينشد الحق موقناً بأنه محصور فيما جاء به الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠]، فاستمسك

(١) الليبرالية نهج غربي قِوامه ضمان الحرية المطلقة للإنسان ما لم تصطدم بحرية الآخرين، انظر عنه "الموسوعة الفلسفية العربية" ٢/ ٢/ ١١٥٥-١١٦٢، وسوف يأتي عنها تفصيل في القسم الثاني.

(٢) العلمانية فلسفة غربية تقوم على الفصل التام بين الدين والحياة بمجالاتها المختلفة، انظر عنها "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة": ٢/ ٦٧٩-٦٨٦، وسوف يأتي عنها تفصيل في القسم الثاني.

بالكتاب والسنة مقتدياً بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين واتباعهم من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الذين زكاهم الله تعالى وشهد لهم النبي ﷺ بالفضل والخيرية، ففهموا مراد الله ومراد رسوله ﷺ من هذا الوحي المعصوم فحققوه علماً وعملاً، إيماناً وتطبيقاً، لأنهم قد تميزوا عمن جاء من بعدهم ـ إضافة إلى ما تقدم ـ بمشاهدة التنزيل ومعاصرة الرسول ﷺ أو من عاصره، مع الأخذ من النبع حين نقائه وصفائه قبل مرحلة الاختلاط والعجمة اللسانية والفكرية، وقبل ظهور الفرق وفشو البدع، فهذا القسم الذي آثر الهدى على الهوى، والصواب على الأحباب، وهؤلاء الذين تكفل الله بهدايتهم وتوفيقهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ لذا يقول ابن رجب رحمه الله: «فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما ينهى عنه، فتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره، وهكذا كان أصحاب رسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة»(١).

إذا تقرر هذا فإن من أعظم أنواع التقليد المجرد من الدليل التي ترتب عليها انحرافات عقدية خطيرة ادعاء بعض الطوائف العصمة لمتبوعيهم سوى النبي ﷺ، وبنوا على ذلك حجية أقوالهم ولزوم الأخذ بها، وعلى هذا عامة الشيعة الإمامية على اختلاف مذاهبهم(٢)، وهذا في حقيقته يؤول إلى إعطاء الأئمة منصب النبوة؛ لأن العصمة وما يترتب عليها من حجية أقوال المعصوم ولزوم الأخذ بها هي أخص خصائص النبوة والوحي، وبها يحصل مقصود النبوة(٣)، فمن ادعى العصمة بعد محمد ﷺ لغيره فهو في حكم من أنكر ختم النبوة به، وإن ادعى تسليمه بذلك.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٧٩.

(٢) انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني: ١/ ١٤٦، و "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة" لابن المطهر الحلي ص ٩٣.

(٣) انظر: الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٣٥.

ومما يدل على بطلان نسبة العصمة إلى أحد بعد الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، (فأمر الله المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، ولو كان للناس معصوم غير الرسول ﷺ لأمرهم بالرد إليه، فدل القرآن على أنه لا معصوم إلا الرسول ﷺ)(١).

ومن أسوأ الآثار المترتبة على هذا الانحراف اعتبار مخالفة الأئمة المدّعاةِ لهم العصمةَ كمخالفة النبي ﷺ، فيكون من خالفهم من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين وولاتهم ضُلّالا بهذا الاعتبار، وربما بلغ الأمر حد تكفيرهم(٢)، ولا يخفى ما أدى إليه هذا الانحراف من شق عصا المسلمين، وتفتيت وحدتهم، وإشاعة الكراهية والبغضاء بينهم.

وكما وقع هذا الغلو في المتبوعين لدى من يّدعون العصمة في أئمتهم وقع كذلك بدرجة أخف لدى بعض المتصوفة ممن يعتقدون الحفظ الإلهي لشيوخهم، كما وقع لدى من يغلون في أئمتهم وزعمائهم وشيوخهم(٣).

المطلب الرابع: الكشف والإلهام:

يعتقد بعض أصحاب الديانات الوضعية والفلسفات الروحانية ومن تأثر بهم من المتصوفة أن الطريق الأمثل لتلقي العلم الإلهي هو ممارسة الرياضات الروحانية حتى تزكو النفس وتصفو فتنكشف لها المعارف الإلهية انكشافاً تلقائياً بقدر زكائها وصفائها، وتنطبع الحقائق بعد ذلك في قلب العارف دون التسبب بشيء من وسائل التعلم والفهم المعروفة، ولسان حال هؤلاء يقول: حدثني قلبي عن ربي(٤).

---

(١) "منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٣٨١.

(٢) انظر: إجماع مراجع الإمامية على تكفير من لم يؤمن بالأئمة وعصمتهم، وتنزيلِه منزلةَ من جحد النبوة في كتاب "الاعتقادات" لابن بابويه القمي ص ١١١، و "تلخيص الشافي" للطوسي: ٤/ ١٣١، و "بحار الأنوار" للمجلسي: ٨/ ٣٦٦، نقلاً عن "أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، عرض ونقد" للدكتور ناصر القفاري.

(٣) انظر: "منهاج السنة": ٢/ ٤٧٧، ومجموع الفتاوى: ١٩/ ٧٠.

(٤) انظر في هذا ما نقله المناوي عن ابن عربي في "فيض القدير" ٥/ ٤٠١، وكذا ما قرره أبو الثناء الآلوسي في تفسيره "روح المعاني" ٢٣/ ٦٥، وانظر نقده في "تلبيس إبليس" لابن الجوزي ص ٤٥٠، و"إغاثة اللهفان" =

وقد تأول من ينتسب إلى الإسلام من أصحاب هذا المنهج قصة موسى مع الخضر، عليهما السلام المذكورة في سورة الكهف[١]، وقالوا: إن الخضر لم يكن نبياً بل كان ولياً، وعلمه علم مكاشفة لا علم وحي، وسموه العلم اللدني، أخذاً من قوله تعالى عن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وجعلوه مقدماً على علم الوحي وحاكماً عليه، وسموه علم الحقيقة، وسموا علم الوحي علم الشريعة، وزعموا أن مرتبة الولاية أفضل من مرتبة النبوة[٢]، مستدلين على ذلك بأن موسى تعلم من الخضر، وأن الخضر كان يخالف الشريعة ويوافق الحقيقة، وبنوا على ذلك تسويغ مخالفة الشرع لمن يزعمون له الولاية، بل جعلوا ذلك شاهداً على كرامته.

والحق أن أعظم الكرامة لزوم الاستقامة على طريقة الأنبياء، وأعظم الولاية في الإيمان والتقوى كما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وأما الخضر فالحق أنه كان نبياً كموسى، وما كان يفعل شيئاً مما ذكر في القصة إلا بوحي من الله، كما دل عليه قوله تعالى في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، وكما جاء في خبر الخضر مع موسى في صحيح البخاري[٣]أنه قال له: يا موسى، إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: (كان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تُحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيا؛ لأن الزنادقة[٤]يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي، كما قال قائلهم:

=

لابن القيم ١/ ١٢٣.

(١) انظر: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للحافظ ابن حجر العسقلاني ١/ ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) انظر: "روح المعاني" للآلوسي ١١/ ١٧٨.

(٣) (١٧٥٧/ ٤)، كتاب التفسير، باب ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾، حديث رقم ٤٤٥٠.

(٤) الزنادقة هم الطاعنون في الإسلام من المنتسبين إليه، ولهم جذور قديمة، انظر عن فرقهم "التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع" للملَطي ص ٩١.

مقـــــــامُ النبـــــــوة في بـــــــــرزخٍ فُويـــقَ الرســـول ودون الـــولي)(١)

وأما ما ذكروه من العلم اللدني فقد نص القرآن على أنه ثابت للنبي ﷺ، وأنه هو العلم الموحى للأنبياء والرسل، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وبذلك تندحض حجتهم التي أسسوا عليها منهجهم في تلقي العقيدة، وهوّلوا بها على البسطاء والسذّج حتى هابوا الإنكار عليهم بمقتضى الشرع.

المطلب الخامس: الرؤى والمنامات:

جاء في الحديث أن ما يراه النائم ينقسم إلى ثلاث حالات: إما أن يكون من الله، أو حديث نفس، أو من الشيطان(٢)، والفرق بين هذه الثلاث يظهر بقرائن تحتف بالرؤيا، فما يراه النائم من الأمور المختلِطة المتصلة بتفكيره قبل نومه تُسمّى حديثَ نفس، وهي أضغاث أحلام لا عبرة بها، أما ما يراه النائم من الأمور المحزنة والفاجعة فهي من الشيطان يؤذي بها بني آدم، وأما ما يراه من الأمور المنتظمة المشتملة على الخير فهي الرؤيا الصالحة(٣)، ولا تكون مصدرا للعلم الإلهي إلا من الأنبياء؛ فإن رؤاهم معصومة، ومن سواهم لا تتجاوز رؤاهم مهما كانت صالحة ومهما كان صلاحهم، أن تكون مبشرات ومنذرات، لا ينبني عليها عقائد ولا أحكام شرعية، وإنما يعتبر بها الرائي في خاصة نفسه بما لا يخالف الشرع(٤).

فإذا زعم زاعم مثلاً أن النبي ﷺ جاءه في المنام وأرشده إلى أمر ما، فعليه أن يعرض ذلك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الثابتة عنه بالنقل الصحيح، فإن لم يكن في رؤياه ما يعارضها كأن يأمره بالصدقة مثلاً، أو بزيارة مريض ونحو ذلك من وجوه البر والإحسان جاز له أن يعمل بمقتضى رؤياه ولم يجب عليه ذلك، أما إن زعم أنه أمره بما يعارض الشرع كبدعة اعتقادية أو عملية فإنه يحرم عليه العمل بهذه الرؤيا، ويجزم أن الذي رآه ليس رسول الله ﷺ؛ فإنه لا يأمر

(١) "الزهر النضر في أخبار الخضر" للحافظ ابن حجر ص٦٧.

(٢) انظر صحيح البخاري ح: ٦٦١٤، وصحيح مسلم ح: ٢٢٦٣.

(٣) انظر: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني: ١٢/ ٤٠٧، ٤٠٨.

(٤) انظر: "الاعتصام من البدع" للشاطبي: ١/ ٢٦٠.

إلا بخير[١]، وقد أكمل الله تعالى له الدين قبل موته، فلا يحتمل إضافة بعد موته، لا خاصة ولا عامة، فالكل يدخل في قوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**»[٢]، ولم يستثن عليه الصلاة والسلام من ذلك رؤيته في المنام.

وأما قوله ﷺ: «**من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي**»[٣]، فهو خاص بمن قابله في حياته ورآه وعرف صورته، فهذا هو الذي يستطيع أن يجزم أن صورة من رآه مطابقة لصورة رسول الله ﷺ، أما من لم يره ممن جاء بعده فلا يملك إلا الظن بمقاربة صورة من رآه لما عرفه بالتعلم من صفة رسول الله ﷺ، ولا يكفي الاعتماد على مجرد قول المرئي في المنام: إني رسول الله، أو أن يقع في نفس الرائي أن المرئي هو رسول الله، أو نحو ذلك، وعلى تقدير أن الحديث يشمل الذين لم يروه في حياته فإن اشتمال الرؤيا على ما يخالف الكتاب والسنة قرينة قاطعة على أن المرئي ليس رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) انظر: "الاعتصام": ١/ ٢٦١، ٢٦٢، ومن أمثلة ذلك قول محيي الدين بن عربي الصوفي في أول كتابه "فصوص الحكم": رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أديتها في العشر الأخر من المحرم سنة ٦٢٧ بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله..)!، ومعلوم أن هذا الكتاب طافح بمعتقد وحدة الوجود الذي هو غاية في الكفر الصريح. انظر الفصوص مع شرح القاشاني ص٩، ط٣، ١٤٠٧، مكتبة البابي بمصر، وانظر مثالاً آخر في "طبقات الشافعية الكبرى"لابن السبكي: ٦/ ٢٢٨-٢٣٧، فيه أن الرائي قرأ على النبي ﷺ كتاب "قواعد العقائد" لأبي حامد الغزالي كاملا!، معه أنه على منهج المتكلمين المخالف لمنهج السلف، وفي ٦/ ٢٥٩ من الطبقات رؤيا أخرى تزكي كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، مع ما فيه من المآخذ التي سبقت الإشارة إليها ص ١٢ حاشية ٣.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم ٢/ ٥٩٢، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم ٨٦٧.

(٣) رواه البخاري ح: ٦٥٩٢، ومسلم ح: ٢٢٦٦.

(٤) انظر "الاعتصام": ١/ ٢٦٢، ٢٦٤، وللعلماء أقوال كثيرة في معنى الحديث راجعها في فتح الباري ١٢/ ٣٨٤، ٣٨٥.

المبحث الثاني

الانحراف بالمصادر المعتمدة فهماً واستدلالاً

إذا كانت المصادر غير المعتمدة في استقاء العقائد قد أدت إلى انحرافات عقدية كثيرة فإنها لم تكن المنتج الأكبر لهذه الانحرافات، بل غالب الانحرافات ترتب على الرجوع إلى المصادر الصحيحة المعتمدة لكن بمنهج منحرف في الفهم والاستدلال، وذلك ما يجعل هذا النوع أشدَّ خطراً؛ فطالب الحق غالباً ما ينفر من أخذ معتقده من مصدر مخالف أو مزاحم للوحي المبين، لكنه قد ينخدع بمنهجٍ يوهم صاحبه أنه ملتزم بالمصادر الصحيحة، بل على فهم السلف ومنهجهم، وأن مخالفه هو الزائغ عن طريقتهم، المشاق لسبيلهم!.

وفيما يلي عرض لملامح هذا المنهج الخادع وأخطر لوازمه وآثاره في المطالب التالية.

المطلب الأول: التأويل المنحرف لنصوص الكتاب والسنة:

وردت كلمة "التأويل" في الكتاب والسنة وكلام السلف بمعنيين اثنين لا ثالث لهما[(١)]، أولهما: التفسير، كما في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وثانيهما: وقوع المخبَر به وتحققُه، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ثم حدث بعد عهد السلف الاصطلاح على معنى ثالث للتأويل هو: صرف اللفظ عن ظاهره الحقيقي إلى معنى آخر مَجازي[(٢)]، واشترط أصحاب هذا الاصطلاح لصحة التأويل بهذا المعنى وجود دليل صارف للفظ عن المعنى المعهود المتبادر إلى الذهن إلى معنى آخر محتمَل، وجعلوا وجود هذا الدليل من عدمه فارقاً بين التأويل المحمود والتأويل المذموم الذي حقيقته تحريف الكلم عن مواضعه.

وكان الحاملَ على ابتداع هذا المفهوم الجديد للتأويل محاولةُ مبتدعيه التوفيقَ بين ما اعتبروه مقرراتٍ عقليةً قطعية في معرفة الله وصفاته وأفعاله وبين ما يخالفها من ظواهر نصوص الكتاب والسنة.

وقد تمثل ذلك أكثر شيء في الصفات الإلهية التي تواترت النصوص على إثباتها لله تعالى،

---

(١) انظر: "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة" لابن القيم ١/ ١٧٥-١٧٨.

(٢) انظر: "البحر المحيط في أصول الفقه" للزركشي ٣/ ٢٧.

واعتبرها أهل التأويل مصادِمة لما توهموه قواطعَ عقلية تقتضي ألا يتصف الله تعالى بصفة وجودية على الحقيقة، أو أن يتصف ببعض الصفات دون بعض، بحسب درجاتهم في تقدير الكمال الواجب لله تعالى وتفسيره، ولا يسعهم أن يخطّئوا النصوص، ففزعوا إلى صرف النصوص عن ظواهرها الدالة عليها بمقتضى الخطاب العربي المبين، وسموا ذلك تأويلاً، واعتبروه طريقاً شرعياً.

وتذرع أصحاب هذا المسلك إلى تقريره ببعض النصوص التي زعموا ضرورة صرفها عن ظاهرها وإلا لزم اعتقاد الكفر، نحو قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله عن موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، ونحوها من الآيات التي زعموا أن ظاهرها يدل على الكفر![1].

والحق أن الألفاظ الواردة في أمثال هذه النصوص لا يتبادر منها إطلاقاً المعنى المحذور؛ وذلك أنها تدل على المعنى المراد من خلال السياق الذي جاءت فيه، ولا تحتمل أثناءه ما تحتمله إذا جاءت منفردة أو في سياق آخر[2]. فالزعم مثلاً أن قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يدل ظاهره على أن السفينة تجري في داخل عين الله التي هي صفة ذاتية له، وبها تتعلق صفة البصر، زعم باطل؛ وذلك أن كل عربي فصيح يسمع هذه الآية يدرك أن المراد حفظ الله لأصحاب السفينة، ولا يخطر بباله أصلاً المعنى الذي زعموا أنه مدلول ظاهر الآية، وكفّر بعضهم بمقتضاه من يأخذ بظواهر آيات الصفات، كما أن العرب لا تطلق هذا التعبير إلا على من كان متصفاً بالصفة حقيقة، وإن لم يكن مراداً بها في ذلك النص المعين الصفة ذاتها[3].

كما أن ادعاء معنىً للّفظ مغايرٍ لما يحتمله السياق داخلٌ في تحريف الكلم عن مواضعه، فدلالة لفظة "يد" مثلاً في قوله تعالى لإبليس: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾

---

(١) يقول أحمد الرفاعي [ت٥٧٨] كما في كتابه "البرهان المؤيد" ١/ ١٤: وصونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة لأن ذلك من أصول الكفر. ا. هـ، وقد كرر هذه الكلمة الشنيعة الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين (٣/ ١٠) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف٢٣]، وانظر نقد ذلك في "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للعلّامة الشنقيطي ١/ ٢٦٥-٢٧٣.

(٢) انظر: "مختصر الصواعق المرسلة" لابن الموصلي ص ٣٢٢.

(٣) انظر: "الصواعق المرسلة" لابن القيم: ١/ ٢٥٤-٢٦٠.

[ص: ٧٥] لا تحتمل بمقتضى السياق والتركيب اللغوي غير اليد الحقيقية التي يكون بها القبض والبسط، بخلاف ورودها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، فهي بمقتضى السياق والتركيب اللغوي تحتمل الدلالة على القدرة والنعمة(١).

ولو أن الذين يسلكون مسلك التأويل اقتصروا على قرينة السياق في الصارف عن الظاهر الذي زعموا أنه محذور لهان الأمر، وصار الخلاف لفظياً أو قريباً من اللفظي، وانحسر في تحديد مفهوم الظهور في الألفاظ، وهل يؤخذ باعتبار ورودها في السياق أم باعتبار انفرادها.

لكن الخطير أنهم غالباً ما يعوّلون على القرينة العقلية وحدها، كما زعموه في المثال المشهور لتأويلاتهم: وهو تأويل الاستواء بالاستيلاء في قوله تعالى في ست آيات من كتابه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف٥٤، يونس٣، الرعد٢، الفرقان٥٩، السجدة٤، الحديد٤]، مع أن تأويل الاستواء بالاستيلاء من الكذب الصريح على اللغة(٢)، كما أن ادعاء استحالة الاستواء على الله تعالى من الكذب الصريح على العقل(٣).

وعلى هذا فإن أهل التأويل يفتحون على الإسلام باب شر عظيم، يلزم منه لوازم غاية في الشناعة تدل على بطلان مسلكهم، منها:

١- أنهم يفتحون باب التأويل الباطني لجميع عقائد الإسلام وشرائعه، فلا يستطيعون الرد على من يؤول نصوص المعاد والجنة والنار، بل ونصوص الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ فإن الباطنيين لن يعدموا قرينة عقلية يدّعونها يسوّغون بها تحريفاتهم(٤).

٢- اتهام نصوص الكتاب والسنة بأن ظواهرها تدل على الكفر، بل تبالغ في تقريره.

٣- أن القرآن والرسول لو لم يوجدا لكان أسلم لعقائد الناس؛ فإن أكثرهم أخذوا بالظواهر.

٤- ألا يكون القرآن ميسَّراً للذكر، بل مُعسّراً مُلغِّزاً يلتبس الحق فيه بالباطل.

---

(١) انظر: "الصواعق المرسلة" لابن القيم ١/ ٢٦٩.

(٢) انظر: "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ٥/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٣) انظر: "بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٥٣٣.

(٤) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٣-٤٠.

٥- أن يكون النبي ﷺ قد جهل الحق، أو علمه وكتمه، أو أنه بلّغه لكن السلف تواطؤوا على كتمانه أو تضييعه وإهماله(١). وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم(٢).

فهذا هو الانحراف الأعظم بالمصادر الصحيحة للعقائد عن جادّتها، وما أذكره بعد إنما هو دِعامات رسّخ بها أصحاب التأويل منهجهم، ووظّفوها لتفويت دلالات نصوص الكتاب والسنة على كثير من الأصول والمسائل العقدية كما فهمها السلف الصالح.

المطلب الثاني: دعوى أن الدلالات اللفظية لا تفيد اليقين:

يزعم أصحاب منهج التأويل أن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين، وإنما تفيد الظن، فلا يُعتمد عليها في تقرير العقائد.

ولا ينقضي العجب من مسلم يقرأ قوله تعالى عن القرآن: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، مع قوله تعالى عن الكفار ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٦، ٣٧]، وقوله عنهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، ثم يبتدع هذا القانون الذي يقضي على جميع دلائل الكتاب والسنة بالظنية، ويسلبها وصف اليقينية، فينبني على ذلك عنده عدم أهليتها لإثبات العقائد اليقينية!

ومراد أصحاب هذا القانون في أخف الاحتمالات أن دلائل الكتاب والسنة لا يحصل بها

---

(١) انظر هذه اللوازم مفصلة في نص مهم لشيخ الإسلام ابن تيمية نقله عنه تلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة ١/ ٣١٤-٣١٦.

(٢) انظر: "المحصول في علم الأصول" للفخر الرازي: ١/ ٢٤٦.

اليقين بمراد الله ورسوله، ولو حصل منها اليقين بذلك لحصل اليقين بأنه الحق؛ لعصمة الوحي، فهذا المراد وإن لم يقدح في تصديق الوحي فهو مفضٍ إلى الإعراض عنه وعدم التحاكم إليه وعزله التام عن وظيفة الهداية، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك تقديم العقل عليه[١]، وكفى بهذا زاجراً للمسلمين عن الرجوع في عقائدهم إلى أصحاب هذا المنهج، وحاملاً إياهم على نبذ أمثال هذه المقولات.

المطلب الثالث: القول بالمجاز:

المجاز مصطلح لغوي حادث أطلقه واضعوه على استعمال اللفظ في غير ما وضع له، بأن يريد المتكلم بألفاظه المعاني البعيدة التي لا تتبادر إلى ذهن السامع إلا بقرائن تنبهه إلى أن المعنى المتبادر من اللفظ غير مراد للمتكلم، وأطلقوا في مقابل ذلك مصطلح الحقيقة على ما وضع له اللفظ أصلاً، وهو المعنى المتبادر من اللفظ حال انفراده، فمثلاً إذا قلت: رأيت أسداً، تبادر إلى ذهنك الحيوان المفترس المعروف بهذا الاسم، فإذا قلت: رأيت أسداً يضرب بالسيف، دلت قرينة الضرب بالسيف أنك لم ترد هذا المعنى الحقيقي للفظ أسد، وإنما أردت المعنى المجازي، وهو الرجل الشجاع[٢].

والحقيقة أن هذه المسألة اللغويةَ البلاغيةَ ما كان لها أن تُقحم في مسائل الاعتقاد لولا توظيفُ أصحاب منهج التأويل لها في نفي حقائق الصفات الإلهية الواردة في القرآن والسنة، وادعاؤهم أنها من المتشابه الذي لا يجوز اعتقاد ظاهره، على نحو ما سبقت الإشارة إليه[٣].

ومعلوم أن هذه المسألة لو جاز وقوعها في اللغة لم يلزم أن تقع في القرآن، ولو جاز وقوعها في القرآن لم يلزم وقوعها في آيات الصفات الإلهية، فما كل أسلوب مستعمل في اللغة يجري استعماله في القرآن؛ وذلك أن القرآن كتاب هداية وبيان، ميسر للذكر، غير ذي عوج، فصل ليس بالهزل، ومن الأساليب اللغوية المستعملة في الشعر والنثر بحسب أغراض الكلام ما يتعارض مع هذه الخصائص القرآنية، كالإلغاز والتعمية وتجاهل العارف والغلو والإغراق

---

(١) انظر: "الصواعق المرسلة" لابن القيم: ٢/ ٦٣٥، وقد أسهب رحمه الله في هذا الكتاب النفيس في مناقشة قانون الرازي هذا ونقضه، ملخصاً ردود شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" على هذا القانون ونحوه من أصول الجهمية.

(٢) انظر "الخصائص" لابن جني: ٢/ ٤٤٢.

(٣) ص ٧١، وانظر: "أساس التقديس" للرازي ص ١٤٣.

ونحوها من الأساليب البلاغية المعروفة التي يتنـزه عنها الخطاب القرآني[١]، فادعاء دخول المجاز في أهم المعاني القرآنية، وهي الصفات الإلهية، التي كثر ضلال بني آدم فيها يتنافى مع اضطلاع القرآن بوظيفة الهداية التامة والبيان الشافي، ويقلب الأمر إلى ضد ذلك من الإضلال والغموض وإيقاع المستمعين في الحيرة والاختلاف.

ومن هنا أدرك علماء السنة خطورة ادعاء المجاز في نصوص الصفات الإلهية، وبالغوا في إنكار ذلك، والتحذير من تحايل أصحاب منهج التأويل بالمجاز للتخلص من دلالات نصوص الكتاب والسنة على حقائق الاعتقاد[٢].

المطلب الرابع: دعوى أن أخبار الآحاد لا تفيد العلم:

أخبار الآحاد في مصطلح المحدثين هي كل ما لم يبلغ درجة التواتر، والخبر المتواتر هو ما يرويه جمع يمتنع بمقتضى العادة تواطؤهم على الكذب في جميع طبقات السند[٣].

ودعوى أن أخبار الآحاد لا تفيد العلم حيلة أخرى ابتدعها أصحاب منهج التأويل للتخلص من دلالات الأحاديث النبوية؛ فبعد أن طعنوا في الدلالات القرآنية بالتأويل والقول بالمجاز، ابتدعوا هذه البدعة في الطعن في ثبوت الأحاديث، وذلك لأن دلالات الأحاديث تميزت عن الدلالات القرآنية بمزيد من التأكيد المفصل على المعنى المراد، بحيث فوّت على أصحاب منهج التأويل استعمال حيلة المجاز في التنصل من تلك الدلالات، إلا على وجهٍ من التأويل الباطنيِّ لا ينطلي على مسلم سليم العقل والفطرة واللسان.

وقد أشار إلى هذه المزية للدلالات الحديثية بعض كبار الصحابة، فقد روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[٤]. ورُوي هذا أيضاً عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥].

---

(١) انظر تفصيل هذه الأساليب في "منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز" للعلامة محمد الأمين الشنقيطي ص ١٠-٣٢.

(٢) ومن أبلغ ما كتب في ذلك ما خصصه العلامة ابن القيم لمناقشة قضية المجاز في الصفات الإلهية من كتابه العظيم "الصواعق المرسلة"، انظر "مختصر الصواعق المرسلة" لابن الموصلي ص ٢٣١ وما بعدها.

(٣) انظر: "الكفاية في علم الرواية" للخطيب البغدادي ص ١٦، ١٧.

(٤) رواه الدارمي في سننه ح: ١١٩.

(٥) رواه اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة والجماعة": ١/ ١٢٣، رقم ٢٠٣.

وأخرج ابن سعد في الطبقات من طريق عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسله إلى الخوارج، فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجَّهم بالقرآن؛ فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة(١).

وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال: يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم؛ في بيوتنا نزل. قال: صدقت، ولكنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجِّهم بالسنن؛ فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً. فخرج إليهم فحاجَّهم بالسنن، فلم يبق بأيديهم حجة(٢).

ورُوي أن ابن عباس هو الذي نصح علياً بذلك، فعن الأوزاعي قال: خاصم نفر من أهل الأهواء علي بن أبي طالب فقال له ابن عباس: يا أبا الحسن، إن القرآن ذَلولٌ حَمولٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، خاصمهم بالسنة؛ فإنهم لا يستطيعون أن يكذبوا على السنة(٣).

ولنعرض مثالاً تطبيقياً واحداً على ما ذكره الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فالسلف رحمهم الله تعالى يثبتون بالإجماع رؤية المؤمنين ربَهم في الجنة(٤)، وأنها أعظم نعيم يتلقونه، ويستدلون على هذه العقيدة بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ويستدلون أيضاً بقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»(٥)، وبتفسير النبي ﷺ للزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، بأنها رؤية المؤمنين ربهم في الجنة(٦). وبغيرها من الأدلة.

والمعتزلة ومن وافقهم ينكرون رؤية المؤمنين العيانيةَ لربهم غاية الإنكار، ويجعلونها

---

(١) انظر: "مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة" للسيوطي ص ٥٩.

(٢) انظر الموضع نفسه.

(٣) رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه": ١/ ٥٦٠.

(٤) انظر: "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري ص ٣٥ وما بعدها، و "شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه ح: ٦٩٩٧، ومسلم ح: ٦٣٣.

(٦) انظر صحيح مسلم ح: ١٨١.

مقتضيةً التجسيمَ والتشبيهَ المنافيَ كمالَه وعظمته بزعمهم، ويؤَوِّلون النظر في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بانتظار رحمة الله، ويؤَوِّلون حجْب الكفار عن ربهم بأنه حجبهم عن رحمته، أما الزيادة في الآية الأولى فيجعلونها زيادة في النعيم، ولا يأخذون بدلالة الحديث الذي يفسرها(١).

ثم يؤيد نفاة الرؤية موقفهم هذا بإيراد قوله تعالى في بيان عظمته: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] الذي يراد به الإحاطة، وقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، الذي هو متعلق بما طلب موسى في الدنيا، وما ذكره تعالى عن قوم موسى عليه السلام أنهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥](٢).

ومع أن دلالة الآيات على إثبات الرؤية شبه صريحة فأنت تلاحظ هنا أنها ليست في حسم المسألة كالحديثين الذين أشرنا إليهما، وإذا كان لنفاة الرؤية من شبهة في الآيات التي توهموا فيها ما يدل على أن الرؤية العيانية ممتنعة على الله تعالى، فإن الحيلة ستعييهم في الجواب على دلالة الحديثين، بقوله " عياناً " كما جاء في بعض الروايات، وخصوصا قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم**»، وتأكيده أن الرؤية المقصودة هي الرؤية العيانية بقوله: «**كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»، فشبه الرؤية بالرؤية تأكيداً لذلك.

والمقصود أن أصحاب منهج التأويل فطنوا لهذه المزية في السنن، وضاقوا ذرعاً بكثرة ما يورده منها من ينتصر لمنهج السلف في العقائد، ففزعوا لدعوى جديدة تخص الأحاديث النبوية هذه المرة، وهي زعمهم أنها أخبار آحاد لا يُستفاد منها اليقين، وإنما تفيد الظن، فلا يُعتمد عليها في تقرير العقائد اليقينية.

والعجيب أن كثيراً من هذه الأخبار التي ادعوا ظنّيتها لكونها آحاداً هي في الواقع متواترة لفظاً أو معنى، ومن ذلك أحاديث إثبات الرؤية؛ فقد رواها نحو ثلاثين صحابياً(٣)، وكذا

---

(١) انظر: "شرح الأصول الخمسة" لعبد الجبار بن أحمد ص ٢٣٢ وما بعدها.

(٢) انظر: "الكشاف" للزمخشري [ت٥٣٨]: ٢/ ١٤٤-١٤٦.

(٣) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٣٠، و"شرح العقيدة الطحاوية" ص ٢١٠.

حديث نزول الرب جل وعلا[١]، وكذا أحاديث عذاب القبر والشفاعة والحوض وتكليم العباد يوم القيامة والعلو والعرش[٢]، وهذا وحده كفيل بتفويت مقصودهم من هذه الدعوى.

والحق أنه لا يجوز نبذ دلالة الأحاديث الصحيحة في مجال العقائد ولو كانت آحاداً للأمور التالية[٣]:

١- أنها موافقة للقرآن مفسرة له، ومفصلة لمجمله، وموافقة كذلك للأحاديث المتواترة.

٢- أنها تفيد اليقين إذا احتفت بها القرائن.

٣- أن كون الشيء يقينياً أو ظنياً أمر نسبي إضافي لا يجب الاشتراك فيه، وهذه الأحاديث تفيد اليقين عند من له عناية بمعرفة السنة النبوية على التفصيل دون غيره.

٤- أن السلف رحمهم الله، أجمعوا على قبولها وإثبات العقائد بها.

٥- أنها إن لم تفد اليقين فأقل درجاتها إفادة الظن الراجح، ولا يمتنع إثبات بعض الصفات والأفعال به.

كما دلت على إفادة خبر الآحاد العلمَ اليقينيَّ أدلةٌ كثيرة منها:

١- أمر تحويل القبلة؛ فإن أهل قباء استداروا إلى القبلة الجديدة أثناء صلاتهم، مع أن الذي أخبرهم واحد، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، فهذا يدل على الجزم

---

(١) انظر: "مختصر الصواعق المرسلة" ص ٣٧١.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص ٤٥٣.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٤٣٨، وقد أسهب العلامة ابن القيم رحمه الله في تفصيل هذه الأمور في آخِر كتابه العظيم "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة"، الذي لم يصلنا منه سوى نصفه الأول، وقد طُبع في أربعة مجلدات بتحقيق د/ علي الدخيل الله، لكن وصلنا والحمد لله مختصر الكتاب كاملاً للموصلي، والتفصيل المذكور مثبت فيه في ص ٤٣٩ وما بعدها.

(٤) انظر: صحيح البخاري: ١/ ١٥٧، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم ٣٩٠، وصحيح مسلم: ١/ ٣٧٤، ٣٧٥، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، أحاديث رقم ٥٢٥-٥٢٧.

بقبول خبر الواحد العدل غير الفاسق، وعدم الحاجة إلى التثبت فيه؛ إذ لو كان لا يفيد اليقين لمجرد كونه واحداً لأمر بالتثبت فيه، وعلى هذا جرى المسلمون منذ زمن النبي ﷺ، فكانوا ينسبون الأقوال والأفعال إلى النبي ﷺ جازمين بصدورها منه، مكتفين بعدالة النقلة وحفظهم، دون الالتفات إلى كونهم آحاداً(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فلو كانت أخبار الآحاد لا تفيد العلم اليقيني لكان المسلمون، منذ عهد الصحابة، باتباعهم أخبار الآحاد وأخذهم بها يقفون ما ليس لهم به علم، وبطلان هذا معلوم بالضرورة(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، فلولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤالهم، ومعلوم أن امتثال هذا الأمر الإلهي متحقق بسؤال واحد من أهل الذكر(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ومعلوم أن المقصود من هذا البلاغ إقامة الحجة على المبلَّغين، وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالتبليغ عنه، ويقول: «**بلغوا عني ولو آية**»، ويرسل آحاد أصحابه يبلغون عنه العقائد والأحكام فتقوم بهم الحجة، فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لم تقم الحجة بهذا التبليغ القائم عليه(٤).

المطلب الخامس: الاحتجاج بالخلاف الفقهي في رد دلالات النصوص:

وهذه إحدى وسائل التنصل من حاكمية النص الشرعي والالتزام به، فظهر في الآونة الأخيرة من يحتج بالخلاف الفقهي على النص، فإذا قيل له: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ قال المسألة فيها خلاف !. ومن المعلوم أن الله تعالى أنزل النصوص لتحكم على الخلاف لا أن تحاكم إليه قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله تعالى أي إلى كتابه، وإلى الرسول إلى سنته ﷺ

(١) انظر: "مختصر الصواعق المرسلة" ص ٤٧٨.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٤٧٩

(٤) انظر: الموضع نفسه.

بعد وفاته، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فجعل النص حاكماً على النزاع حاكماً على الخلاف.

وقد ظهر هذا الانحراف مبكراً عند ما كثر الجهّال الذين يفتون الناس بغير علم، ويبحوث عن الرخص لعوام الناس من غير ضابط ولا قيد في خلافات العلماء، حتى صار العوام من الناس يلوكون هذه الكلمة من غير معرفة لمعناها فيرددون: المسألة فيها خلاف، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة، ووقع فيها تقدم وتأخر من الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف... فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع؛ فيقال: لم تمنع والمسألة مختلف فيها، فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفا فيها، لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد متعمداً، وما ليس بحجة حجة»[1].. ثم أشار إلى المفاسد الوخيمة لاتباع الخلافات وتحكيمها وتتبع الرخص والانسلاخ من الدين بترك " اتباع الدليل " إلى اتباع الخلاف، والاستهانة بالدين إذ يصير بهذا الاعتبار سيالاً لا ينضبط.

المطلب السادس: دعوى إعادة فهم النص الشرعي بما يتواءم مع روح العصر ومتطلباته دون اعتبار لفهم السلف والأئمة المتقدمين:

وهذا ما ينادي به اليوم بعض من يسمَّوْن بالمثقفين وغيرهم، حيث يرون ضرورة إعادة قراءة الخطاب الديني وفهم النصوص الشرعية فهماً عصرياً يواكب الحياة المعاصرة وحضارتها ومتطلباتها؛ وذلك نتيجة للروح الانهزامية التي يحملها هؤلاء، والشعور بالنقص والدونية، والانبهار بما عند الأعداء من تقدم مادي، محتجين ببعض موروثات الفرق والبدع القديمة، وشبهات العلمانين والمستشرقين الحديثة، ومن المعلوم أن المتعين على المسلم الحريص على دينه أن يكون حريصا على فهم مراد الله تعالى من خطابه لنا، ومراد رسوله ﷺ، ولا يستطيع المرء أن يعرف مراد الله تعالى ولا مراد الله و رسوله ﷺ إلا حينما يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح... وصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجمل منهما بل هما: «ساقا

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ٤/ ١٤١ وما بعدها.

الإسلام، و قيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت مفهوماتهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت مفهوماتهم وقصودهم»؛ ولذ عد ابن القيم الفهم الصحيح عن الله ورسولهم عنوان الصديقية، ومنشور الولاية، وفيه تتفاوت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد؛ لأن «صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل والهدى والضلال، ويمده حسن القصد و تحري الحق و تقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى»(١).

ومن المعلوم يقيناً أن من أكبر أسباب الابتداع في الدين والانحراف في فهمه هو الانحراف في فهم النصوص، وما انحرفت الخوارج والمرجئة والغلاة قديما وحديثا ودعاة التحلل، ورقة الديانة إلا لما انحرفت في فهم النصوص، والضابط لهذا الفهم هو فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثم اتباعهم من أصحاب القرون المفضلة. ولذا احتج ابن عباس على الخوارج لما ناظرهم بقوله: (ولم يكن فيكم أحد من صحب رسول الله ﷺ)(٢) يعني: ليدلهم إلى الفهم الصحيح لهذه النصوص، ويقوم ما اعوج من الفهم الصحيح. وما الشبهات التي تحرف الناس عن الحق قديماً وحديثاً إلا بسبب الخطأ في الفهم للدليل الشرعي، فيفهمه على غير مراد الله ومراد رسوله ﷺ:

وكم من منكر قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم(٣)

ومستند السلف في معرفة مراد الله تعالى من كلامه هو ما يشاهدونه من فعل رسوله ﷺ وهديه، وهو يبين القرآن الكريم ويفسره. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، بل ما أرسل الله من رسول: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ لذا كان حرياً الرجوع إلى فهم السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم لفهم هذه النصوص على ضوء فهمهم، فالسلف علمهم أتم وأحكم وأسلم؛ فلهذا كانوا أعرف الناس بالحق وأدلته وبطلان ما يعارضه، وكانوا أعظم الناس قياماً بدين الله

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٨٧، ١٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ح: ١٨٦٧٨، والنسائي في السنن الكبرى ح: ٨٥٧٥، والحاكم في المستدرك ح: ٢٦٥٦، وصححه ووافق الذهبي.

(٣) البيت للمتنبئ، ينظر ديوانه بشرح الواحدي (١/ ١٧١).

تعالى، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تصدهم عن سبيل الله العظائم.

وهناك عدة اعتبارات توجب الرجوع إلى فهمهم، خاصة في النصوص الثوابت من الدين كالعقائد والعبادات، وهي خصائص لا تجتمع في غيرهم فكان فهمهم مقدماً على غيره من الفهوم ومن أهمها:

١ - **سلامة مصادرهم في التلقي**: فقد تلقوا الوحي الرباني من النبي ﷺ بدون واسطة وبتجرد تام، وإيمان كامل، وتسليم مطلق لم يحاكموه إلى غيره. يصور لنا ذلك الإمام اللالكائي المتوفى سنة ٤١٨هـ فيقول: «فأخذوا الإسلام عنه ـ أي النبي ﷺ ـ مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة، من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه واصلة. فجاولوها عياناً، وحفظوا عنه شفاهاً، وتلقنوه من فيه رطباً، وتلقنوه من لسانه عذباً، واعتقدوا جميع ذلك حقاً، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا، فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺمشافهة، لم يشبه لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تجامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف، كالحروف يتلو بعضها بعضاً، ويتسق أخراها على أولاها رصفاً ونظماً. فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، والدعوة لهم من الله بالمغفرة؛ فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه، فحري أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته، وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه، ومعولها عليهم فيما يختلف فيه من أموره لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة»(١).

٢ـ مكانتهم في العلم والعمل: فإن زمانهم أشرف، وعصرهم أبرك، وعلمهم أغزر، حرصهم على طلب العلم والعمل به أعظم، والغلط عنهم أبعد من غيرهم، فهم الذين علمهم النبي ﷺ الوحي ورباهم عليه، وبين لهم ما أشكل عليهم حتى فهموه، ووعوه على أكمل صورة، وبلغوه لمن بعدهم على أتم بلاغ. فهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «والذي لا إله غيره، ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية في كتاب الله

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٢، ٢٣).

إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[١]. وهذا ليس قاصراً على الصحابة، بل هو ما قام به اتباعهم من القرون المفضلة، فهذا مجاهد رحمه الله من التابعين يقول : «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها»[٢]. كما كانوا أحرص الناس على العمل بما سمعوه: ولا يكون العمل إلا عن علم وفهم ودراية، قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ...**»[٣] وكذلك حواريوه وأصحابه ﷺ. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»[٤].

٣. **عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل**: فعرفوا زمان نزوله ومكانه وأحوال نزوله، وناسخه ومنسوخه، ومتقدمه ومتأخره، وهذا أورثهم مزيد فهم لا يشاركهم فيه غيرهم. قال ابن تيمية رحمه الله: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول ﷺ لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على [مراده] ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك»[٥]. ومن الأمثلة على ذلك: مافهمه أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] لما حمل رجل يوم القسطنطينية على العدو فقال الناس: مه، لا إله إلا الله؛ يلقي بنفسه إلى التهلكة... فذكر أبو أيوب سبب نزولها، وقال: فالإلقاء إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلها، وندع الجهاد[٦].

٤. **أنهم أعلم الناس بلغة القرآن**: فقد نزل القرآن بلسانهم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ جرياً على

(١) صحيح البخاري ح: ٥٠٠٢.

(٢) جامع البيان لابن جرير (٢/ ٥٢٤).

(٣) صحيح مسلم ح: ١٨٨.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح: ٩٩٧٨، والفريابي في فضائل القرآن ص١٦٩.

(٥) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٠).

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩ / ٩٩).

معهودهم في الكلام وعاداتهم في الخطاب، من غير تعلم لغة ولا مدارسة ولا اكتساب لأساليبها، ولا يعلم أحد أفصح لساناً وأسد بياناً وأقوم خطاباً من أهل القرون الأولى المفضلة، وأولاهم في هذا السبق صحابة رسول الله ﷺ.

ولا شك أن الجهل باللسان العربي من أكبر أسباب سوء الفهم للنصوص الشرعية؛ ولذلك قال الإمام الشافعي: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»(١) ثم إن اللغة التي تعد مرجعاً في تفسير القرآن، وفهم نصوصه هي اللغة التي كانت متداولة في عصر التنزيل دون الالتفات إلى اللغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصور التالية من دلالات الألفاظ مما لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم. قال ابن تيميه: «من لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعاداتهم في الكلام وإلا حرف الكلم عن مواضعه...»(٢).

٥ـ **أنهم خير هذه الأمة علماً وأبرها قلوباً وأكثرهم بركة**: وذلك لأن قوة الإيمان والتقوى واعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه، ويجعل للعبد فرقاناً ونوراً يفرق به بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ولا شك أن الصحابة واتباعهم هم خير من حقق ذلك، فتحقق لهم موعود الله الذي لا يخلف. قال ابن عمر: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً... قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد، كانوا على الهدى المستقيم»(٣). قال الشافعي: «وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به. آراؤهم أحمد وأولى بنا من آرائنا لأنفسنا»(٤).

٦ـ **دلالة الكتاب والسنة على إتباع فهمهم**: وذلك من خلال ما ثبت من الثناء عليهم علماً وعملاً، وهي تدل على وجوب تقديم فهمهم والرجوع إليه عند التنازع، واعتباره الفيصل في

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤٣).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥).

(٤) مناقب الشافعي للرازي ص٤٩.

فهم دلالات النصوص، ومراد الله ورسوله منها، ومن هذه الأدلة الكثيرة قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فالآية صريحة في الثناء على المتبعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم أئمة السلف الصالح وقادتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والاتباع شامل للاعتقاد والعمل المبني على صحة الفهم، وهذا المدح يتضمن صحة ما كانوا عليه من ذلك. كما دلت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك. وقد احتج الإمام مالك بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(١).

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] وغيره من النصوص الكثيرة.

٧- **دلالة الإجماع على اتباع منهجهم**: قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير هذه الأمة، في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرها من كل فضيلة، أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل، وإيمان وعقل، ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم»(٢).

ثم إن الالتزام بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة العاصمة من كل فتنة مضلة له ثمرات يانعة وآثار نافعة تحفظ المرء في عقيدته وعبادته وتعصمه بإذن الله من الأهواء والمفاهيم الشاذة والأفكار المنحرفة،وما سلت السيوف وأزهقت الأرواح، وسفكت الدماء، وانتهكت الحرمات، وكفر المسلمون، وفرقت جماعتهم إلا بسبب التأويل الباطل المبني على الفهم السقيم للنصوص الشرعية المخالف لفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٢٣) وقد فصل في ست صفحات دلالة هذه الآية على وجوب اتباعهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يراجع لمزيد الفائدة.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٨).

ومن أبرز هذه الثمرات:

أ/ أنه السبيل الوحيد لمعرفة مراد الله تعالى ومراد رسوله إذ هي غاية كل مسلم يريد الاعتصام بالكتاب والسنة، قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً لينجو من الفتن، ويحقق عبودية ربه على هدى وبصيرة. فأسعد الناس وأسدهم رأياً في جميع أمور الدين وما يقرِّب من رب العالمين هو من تلقى من «مشكاة الوحي المبين، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المتهوكين وتشكيكات المشككين، وتكلفات المتنطعين، واستمطر دين الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين؛ فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفت، وجمعت وفرقت، وأوضحت وبينت، وحلت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن»(١). ثم إن ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم إلى صراط العزيز الحميد. ولا شك أن أعلم الناس بهذا الصراط وأحرصهم على الهداية إليه هم صحابة رسول الله ثم اتباعهم من أئمة السلف الصالح؛ ولذا قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا لقيتم الذين يتبعون المتشابه فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى»(٢).

ب/ أنه أهم وسيلة لحسم مادة الابتداع وإغلاق باب البدعة والإحداث في الدين؛ لأن المبتدعة عادة ما يتعلقون ببعض النصوص ويتأولونها على غير تأويلها ويفهمونها على غير مراد الله ومراد رسوله. وفهم السلف هو الفيصل في هذه المسألة وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ج/ أنه العاصم من التفرق والاختلاف المذموم. قال عمر لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيمن نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيمن نزل، فيكون لهم منه فيه رأي؛ فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»(٣).

د/ أنه يورث الطمأنينة والأمن النفسي القاطع لشوائب الاحتمالات المقدرة الرافع

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٨).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ح: ١٢١، والآجري في الشريعة ح: ٩٣.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع ح: ١٥٨٧ (٢/ ١٩٤).

للإشكالات المتوهمة. فمتى علم المتفقه وطالب العلم أن فهمه للدليل موافق لفهم السلف الصالح كان ذلك حاسماً للترددات، شاهداً صادقاً على صحة الاستدلال بالدليل، مصدقاً له.

ه/ أنه الضابط في معرفة السنة من البدعة. فكل دين وعبادة لم يكن معروفاً عند السلف فهو ليس من الدين في شيء، بل هو الابتداع والإحداث في الدين، لذلك كله ينبغي الحذر من طرح ينادي بإعادة النظر في فهم النصوص الشرعية فهماً جديداً متنكباً لفهم السلف الصالح مهما ألبس هذا الطرح بلبوس التجريد أو الإصلاح أو التغيير أو مواكبة العصر أو التخلص من التحجر والجمود، أو الانفتاح والعصرنه والتنوير، أو غير ذلك من المسميات. فإن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئاً. وقد قال فرعون لقومه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

الفصل الثالث

الانحراف في المفاهيم والمصطلحات الشرعية

ويحتوي على:

تمهيـــــــــــد.

المبحـــــــث الأول: مفهوم التوحيد.

المبحـــــث الثـــاني: مفهوم الإيمان والكفر .

المبحـــث الثالـــث: مفهوم العبادة .

المبحـــث الرابـــع: مفهوم القضاء والقدر.

المبحـــث الخـــامس: مفهوم التوكل.

المبحـــث الـــسادس: مفهوم الزهد.

المبحـــث الـــسابع: مفهوم الحرية.

المبحـــث الثـــامن: مفهوم التجديد.

تمهيد

إن من بدهيات العقيدة الإسلامية أن يعتقد المسلم أن دينه وحده هو الدين الصحيح من بين أديان أهل الأرض منذ بعثة النبي الخاتم، عليه الصلاة والسلام، وأن ما سواه من الملل والنحل باطل لا يقبله الله تعالى، سواء كان من اختراع الناس من أصله كالديانات الوثنية الخرافية، أو كان في الأصل منزلاً من الله، ثم طرأ عليه التبديل والتحريف والزيادة والنقصان كاليهودية والنصرانية، كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا يعني بطلان ما سوى الإسلام من الديانات أنها بالضرورة لا تشتمل في تعاليمها وتشريعاتها على شيء من الخير الذي تستحسنه العقول وترتاح إليه النفوس كالأمر بالرأفة والرحمة والإحسان ونحو ذلك من وجوه الخير، وإنما المقصود أن الأصول التي بنت عليها هذه الديانات عقائدها وتشريعاتها هي على خلاف ما يرضاه الله تعالى مما أنزله على أنبيائه ورسله؛ لاشتمالها على الكذب الصريح على الله تعالى وعلى أنبيائه في معرفة صفاته وطريقة عبادته؛ ولذا فإن ما فيها من بقايا موروثات الأنبياء السابقين قد نسخ بالرسالة المحمدية الخالدة، وما أدخله البشر إليها لا يجوز التعبد لله تعالى به بحال.

وهذا الخسران الديني متحقق بالأصالة في الحياة الأخروية، كما في الآية السالفة، وكما في قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، أما في الدنيا فإن كمال العدل الإلهي يقتضي حصول شيء من الثواب العاجل لاتباع تلك الديانات الباطلة على ما عندهم من الخير، كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥][1]، وقول النبي ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى**

(١) وانظر: الإسراء١٨، االشورى٢٠، الأحقاف٢٠.

إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»(١).

وبهذا تتجلى النعمة العظمى على المسلمين في هدايتهم لدين الأنبياء والمرسلين، تلك النعمة التي امتن الله تعالى بها عليهم في أعظم المشاهد، حين أنزل على نبيه وهو بالموقف بعرفة(٢): ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وشرع لهم أن يلحّوا في طلبها كلما صلّوا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧، ٦]، فعلّمهم أن يسألوه معرفة الحق والعمل به، وأن يجنبهم حال المغضوب عليهم، وهم الذين يعرفون الحق فيعرضون عنه كحال اليهود، وحال الضالين، وهم الذين فرّطوا في معرفة الحق أصلاً، وتعصبوا لما عندهم من الجهل كحال النصارى(٣).

واستمرار هذه النعمة يوجب على المسلمين أن يقدروها حق قدرها، ويرعوها حق رعايتها، حتى تدوم عليهم السعادة بهذه النعمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وذلك ما يستوجب أن يفزع الناصحون إلى تذكير الأمة بهذه النعمة ووجوب الاستقامة عليها حتى تدوم لهم العزة والسيادة.

وقد وقع الخلل في الالتزام بالدين لدى بعض المسلمين في جانبين(٤):

الأول: خلل في السلوك، تمثل في إهمال شيء من الفرائض والواجبات الشرعية كالصلاة والزكاة والبر والصلة وحجاب المرأة والأمانة ونحوها، أو ارتكاب شيء من المخالفات والمنهيات كأكل الربا والسرقة والزنا وشرب الخمر والقتل بغير حق ونحو ذلك، وكان المؤديَ إلى الخلل في هذا الجانب الشهواتُ الداعية للنفس الأمارة بالسوء، وهذا الخلل السلوكي على شناعته وخطورته أهون بالنسبة للجانب الثاني.

---

(١) رواه مسلم ح: ٢٨٠٨.

(٢) انظر صحيح البخاري ح: ٤١٤٥، وصحيح مسلم ح: ٣٠١٧.

(٣) قال النبي ﷺ: (اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال) رواه الترمذي وحسنه ح: ٢٩٥٤، وصححه ابن تيمية، انظر مجموع الفتاوى ١/ ٦٤.

(٤) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٣٦، ١٣٧.

الثاني: وهو الخلل العقدي في المفاهيم، الذي يشوّه الأصول التي يقوم عليها بناء الدين، ويَغُر بعض المتدينين فيحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقد كان المؤديَ إلى الخلل في هذا الجانب وحيُ شياطين الإنس والجن بالشبهات المزخرِفة للباطل حتى يبدو للمغرور في صورة الحق، وقد أشار إلى الجانبين قوله تعالى للكفار: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]، فالاستمتاع يكون بالشهوات، والخوض يكون في الشبهات، ورُوي في الأثر: «واعلم أن الله يحب البصر النافذ عند مجيء الشهوات، والعقل الكامل عند نزول الشبهات»(١).

ومما يبين أن الخلل في الاعتقاد أخطر بكثير أنه قد يَذهب بأصل الإيمان، ويبطل الدين من أساسه، أما الخلل في السلوك فإن مرده إلى ضعف الإرادة وقوة داعي الشهوة، وهو ينقص الإيمان ولا يزيله بالكلية، وفي الغالب نجد بين الاعتقاد الباطن والسلوك الظاهر علاقة، فكلما زاد الإيمان في القلب انقادت الجوارح للطاعة والبعد عن المعصية، والعكس بالعكس، كما أن مختل العقيدة غالباً لا يشعر بخللها، فلا تلومه نفسه، بل غالباً ما يشعر أنه على الحق، ويتقرب إلى الله تعالى بالثبات على ما هو عليه، بل بالدفاع عنه والدعوة إليه، كما قال سبحانه عن كفار قريش: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، وذلك بخلاف المختل سلوكاً فإن ذل المعصية غالباً لا يغادر قلبه(٢)، ولا تزال نفسه تلومه عليها حتى يأذن الله بتوبته ولو بعد حين، ومن هنا قال سفيان الثوري رحمه الله: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتاب منها والبدعة لا يتاب منها»(٣). وبهذا فسر الإمام أحمد رحمه الله قول النبي ﷺ: «**إن الله احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة**»(٤).

---

(١) رواه الشهاب في مسنده ٢/ ١٥٢ برقم ١٠٨٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/ ١٣٢ برقم ٦١٢١، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" ٦/ ١٩٩ بنحوه من حديث عمران بن حصين مرفوعا، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/ ٧٧ عن الزبير بن العوام.

(٢) كان الحسن البصري رحمه الله يقول عن العصاة: وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال فإن ذل المعصية في رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه. انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١/ ٦٦، وكتاب "الأفعال" لأبي القاسم السعدي [ت٥١٥]: ٣/ ٣٧٦، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٦٠) عن الفضيل بن عياض.

(٣) رواه ابن الجعد في مسنده ص ٢٧٢، رقم ١٨٠٩.

(٤) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٦/ ٧٢، ٧٣، حديث رقم ٢٠٥٤، ٢٠٥٥، وصحح محققه إسناده، =

وفي هذا الفصل عرض لأبرز مواطن الخلل في المفهوم الصحيح للإسلام في جوانب العقيدة وأخرى تتعلق بالعبادات والمعاملات والسلوك في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، مع التنبيه على وجه مخالفتها للأصول الشرعية، وشيء من آثارها على سبيل الإجمال، وإلا فإن بسط القول في كل مسائل العقيدة التي وقع فيها الخلل لدى الطوائف الإسلامية المختلفة، واستقصاء أدلتها، واحتواء الشبه حولها يتطلب بحثاً مستقلاً لكل مسألة، وإنما قصدنا إعطاء صورة عامة لهذا الخلل بما يناسب المسلم ولو لم يكن متخصصاً في العلوم الشرعية؛ ليحرص على صيانة معتقده مما يخدشه، وليتنبه إلى أخطار هذا الخلل على أهم أسباب قوة الأمة ووحدتها.

=

وقد رُوي بمعناه قول النبي ﷺ: (يا عائشة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، هم أصحاب الأهواء والبدع، يا عائشة، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع ليست لهم توبة، فهم مني براء وأنا منهم بريء)، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٥/ ١٤٣٠، وغيره، انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٣/ ٤٠٢، وانظر قول أحمد في بدائع الفوائد لابن القيم ٤/ ٨٤٨.

المبحث الأول

مفهوم التوحيد

التوحيد هو الأساس الذي تنبني عليه العقيدة والتصورات الإسلامية، فلا عجب أن كان محوراً يدور عليه الخطاب القرآني، حتى قيل إن آيات القرآن كلَّها في التوحيد؛ باعتبار أنها تتحدث إما عن صفات الرب جل وعلا وأفعاله التي لا يشركه فيها غيره، وإما عن عبادته وحده، وإما عن قصص دعاة التوحيد من الأنبياء واتباعهم، وإما عن قصص أعداء التوحيد من المشركين والكافرين، وإما عن الجنة ثوابِ الموحدين، وإما عن النار عقوبةِ المشركين، وإما عن الفرائض والواجبات والأخلاق والآداب وهذه مقتضيات التوحيد ومكملاته، وإما عن المحرمات بأنواعها ودرجاتها وهذه نواقض التوحيد ونواقصه، فصح أن حديث القرآن كلَّه دائر حول التوحيد بهذا الاعتبار(١).

وإذا كان هذا هو قدر التوحيد في القرآن فمن الممتنع غاية الامتناع أن يكون القرآن وهو كلام الله الذي أنزله لهداية الخلق، قد أهمل أو قصّر في بيان حقيقة هذا التوحيد الذي ينبني عليه الدين كلُّه، ولا يقبل الله عملاً من أحد إلا بتحقيقه، فما هي حقيقة التوحيد التي قررها القرآن؟ ومن أين تسرب الخلل فيه إلى أمة تؤمن بالقرآن حتى صارت تختلف في تفسير حقيقة هذا التوحيد الذي خُلق لأجله كل شيء؟!.

إذا كان من البدهي أن معنى التوحيد: إفرادُ الله تعالى بكل ما يختص به مما يميّزه عن المخلوقين، فإن القرآن قد بين بغاية من الوضوح والتأكيد هذه الخصائص الإلهية بما يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أقسام:

أ- أسماء الله الحسنى وصفاته العلا المتضمنةُ تفسير كماله وجلاله.

ب- أفعال الله جل وعلا المتضمنة تدبيره ملكوتَه وفق حكمته وعدله.

ج- أفعال الخلق التي يقصدون بها العبادة والتأله.

فهذه أنواع الخصائص الإلهية التي لا يكون الموحد موحدا حتى يعتقدها ويقر بها ويحرص على تحقيقها.

وتقسيم التوحيد إلى هذه الأنواع فنيٌّ اصطلاحيٌّ غيرُ تعبدي، لكنه مأخوذ من القرآن

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٤٥٠.

والسنة بالاستقراء[1]، وإنما ذكره العلماء لأسباب منها:

١- التسهيل على طالب العلم لفهم حقيقة التوحيد.

٢- الاختصار في شرح حقيقة التوحيد بضم النظير إلى نظيره ورد الفرد إلى نوعه، فبدل أن يقال: التوحيد هو إفراد الله تعالى بالخلق والهداية والحُكم والرزق والشفاء والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات الزرع، والملك وعلم الغيب وكمال القدرة والحياة والعلم والسمع والبصر ونفاذ المشيئة، والصلاة والسجود والركوع والزكاة والصيام والحج والعمرة والذبح والنذر والتوكل والحب والذل، إلى آخر هذه المعاني العظيمة الشريفة التي دل صريح القرآن والسنة على أنها من خصائص الرب جل وعلا، بدل أن يفصَّل هذا التفصيل الطويل، يُكتفَى بذكر الأنواع التي ينتمي إليها كل فرد من هذه الخصائص، ثم يُكتفَى بذكر أمثلة عليها.

٣- تحذير الموحد من الاقتصار على بعض حقائق التوحيد دون بعض.

٤- ما نجم من انحراف لدى بعض الطوائف في تفسير التوحيد المنجي عند الله، فقصَروه على جزءٍ من المطلوب، أو فسّروه على خلاف ما في القرآن والسنة، أو جمعوا الأمرين، على نحو ما سيأتي بيانه.

وعلى هذا فمن قسّم التوحيد إلى نوعين أو أربعة أو أكثر لا ختلاف الاعتبار الذي قسم على أساسه فلا اعتراض عليه من جهة العدد، وإنما المقصود المعدود: هل هو مما بيّن القرآن والسنة صراحة أنه مما يختص الرب جل وعلا به؟

فلو قال قائل مثلاً: التوحيد قسمان، توحيد المعرفة والإثبات أو التوحيد العلميُّ الخبري، وتوحيد القصد والطلب، أو التوحيد الإرادي العملي باعتبار ما يجب على المكلفين، كان مصيباً في تقسيمه[2]؛ لأنه لم يهمل شيئاً مما يختص به الرب جل وعلا، وهكذا لو قال مثلاً: التوحيد أربعة أقساملم يختلف عن التقسيمين السابقين إلا بزيادة التفصيل الذي قد يستدعيه إهمال الناس شيئاً من حقائق التوحيد أو انحرافُهم في فهمه.

إذا تقرر هذا فإن من أخطر أنواع الخلل الذي وقع لدى بعض المسلمين في فهم التوحيد

---

(١) انظر: مناقشة من شغّب على هذا التقسيم في "صيانة الإنسان" للسهسواني [ت١٣٢٦] ص ٤٣٦ وما بعدها.

(٢) انظر هذا التقسيم في: "مدارج السالكين" لابن القيم ١/ ٢٤-٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٨٨.

الاكتفاءَ بجانبٍ واحد فقط من جوانب التوحيد وهو التوحيد العلمي الخبري، أو ما يسميه العلماء "توحيد الربوبية"، دون الجانب الآخر الذي هو توحيد العبادة، فيفسِّر التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون ونزلت به الكتب الإلهية بأنه اعتقاد أن الله وحده هو الخالق دون غيره، ويفسِّر كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" بأن معناها: لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله[1]، ثم يقف عند هذا القدر دون أن يضم إليه مقتضى هذا المعنى، ألا وهو وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة.

والدليل على قصور هذا المسلك في تفسير التوحيد وانحرافه أمران عظيمان:

١/ أن القرآن من أوله إلى آخره يؤكد على أن دعوة الأنبياء والمرسلين كانت إلى إفراد الله بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وذكر عن كل نبي أنه قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود:٥٠، ٦١، ٨٤]، وقال لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وعليهم وسلم: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف٤٥].

٢/ أن المشركين الذين خاصمهم النبي ﷺ وقاتلهم على الشرك قد صرح القرآن في مواضعَ كثيرةٍ أنهم كانوا يقرون لله تعالى بالخلق والرزق والتدبير، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، كما صرح القرآن أنهم إنما دخل عليهم الشرك من جهة التزلّف والتشفّع بعبادة غير الله تعالى ممن يعتقدون فيه علاقة خاصة مع الله إما ببنوة أو وجاهة أو غير ذلك مما يعتقدون أنه يستوجب قبول شفاعتهم، لا أنهم يعتقدون فيهم أنهم يخلقون ويرزقون، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن

(١) انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني ١/ ١٠٠.

يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٢-٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: ٤٤، ٤٣]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك. قال: فيقول رسول الله ﷺ: ويلكم، قد، قد. فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت(١).

وقد ترتب على هذا الانحراف في تفسير حقيقة التوحيد ما هو منتشر بين كثير من جهلة المسلمين من التعلق بغير الله تعالى وطلب الحوائج من المخلوقين الأموات والغائبين العاجزين والاستغاثة بهم حتى في حال الاضطرار!، مخالفين بذلك صريح قول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، ومنحدرين إلى أضلَّ من حال المشركين الذين كانوا يخلصون لله في الشدة ويشركون في الرخاء، كما ذكر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويزين لهم ذلك بعض المنتسبين إلى الفتوى والعلم من أهل البدع بأنه ليس من الشرك الذي وقع فيه أهل الجاهلية، بل هو من التوسل المشروع الذي يرجى معه قضاء حوائجهم، وأن شرك أهل الجاهلية إنما كان بادّعاء شريك مع الله في معاني الربوبية كالخلق والتدبير، أو بالعبادة المقرونة بهذا الاعتقاد، أما من أقر لله بالربوبية فلا يُتصور منه أن يقع في شيء من عبادة غير الله، ولو وقع منه ما ظاهره عبادة لغير الله؛ فإنه عندهم يُحمل على أنه مجرد توسل مشروع، ما دام أن فاعله لا يعتقد في مدعوّه ومستغاثه ومستعانه من دون الله الربوبية الذاتية، وهكذا فإنهم يحصرون الشرك في ادعاء شريك لله شراكة استقلال وندّية، أما شراكة هبة من الله لمن شاء من أحبابه وأوليائه فلا تدخل عندهم في حقيقة الشرك المناقض للتوحيد، ومن هنا سوّغ غلاتهم نسبة تدبير الكون لبعض الأولياء كما هو اعتقاد بعض الصوفية في الأقطاب والأوتاد

(١) صحيح مسلم ح: ١١٨٥، ومعنى (قد قد): حسبكم يكفى.

والنجباء[١]، وكما هو اعتقاد بعض الشيعة في الأئمة[٢]، وهكذا طابق توحيدُهم توحيدَ المشركين الذين كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وعبدوا من دون الله ممن يدعون لهم الولاية فدعوهم وذبحوا لهم، وقد تضافرت الأدلة التي تنهى عن ذلك، وتبين أنه من الشرك الذي حذر الله منه عباده، وليس هو من باب التوسل المشروع.

ومن الخلل الخطير في مفهوم التوحيد ما وقع فيه من يقر لله وحده بالكمال المطلق من كل وجه، ثم يفصّل هذا الكمال على وجهٍ مناقضٍ لما في الكتاب والسنة، وما أجمع على فهمه منهما سلفُ الأمة، من الصحابة والتابعين واتباعهم من أهل القرون المفضلةِ الموصوفة في الحديث النبوي بالخيرية[٣]، مع أن البديهة تقول: لا أحد أعلمُ من الله تعالى بصفات نفسه، ولا أحد من البشر أعلمُ بالله من رسوله ﷺ، فما وجه الاستدراك في باب الصفات الإلهية على الكتاب والسنة، وتقديم العقول المختلفة المتضاربة عليهما؟!.

لقد تفاوت الانحراف في الصفات الإلهية بين الطوائف المخالفة لما كان عليه سلفُ الأمة ما بين منكرٍ لجميع الأسماء والصفات كما هو مذهب غلاة الجهمية[٤]، ومقرٍّ بالأسماء الحسنى دون ما تدل عليه من حقائق صفات الكمال كما هو المشهور من مذهب المعتزلة[٥]، ومُقرٍّ بالأسماء وبعض الصفات الوجودية دون بعض كما هو مذهب الأشعرية ومن وافقهم[٦]،

---

(١) انظر مثلاً: "كرامات الأولياء" لأحمد الجوهري [ت١١٨١] ص ٦٦-٨٥.

(٢) كما في قول الخميني: إن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون. انظر كتابه "الحكومة الإسلامية" ص٥٢، نقلاً عن "دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين" للدكتور أحمد جلي، ص ١٩٩.

(٣) انظر صحيح البخاري: ٢/ ٩٣٨، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، حديث رقم ٢٥٠٨، صحيح مسلم: ٤/ ١٩٦٢، كتاب الفضائل، باب فضل الصحابة..، حديث رقم ٢٥٣٣.

(٤) اتباع جهم بن صفوان مبتدع مبدأ إنكار الصفات الإلهية في الملة الإسلامية، قُتل على الزندقة سنة ١٢٨هـ، انظر "اللباب في تهذيب الأنساب" لابن الأثير: ١/ ٣١٧، "لسان الميزان" لابن حجر: ٢/ ١٤٢، "الملل والنحل" للشهرستاني ١/ ٨٦.

(٥) انظر: "تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان" لعلي الفخري [عاش في القرن التاسع الهجري] ص ٨٣، ٨٤.

(٦) انظر: "شرح الصاوي على جوهرة التوحيد" (ص: ١٦٨).

وقابل هؤلاء جميعاً من خلط بين حقائق صفات الخالق وحقائق صفات المخلوقين كالحلولية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود[١] من غلاة الصوفية[٢] والشيعة[٣] ومن تأثر بهم.

وقد كان من أخطر الآثار السلبية لهذا الخوض بالباطل في الصفات الإلهية، سوى الكذب على الله تعالى وتبديل حقائق دينه الموحاة إلى أنبيائه ورسله، أن الخائضين انشغلوا وأشغلوا عن القصد الأصلي لذكر الصفات الإلهية في القرآن والسنة، ألا وهو التعرف على الله والتعبد له بمقتضاها تعظيماً وحباً وذلاً وتوكلاً وافتقاراً ورغبة ورهبة، وأوقعوا كثيراً من الناس فيما يقسّي القلوب من الجرأة على الخوض في الذات الإلهية، واستمراء البحث العقلي فيما يجب ويجوز ويمتنع عليها، وكأن الوحي لم يفِ بالغرض في هذا، هذا فضلاً عما أدت إليه بحوثهم من شق صفوف المسلمين وتعميق الخلاف المذهبي بينهم وطعن بعضهم في دين بعض.

(١) الحلول والاتحاد والوحدة تعبيرات متقاربة عن التصوف الفلسفي الذي يجعل حقيقة التوحيد نفي التكثر في الوجود، فيزعمون أن الله جل جلاله حلّ في مخلوقاته أو اتحد وامتزج بهم فأصبح الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢/ ٣١٩).

(٢) انظر "الفتوحات المكية" لمحيي الدين ابن عربي: (١/ ٢).

(٣) انظر: "أضواء على مسلك التوحيد، الدرزية" للدكتور سامي نسيب مكارم (ص: ٣٢، ٣٣).

المبحث الثاني

مفهوم الإيمان والكفر

ينتمي هذا المفهوم إلى باب دقيق من أبواب دراسة الاعتقاد يسمّيه المتخصصون "باب الأسماء والأحكام"(١)، ويعنون بالأسماء الألقابَ الشرعية نحو (مؤمن، مسلم، فاسق، منافق، كافر، مبتدع، مرتدّ)، ويعتنون بتحديد الضوابط الشرعية التي تجب مراعاتها عند إطلاق هذه الألقاب على المتلبسين بما يستوجب تسميتهم بها، ويعنون بالأحكام ما يترتب على هذه الأسماء من أحكام دنيوية وآخروية: كموالاة المؤمن، وعصمة دم المسلم وماله، والبراءة من الكافر، وقتل المرتد، وهجر المبتدع في الدنيا، وكخلود الكفار في النار دون عصاة المؤمنين.

والملامح العامة للرؤية الشرعية في هذا الباب تتلخص في أن من نطق بالشهادتين من الكفار قاصداً الدخول في الإسلام، ملتزماً بمقتضاهما، ولو ظاهرياً، فقد انعقد إسلامه، واكتسب الآثار المترتبة على هذا العقد من عصمة الدم والمال، كما دل على ذلك قوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١، ٥]، وقول النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**»(٢).

فإذا كان الناطق بالشهادتين منافقاً لم يُرِدْ سوى عصمةِ الدم والمال والتمتعِ بحقوق الأخوة الإسلامية حصّل ذلك ظاهراً في الدنيا؛ لأنه لا سبيل للمؤمنين إلى معرفة ما في قلبه، لكن إن افتُضِح بعد ذلك نفاقُه بكفر بواحٍ حقّ عليه حد الردة، وهذا الذي يسميه الفقهاء زنديقاً(٣)، أما في الآخرة فهو كما أخبر الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

---

(١) انظر مثلاً: "تعظيم قدر الصلاة" للمروزي [ت٢٩٤] ٢/ ٥٨٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/ ٤٦٨، والمواقف للإيجي الأشعري [ت٧٥٦] ٣/ ٥٢٧، و"شرح المقاصد في علم الكلام" للسعد التفتازاني الماتريدي [ت٧٩١] ٢/ ٢٤٦.

(٢) رواه البخاري ح: ٢٥، ومسلم ح: ٢١.

(٣) انظر: "غمز عيون البصائر" لابن النجيم الحنفي: ٢/ ١٩٢.

ومن الأدلة على ما ذكرنا حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بعثَنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة[١]، فصبّحْنا القومَ فهزمناهم، ولِحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشِيناه قال: لا إله إلا الله، فكفّ الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتلتُه، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺفقال: يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[٢].

ولما كان الحكم على معيّنٍ بالكفر بعد الإسلام والارتداد عن الدين يترتب عليه آثار غايةٌ في الخطورة، منها: حل دمه لولي الأمر الشرعي، وحرمته على زوجه، والمنع من التوارث معه، وانفساخ ولايته وانتقاض بيعته إن كان والياً[٣]، فقد جاء التشديد الأكيد بحق من تجرأ في إطلاق وصف الكفر على من لا يستحقه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء به أحدهما**»[٤].

ومن القواعد المؤكدة في هذا الباب أنه إذا ثبت وصف الإسلام لأحد بيقين فإنه لا يرتفع عنه إلا بيقين[٥].

وقد وقع الانحراف في مفهوم الكفر والإيمان مبكراً، حين خرجت طائفة من أهل البدع تطلق وصف الكفر على المسلمين بمجرد ما يعتقدون أنه معصية، وهم من عُرفوا في التاريخ الإسلامي باسم "الخوارج"[٦]، وكان أولَ ضحايا تكفيرِهم الجائرِ كبارُ الصحابة في زمانهم كعثمان وعلي وعائشة وأبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية وغيرهم ممن وقع

---

(١) قبيلة من جهينة.

(٢) رواه البخاري ح: ٤٠٣١، ومسلم ح: ٩٦.

(٣) انظر عن آثار الحكم بالردة: "المغني" لابن قدامة: ٦/ ٢٥٠.

(٤) رواه البخاري ح: ٥٧٥٢، ومسلم ح: ٦٠.

(٥) انظر: مجموع الفتاوي " ١٢ / ٥٠١، و"فتح الباري" ١٢/ ٣٠١.

(٦) انظر عنهم "مقالات الإسلاميين" للأشعري [ت٣٢٤] ص ٨٦ وما بعدها، "الفرق بين الفرق" للبغدادي [ت٤٢٩] ص ٥٤ وما بعدها، "الفصل" لابن حزم [ت٥٤٨] ٤/ ١٤٤-١٤٦، "الملل والنحل" للشهرستاني [ت٥٤٨] ١/ ١١٤ وما بعدها، "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" للرازي [ت٦٠٦] ص ٤٦-٥١.

بينهم قتال الفتنة المشهور، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين[١]، فقد اتهموهم بالكفر لاعتقادهم أنهم حكموا بغير ما أنزل الله، وأنهم ظلموا واقتتلوا[٢].

وزعم الخوارج أن الحاكم الجائر يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأن الآية تشمل كذلك من حكّم الرجال مطلقاً، كما فعل علي ومعاوية، والحق أن الآية عامة تتناول الكفرين الأكبر والأصغر بحسب حال الحاكم[٣]، وفي الحاكم غير الملتزم بالشرع أصلاً المعرض له، المستبدل بشريعة الله غيرها، فهذا الذي كفره أكبرُ مخرجٌ من الملة، أما حكامُ الجَور الملتزمون بشرع الله في الأصل فالكفر في حقهم أصغرُ إذا تعمدوا الجور في حكمٍ ما[٤]، كما بين ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بقوله في معنى الآية: «كفر دون كفر»[٥].

واحتج عليهم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ندب حكام يجتهدون في تحري الصلح بين المؤمنين حال الفتنة بقوله تعالى في الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥][٦]، فالإصلاح بين أمة محمد ﷺ أولى، وكذا يدل على ذلك الحكمان المذكوران في جزاء قتل الصيد للمحرم، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، بل إن وقوع الاقتتال بين المؤمنين نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠، ٩]، فلم يمنع اقتتالهم من تسميتهم مؤمنين إخوة.

---

(١) ومن الأخطاء الشائعة اعتبار قتال الجمل وصفين بين علي ومخالفيه من باب قتال أهل البغي المأمور به، والصواب الذي عليه الجمهور أنه قتال فتنة القاعد فيه خير من القائم. انظر "منهاج السنة" لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٥٠١-٥٠٤.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر ٢٣/ ٣٢١-٣٢٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٤٨٢، ١٩/ ٨٩.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢.

(٤) انظر "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي ١/ ٤٠٧، ٤٠٨.

(٥) رواه الطبري في تفسيره ٦/ ٢٥٦.

(٦) انظر: مسند الإمام أحمد ١/ ٨٦.

وتبع الخوارجَ على هذا الغلو المعتزلةُ، إلا أنهم لم يتجاسروا على إطلاق الكفر على صاحب الكبيرة، فابتدعوا المنزلة بين المنزلتين، فأخرجوه من الإيمان ولم يدخلوه في الكفر، لكنه في الآخرة مخلد في النار مع الكافرين لعدم تلك المنزلة هنالك![1]، موافقة منهم للخوارج فخالفوهم في الاسم ووافقوهم في الحكم الأخروي.

والحامل للخوارج على تكفير المسلمين بمجرد كبائر الذنوب التي دون الكفر الصريح أنهم اعتبروا حقيقة الإيمان المقابلة للكفر هي الإتيان بجميع فرائض الإسلام واجتناب جميع نواهيه، فمن أخل بشيء من ذلك انهدم إيمانه فصار من الكافرين[2].

وقابل الخوارجَ والمعتزلةَ طائفةٌ أخرى، انزعجوا من تكفير عصاة المسلمين غاية الانزعاج، لكنهم راحوا يداوون هذا الخلل بخلل آخر، وهو أنهم أخرجوا الأعمال من حقيقة الإيمان ومسماه، وأنكروا تبعاً لذلك قابلية الإيمان للزيادة والنقصان والتجزؤ والتبعض، واعتبروا ذلك حلّا جذرياً وحاسماً لمشكلة تكفير عصاة المسلمين، وهذه الطائفة هم من عُرفوا بالمرجئة[3]، سُمّوا بذلك لإرجائهم العمل عن مسمى الإيمان، والإرجاء في اللغة التأخير، ومنه قول الملأ لفرعون: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، أي أخّرهما وأجّلهما، يعنون موسى وهارون. وموطن الخلل في فهم المرجئة لحقيقة الإيمان يكمن في أمور:

أ / مخالفتهم لمدلول النصوص المصرحة بازدياد الإيمان ودخول العمل في حقيقته[4]، كقوله تعالى: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤] وما في معناه، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي صلاتكم إلى بيت المقدس[5]، وقولِه ﷺ: «**الإيمان بضع وستون**

(١) انظر: "مقالات الإسلاميين" للأشعري ص٢٧٠، "شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار بن أحمد [ت٤١٥] ص ٦٦٦، ٧٠١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٧/ ٤٨.

(٣) انظر عنهم: "مقالات الإسلاميين" للأشعري ص ١٣٢ وما بعدها، "الفرق بين الفرق" للبغدادي ص ١٩٠-١٩٥، "الملل والنحل" للشهرستاني ١/ ١٣٩.

(٤) انظر هذه النصوص في "تعظيم قدر الصلاة" للمروزي [ت٢٩٤] ١/ ٣٩٩ وما بعدها.

(٥) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الإيمان، باب: الصلاة من الإيمان، و رواه أبوداود الطيالسي في مسنده ح: ٧٢٢، والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة" ١/ ٣٤٢-٣٤٤ عن البراء بن عازب وغيره من السلف، وذكر البيهقي في "شعب الإيمان" ١/ ٤٤ إجماع المفسرين على ذلك.

– وفي رواية: **وسبعون ـ شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[١].

ب/ مخالفتهم إجماعَ السلف على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، وقد حكى هذا الإجماع الإمام الشافعي وأحمد وابن عبد البر وغيرهم.

ج / موافقتهم الخوارجَ والمعتزلة في اعتبار الإيمان حقيقة واحدة غير قابلة للتجزئة والتبعيض والزيادة والنقصان، لكن أولئك جعلوه يذهب بذهاب بعضه، وهؤلاء جعلوه لا يتأثر ولا ينخدش مهما أخل صاحبه بالفرائض العملية وغشي الكبائر!.

وكما ترتب على بدعة الخوارج قديماً وحديثًا التجني على المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، فقد ترتب على بدعة المرجئة استهانة العصاة بحدود الله، والاستخفاف بفرائض الإسلام وشرائعه.

والحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة، أن الإيمان قول وعمل باللسان والقلب والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يزول بالكلية إلا بالنواقض التي جاء التصريح في الأدلة بأنها تنافي الإيمان من أساسه، مثل الشرك الأكبر في العبادة أو في الربوبية، ومثل الاستهزاء بالله وكتابه ورسوله، ومثل استحلال ما حرّم الله، وإنكار معلوم من الدين بالضرورة، علماً كان أو عملاً، كأركان الإيمان الستة، وكوجوب التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، وكوجوب موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وكفرضية الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان، وكتحريم الربا والزنا والميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح ونحو ذلك.

ويجدر هنا التنبيه إلى الفرق الكبير بين قول الخوارج قديماً بكفر مرتكب الكبيرة مطلقاً، وبين تأول بعض العلماء في إلحاق بعض الكبائر بنواقض الإيمان الصريحة؛ اجتهاداً منهم في فهم عمومات النصوص، مع ورود الدليل الخاص المرجح لخلاف قولهم، فلا يجوز اعتبار اجتهادهم خللاً عقدياً كحال الخوارج، وإن ترتب على اجتهادهم أحياناً بعض المفاسد العملية؛ فباب الرد عليهم والتنبيه على مجانبتهم الصوابَ في اجتهادهم أوسع من رميهم بالزيغ والابتداع.

---

(١) رواه البخاري ح: ٩، ومسلم ح: ٣٥.

كما يجدر التنبيه أيضاً إلى الفرق الكبير بين قول المرجئة بخروج العمل من مسمى الإيمان، ونفي الكفر العملي مطلقاً تبعاً لذلك، وبين اشتراط الاعتقاد أو الاستحلال في بعض نواقض الإيمان لدليل معين.

ومن الخلل العظيم الواقع في باب التكفير عدم التفريق بين ما كثر وروده في الكتاب والسنة وعلى ألسنة العلماء من الحكم بالكفر والفسق والبدعة على الوصف المستحق لهذا الحكم، كأن يقال: من استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر، ومن أكل الربا فهو فاسق، ومن أول الصفات الإلهية على غير منهج السلف فهو مبتدع، وبين الحكم على المعين بهذه الأحكام؛ فإن بين الأمرين فارقاً عظيماً يترتب على إهماله مفاسد جمة، فالأول جاء من باب الزجر والنصيحة والتحذير والوعيد الأخروي، وهو الذي ينبغي أن يكون في خطاب من يدعو إلى الله، على أن يُضَم إليه خِطابُ الترغيب والرفق كما هي طريقة القرآن، والثاني لا يُصار إليه إلا عند توفر شروطه وانتفاء موانعه، فهنا لا يُحكم بردته عن الإسلام إلا بثلاثة شروط:

١- قيام الدليل القاطع على أن ما ارتكبه ناقض من نواقض الإسلام.

٢- قيام الحجة الشرعية عليه.

٣- انتفاء موانع التكفير عنه، وهي الجهل والتأول والإكراه[١].

وهذا الأمر الخطير لا يحكم فيه إلا أهل الرسوخ في العلم الذين يعرفون الأحكام ومآلاتها ومناطها وما يترتب عليها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين؛ لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين وولاتهم وعامتهم لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ؛ وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر، ولا يفسق؛ بل ولا يأثم؛ فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: قد فعلت»[٢]

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ١٢٥)، (٢٣ / ٣٤٦)، (٣٥ / ١٦٥)، والإيمان الأوسط ص١٥١.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥ / ١٠٠) والحديث أخرجه مسلم ح: ٣٤٥.

ومن التفصيل السابق يتبين أن التكفير حكم شرعي له ضوابطه، لا يجوز ذمه مطلقاً، كما لا يجوز الاجتراء عليه إلا ببينة كالشمس في رابعة النهار، كما قال النبي ﷺ فيما رواه جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا: أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به سمعتَه من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال: (فيما أخذ علينا أن بايعَنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله: إلا أن ترو كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)(١).

وقد غلط فيه طائفتان:

إحداهما: رأت أن المعين لا يكفر أبداً، فأغلقت باب الردة بدعوى صعوبة التطبيق على المعين، لوضعها شروطاً من عندها يمتنع عندها تطبيقها على المعين، بل تجاسر بعضهم بنفي الكفر حتى عن اليهود والنصارى ومن شاكلهم.

وغلت ثانية فقالت: إذا وجد الحكم العام على فعل من الأعمال أنه كفر دخل فيه جميع الأفراد ممن وقع منهم هذا الفعل المكفِّر، وكفَّروا بأعيانهم، دون النظر إلى كل فرد على حده من حيث توفر الشروط وانتفاء الموانع.

ووفق الله تعالى أهل السنة والجماعة إلى الحق الذي دلت عليه الدلائل الشرعية فإنهم لم يقولوا: إن المعيّن لا يكفر أبداً، كما أنهم لم يوقعوا التكفير على من فعل المكفر دون النظر إلى عوارض الأهلية.

(١) رواه البخاري ح: ٦٦٤٧، ومسلم ح: ١٧٠٩.

المبحث الثالث

مفهوم العبادة

يرجع معنى العبودية إلى ما يقابل الحرية من فقدان الملكية للذات وحق التصرف فيها، وهذا ما ينطبق على العبد المملوك الرقيق، ولا شك أن هذا القدر من العبودية الذي كان جارياً بين المخلوقين ملازم للذل، كما قد يشوبه شيء من الحب من العبد لسيده إذا كان محسناً إليه، كما كان بين النبي ﷺ وبين مولاه زيد بن حارثة وابنه أسامة، الذي كان يُسَمَّى حِبَّه وابنَ حِبِّه[(١)]، لكن لا تصير العبودية عبودية تألُّهٍ إلا ببلوغ الحب غايتَه وانضمامِ كمال الذل إليه، فإذا اجتمع كمال الحب مع كمال الذل صار ذلك تألهًا[(٢)]، ومن صرف ذلك لغير الله فقد اتخذه إلهاً مع الله، ولو لم يعتقد فيه الربوبية المطلقة، لكن من جمع الحب مع الذل لغير الله فإنه لا ينفك من اعتقاد قدر من الجلال والكمال والإفضال في محبوبه ومرهوبه؛ وتلك من معاني الربوبية دون شك.

وقد شرع الله لنا كثيراً من الشعائر غيرِ واضحة العلة كأوقات الصلوات وعدد ركعاتها، وأشواط الطواف، وحصيات الجمار، وصفة الوضوء والغُسل وكثيرٍ من أحكام العبادات التي يذكر الفقهاء أن الحكمة فيها تعبدية، وما ذلك إلا لتتجلى العبودية في التسليم لأمر الله والخضوع لقضائه الشرعي؛ إذ لو لم يكن الخضوع للأمر الشرعي مبنياً إلا على حكمة معقولة المعنى لم تتجلَّ عبودية الابتلاء التي خلق الله المكلفين لأجلها؛ فإن خضوع الإنسان لما يَعلم فيه تحقيق المصلحة ودرء المفسدة الدنيويتين أمر لا يتميز فيه المؤمن من الكافر، فإذا جاء حكم شرعي ليس له حكمة ظاهرة سوى إظهار الذل والخضوع لأمر الله والتعبد إليه بامتثال أمره طلباً لمرضاته ظهر هنالك على الحقيقة صدق الإيمان، بل إنه من أجل هذه الحكمة الكلية يأتي أحياناً الحكم الشرعي غير ظاهر الحكمة، كما في قصة ذبح إسماعيل عليه السلام، وقد قال الله فيها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وكما في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقد قال الخضر في آخرها: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، وكما في محاسبة

---

(١) انظر: صحيح البخاري: ٣/ ١٣٦٦، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد، حديث رقم ٣٥٢٦، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ١٢٥.

(٢) انظر: "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ٣١، مجموع الفتاوى له ١٠/ ١٥٣.

الناس على ما يكتمونه من الخواطر مع أنها خارج قدرتهم، فأنزل الله في شأن ذلك: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فمن لم يراعِ هذه الحكمة دخل في السفهاء المذكورين في الآية، وقد جاء بعدها ما يؤكد هذا في قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكما تدخل هذه الحكمة في الأحكام العملية، تدخل كذلك في الأخبار المستغربة المستبعدة؛ فإن العبد لو لم يصدّق إلا ما سوّغه عقله بموازين الخلق لم تتجلّ عبوديته في قبول أخبار الرسول، لذلك جاء الرسل بكثير من الأخبار المحيّرة للعقول، امتحاناً وابتلاء وتمحيصاً لرسوخها في الإيمان، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، يعني في آيات الله ما هو أعجب من خبرهم(١).

فإذا تقرر مما سبق حقيقة معنى العبودية لله تعالى، وأن مبناها على الجمع بين الحب والذل ظهر أن عبادة الله تعالى لا تتجلى في الشعائر والفرائض وحسب، بل إنها تشمل كل ما تؤثّر فيه هذه الحقيقة من حياة الإنسان، فكل تصوراته وتصرفاته، إذا كانت خاضعة لهذه الحقيقة فإنها مشمولة باسم العبادة، فكل حياة المؤمن إذن عبادة لله، بالمعنى الواسع للعبادة، وهو محبة الله تعالى والخضوع التام لأمره.

وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فجعل الحياة كلها لله وحده.

كما دل عليه ما رواه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تَصَدّقون، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٩٧.

أجرا)[١]، فهم لما توهموا أن القربة التي يكون عليها أجر وثواب تنحصر في شعائر الصلاة والصيام والصدقة صحح لهم النبي ﷺ هذا الفهم، وبين لهم أن العبادة التي يُطلب بها الأجر أوسع مما توهموا بكثير، فهي تتسع لكل«ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة»[٢]، ولو لم يكن متعبَّدا بصفته وهيئته كالشعائر، بل تكفي فيه النية الصالحة، حتى لو كان من قبيل الشؤون العامة التي لا تختص بالعبد وعلاقته بربه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى ما يوافق شهوة العبد ورغبته من المأكل والمشرب والمنكح إذا كان مراعياً في ذلك ما شرع الله، مبتغيا ثواب الله.

وبهذا نعلم أن ما عليه فهم كثير من الناس اليوم من حصر عبادة الله في الشعائر الظاهرة والمواسم المحدودة مخالف للمعنى الصحيح لحقيقة العبودية في الإسلام، كما أن من يسعى لجعل المجتمعات الإسلامية مجتمعاتٍ علمانيةً لا تستظل بالشرع في جميع شؤونها الدنيوية هو في الحقيقة مصادم لصلب العقيدة الإسلامية التي لا تبقي قدراً من حياة المسلم خارج إطار العبودية لله وحده.

(١) رواه مسلم في صحيحه ح: ١٠٠٦.

(٢) هذا هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة كما في رسالته "العبودية" ضمن مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٩.

المبحث الرابع

مفهوم القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وهو داخل في الإيمان بالله من جهة أن معناه الإيمان بقدرة الله تعالى على أفعال العباد الاختيارية، وأن كل ما يأتون أو يذرون فقد سبق به علم الله تعالى، ومع ذلك فهو لا يخرج عن عموم مشيئة الله تعالى وخلقه كلَّ شيء، فلا يحدث شيء في ملكوت السموات والأرض رغماً عن الله تعالى، وإنما يحصل بإذنه الكوني. ومع أن هذا المعنى داخل في الإيمان بكمال قدرة الله ونفاذ مشيئته إلا أنه أُفرد ذِكرُه ضمن أصول الإيمان وأركانه[١] لكثرة ما لبّس الشيطان فيه على الناس.

والذين ضلوا في هذا الباب إنما ضلوا لما عارضوا بين مقتضى الحكمة والعدل الإلهي، وبين مقتضى القدرة والمشيئة والملك، فمن غلّب الأولى أفضى به الأمر إلى إنكار القدر السابق، متوهماً أنه يلزم منه ارتفاع مسؤولية العباد عن أفعالهم الاختيارية، فيكون حسابهم وعقابهم إذن ظُلماً، ومن غلّب الثانية أفضى به الأمر إلى إنكار حقيقة الحكمة والعدل الإلهي، متوهماً أن هذا مقتضى الربوبية المطلقة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والحق الذي جاء به الأنبياء يجمع ما عند الطائفتين من الحق، ويراعي مقتضى صفات الله جميعاً، فالإنسان له قدرة وإرادة حقيقيتان مؤثِّرتان، لكنهما من خلق الله، ولا تخرجان عن مشيئته العامة وقدرته التامة[٢].

وإذا كان هذا الانحراف باتجاهيه وقع غالباً لدى المشتغلين بالعلم، فإن لوناً آخر من الانحراف في فهم عقيدة القضاء والقدر تفَشّى بين كثير من عامة المسلمين، وذلك حين فهموا أن مقتضى هذه العقيدة الاستسلامُ للواقع ولو كان سيئاً، وعدمُ السعي في تغييره والتقاعس عن العمل وإيثار السلبية، وأن ذلك من الرضا بأقدار الله المأمورِ بها شرعاً، ولم يدركوا الفرق بين الرضا عن التقدير الذي هو علم الرب وكتابته ومشيئته وخلقه للمقدور، وبين المقدور الذي هو مخلوق مُراد للرب تكويناً لا ديناً، فالأول وصف الرب وفعله، يجب الرضا به على كل حال، والآخر لا يجوز الرضا عنه إلا في المصائب دون المعائب، ويجب السعي في تغييره،

---

(١) تقدم الكلام عن هذا الركن وأدلته ومراتبه في المقرر الأول للثقافة الإسلامية.

(٢) انظر: "شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي ص ٤٩٤.

وهذا السعي من قدر الله[١]؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[٢]، فالعجز والكسل والاستسلام والوهن ليس من صفات المؤمن الذي له الخيرية عند الله.

ولهذا لما وقع الطاعون بالشام زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، امتنع من دخولها، فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفِراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا، له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟[٣].

ولما قال النبي ﷺ: «**ما منكم أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**». قال له الصحابة: يا رسول الله، ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآيات [الليل: ٥-١٠][٤].

(١) انظر: المرجع نفسه ص ٢٨٧.

(٢) أخرجه مسلم ح: ٦٩٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ح: ٥٣٩٧، ومسلم ح: ٢٢١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ح: ٤٦٦٦، ومسلم ح: ٢٦٤٧.

المبحث الخامس

مفهوم التوكل

التوكل على الله تعالى من أعظم العبادات القلبية، ومن أجل حقائق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فأصله شرط لصحة الإيمان، وكماله شرط لكمال الإيمان(١)، ولذا قيل أن التوكل نصف الدين، ونصفه الثاني العبادة؛ لأن الدين استعانة وعبادة، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقد ورد التوكل في كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ -٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

وجاء في الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربهم يتوكلون)(٢). وقد جاء في الترمذي وابن ماجة عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً، وتروح بطاناً**»(٣).

وحقيقة التوكل: الاعتماد على الله عز وجل وحده في جلب المنافع ودفع المضار، والثقة بكفايته، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به، مع فعل الأسباب المأذون فيها من غير اعتماد عليها ولا ركون إليها؛ فخالق الأسباب ومسببها هو الله وحده. فلا ينفعه قوله: (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء.

وقد وقع الانحراف في هذا العمل العظيم من أعمال القلوب، وكان له أثر سيئ على

---

(١) انظر: "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزي الكلبي: ١/ ١٢٢.

(٢) رواه البخاري ح: ٥٧٠٥، ومسلم ح: ٥٤٦.

(٣) رواه الترمذي ح: ٢٣٤٤، وقال حسن صحيح وصححه الألباني.

بعض أبناء الأمة في عجزهم وضعفهم، أو تعلقهم بغيرهم تعلقاً أورثهم خوراً وذلاً، أو تركهم لما يجب الأخذ به من أسباب القوة والعزة.. وكان للفكر الصوفي المنحرف، وظهور الفِرَق: أكبر الأثر في انتشار هذه المظاهر من الانحراف، يضاف إلى ذلك: ما ساهم به الغزو الفكري لهذه الأمة من نشر للمذاهب المادية، التي لا تربط النتائج إلا بالمادة المحسوسة، وتلغي جانب الغيب والإيمان بالله عز وجل وقضائه وقدره وملكه وقهره وعظمته...

وما كان لهذه الأفكار كلها أن تؤثر لو كان العلم وفهم العقيدة الصحيحة منتشراً بين الأمة، ولكن لما وافق هذا جهلاً عند بعض المسلمين بحقيقة هذا الدين وأصوله: نشأ من ذلك بعض المفاهيم الخاطئة للتوكل كما نشأ الضعف في التطبيق لهذه العبادة العظيمة من ذلك ما يلي:

أولاً: النظر إلى التوكل على أنه تواكل وترك للأسباب:

والذين وقعوا في هذا الانحراف على صنفين:

أ/ صنف يسوغ عجزه وكسله وتفريطه على أنه توكل مع علمه التام أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب والأمر واضح عنده بلا شبهة، ولكنه ينطلق من هذا الفهم المنحرف في تسويغ عجزه، فهذا عجزه توكل، وتوكله عجز، وهذا الصنف من الناس لا ينقصه إلا أن يتقي الله عز وجل، ولا يسوغ شهوته بشبهة، وفي ذلك يقول ابن القيم: (وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب: المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص. ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل على عدم الراحة...)[1].

ب/ أما الصنف الثاني: وفهم قوم أن التوكل يتطلب ترك الأخذ بالأسباب، فقد أُتي من جهله بحقيقة التوكل على الله عزَّ وجل، وجهله بسنن الله سبحانه وتعالى في ارتباط المسببات بالأسباب، حتى روج بعض المتصوفة أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله، بل وصل الحال ببعضهم إلى ترك العمل والاكتساب بدعوى التوكل على الله، ولو كان هذا الفهم صحيحاً لكان أولى الناس بتطبيقه سيد المتوكلين، فقد كان عمل النبي ﷺ كله قائماً على اتخاذ الأسباب مع التوكل الكامل على الله، فاتخذ للنصر أسباباً، واتخذ الأدوية لنفسه ولغيره، واتخذ الأسباب الكريمة لعيشه، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن توكل الرسول وصحابته الكرام مع أخذهم بالأسباب: (... وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا

(١) مدارج السالكين، ٢/ ١٢٣، ١٢٤.

سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وجميعُ أصحابه، وهم أولو التوكل حقّاً... فكانت هممهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي؛ فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله)[١].

وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧][٢]، ورُوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أعقُلُها وأتوكل، أو أُطلِقُها وأتوكل؟ - يعني ناقته -، قال: اعقلها وتوكل[٣]. وتواتر عن النبي ﷺ أنه كان يأخذ بالأسباب، كاتخاذه دليلاً في الهجرة، واختبائه في الغار، وأعماله وأوامره العسكرية يوم بدر، ومظاهرته بين درعين يوم أحد، وحفره الخندق يوم الأحزاب، واتخاذه جميع الأسباب الشرعية والمادية للنصر في جميع غزواته، وهو أكمل الخلق توكلاً، عليه الصلاة والسلام[٤].

ولا يكون التوكل شرعياً إلا إذا أخذ بالأسباب المادية المألوفة وإلا فهو تواكل، وقد قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤ - ٨٥]، قال السعدي: «أي أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها أي استعملها على وجهها؛ فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمعت القدرة على السبب الحقيقي والعمل به حصل المقصود وإن عدما أو أحدهما لم يحصل»[٥].

فإن هذا الانحراف في مفهوم التوكل والأخذ بالأسباب ومعرفتها أضعف التفكير

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ح: ١٤٢.

(٣) رواه الترمذي في سننه ح: ٢٥١٧ وابن حبان في صحيحه ح: ٧٣١، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع الصغير وزيادته": ح: ١٠٦٨.

(٤) انظر مثلاً عن أخذه بالأسباب في تدابير الحرب: "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن القيم: ٣/ ٩٥ وما بعدها.

(٥) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥.

العلمي عند كثير من المسلمين، وتوقفوا عن السير في كشف سنن الكون، فأهملت العلوم وفقد الإبداع العلمي الذي عرف به المسلمون في القرون الأولى للإسلام في شتى مجالات العلوم الدينية والدنيوية، وانتشرت الأمية في كثير من ربوع العالم الإسلامي، وتخلفت الصناعة، وأصبحت السيادة لأهل الدجل والأساطير والخرافة، وأصحبنا لا نرى تعلم علوم الصناعة والزراعة والطب ونحوها عبادة بها يكون صلاح الدنيا وقوة الأمة؛ ولذا فإن الأخذ بالأسباب، بضوابطها الموضحة سابقاً، لا ينافي التوكل، بل إن تركها قدح في حكمة الله عزَّ وجل، ونقص في العقل، وما علم صاحب هذا الفهم أن التوكل عليه سبحانه وتعالى هو أقوى الأسباب في حصول المطلوب ودفع المكروه، يقول الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن تحقيق التوكل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدّر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكّل، فالسّعيُ في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له، والتوكل بالقلب عليه إيمانٌ به، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ [النساء: ٧١]»(١).

ثانياً: الاعتماد الكلي على الأسباب: ويقابل الانحرافَ السابق انحرافٌ في الجانب المقابل، ألا وهو الاعتماد على فعل الأسباب والتعلق بها محبةً وخوفاً ورجاء، وتعليق تحقيق الأمور عليها، ومعلوم ما في هذا الانحراف من خطر شديد على التوحيد، فهو إما شرك أكبر: إذا اعتقد فاعل الأسباب أنها تؤثر استقلالاً، وإما شرك أصغر: إذا لم يعتقد ذلك، ولكنه تعلق بها وحابى من أجلها، وجعل أكثر اعتماده عليها في حصول المطلوب وزوال المكروه؛ ولذا كثر في المجتمعات الإسلامية الركون إلى الأسباب دون النظر إلى مسبِّب الأسباب القوي العزيز، الفعال لما يريد، الغالب على أمره، فركن بعض الموظفين في رزقه على وظيفته، وأصبح يحابي في دينه من أجل المحافظة عليها، وركن بعض التجار في طلبه المال إلى الأسباب التي يبذلها، وظن بعض الناس أن الأمة لن تنصر إلا إذا ما ملكت جميع الأسباب التي يمتلكها العدو، فأورث ذلك ذلا وخوراً وهلعاً وتبعية وضعفاً؛ لأننا لم نأوي إلى ركن شديد، لأن الوسائل وإن ضعفت فهي مع التوكل على الله قوية، والوسائل وإن قويت فهي بدون التوكل على الله ضعيفة، قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٩٨..

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٨]؛ لهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، وقال تعالى في الآية الأخرى التي تدل على قوة الأسباب: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥ – ٢٦].

وهذا الضعف القادح في التوكل على الله سبحانه وتعالى عند كثير من الناس، وهم ما بين مُقِلٍّ ومكثر، أورث في الأمة ضعفاً وخوراً، وأفقد كثيراً من الجهود بركة وتوفيقاً.

المبحث السادس

مفهوم الزهد

يرجع معنى الزهد إلى القلة وعدم الرغبة، يقال: زهد في الشيء، وزهد عنه، أي لم يرغب فيه[١]، ومنه الزهد في الدنيا المأمورُ به شرعاً في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله ﷺ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[٢].

والزهد في الدنيا لذاته غير مشروع ولا يجوز، وإنما المراد الزهد في الدنيا المانعة من إرادة الله والدار الآخرة، وهو الذي كان عليه النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه من التبسط في الدنيا وعدم التوسع في متاعها، فالزهد بهذا المعنى خصلة شريفة ومرتبة سامية من مراتب الإيمان، إلا أن الخلل قد دخل على كثير من المسلمين في فهمه من جهة تصور أن الزهد لا يمكن أن يجتمع مع الاهتمام بأمور الدنيا ونيل متاعها الزائل وزينتها الفانية، فإما أن يؤثر العبد الآخرة ويعرض عن الدنيا تماما، وإما أن يعتني بدنياه على حساب دينه وآخرته.

وقد دلت على انحراف هذا التصور أدلة كثيرة من القرآن والسنة تؤكد على أن الزهد المعتبر شرعاً لا يكون بالإعراض الكلي عن الدنيا، وإنما يكون بالأخذ بما يحتاج إليه ويشتهيه المرء من متاعها المباح على وجه الاقتصاد، مع الحذر من الافتتان بها والركون إليها. ومن تلك الأدلة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢٩]، وما ذكره الله تعالى من قول قوم قارون له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨، ٨٧]، وما في معناها من الآيات التي فيها الأمر بالأكل من الطيبات.

وما رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار

---

(١) انظر: "لسان العرب" ٣/ ١٩٦-١٩٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ح: ٦٠٥٣.

سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كل فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان آخرُ الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: صدق سلمان)[١]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[٢].

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إلي رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته وهو يتوضأ فصعّد فيَّ النظر ثم طأطأه فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلّمُك الله ويُغنمُك، وأزعب لك من المال زَعبة[٣] صالحة. قال: قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال: يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح[٤].

وفي معنى هذا الحديث النصوص التي تحث على الجهاد بالغنائم الدنيوية وأنها منة من الله تعالى ومن الرزق الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقوله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم**»[٥]، وما في معناه، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقرَ إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله ﷺ: «**خذه، وما جاءك من**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ح: ٥٧٨٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٣/ ١٢٨، والنسائي في السنن الصغرى ح: ٣٩٣٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣١٢٤.

(٣) أي أدفع لك دفعة من المال، وأصل الزعب الدفع، انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٣٠٢، مادة زعب.

(٤) رواه أحمد في مسنده: ٤/ ١٩٧، وابن حبان في صحيحه: ٨/ ٧، حديث رقم ٣٢١٠، والبخاري في الأدب المفرد: ١/ ١١٢، حديث رقم ٢٩٩، وقال محققو المسند (٢٩/ ٢٩٩): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) رواه البخاري في صحيحه ح: ٤٢٧، ومسلم ح: ٥٢١.

هذا المال وأنت غيرُ مشرف ولا سائل فخذه، ومالا فلا تُتْبِعْه نفسك»[١].

والأدلة على ذلك كثيرة لا تدخل تحت حصر، تشهد بأن الأخذ بما أحله الله من متاع الدنيا لا منقصة فيه، ولا مذمة إذا كان من غير سرف ولا مَخِيلة، ولم يكن ذلك بوجه حرام، وجماع ذلك في دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك القصد في الفقر والغنى**»[٢]، فلم يسأل الفقر، بل ثبت أنه استعاذ منه[٣]، وإنما سأل القصد، وهو القَوام المذكور في قوله تعالى عن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، كما ثبت عنه ﷺ أنه سأل الله الغنى فقال: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»[٤]. فالحاصل أن الشرع أرشد إلى التوفيق بين مطالب الدارين، ودعا إلى الموازنة بين متعلقاتهما، فلم يزهّد في الدنيا مطلقاً، بل أباح الاستمتاع بطيباتها، والأخذ بأسباب القوة والعيش فيها، وإنما حذر من تعلق القلب بها واطمئنانه إليها حتى كأنه لا يرتقب الآخرة، على حد قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أحرز لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[٥].

وقد أدت المفاهيم الخاطئة في مفهوم الزهد إلى ظهور أفكار ودعوات مضلة؛ من ذلك الدعوة إلى التزهيد في جمع المال مع الإشادة بالفقر، وترك العمل والمناصب الإدارية مع الانصراف إلى العبادة بمفهومها الضيق، حتى كثرت نتيجة ذلك العطالة والبطالة في مجتمعات المسلمين، وانتشر الفقر والحاجة حتى أورثوا الأمة بلاء وضعفا، جهلاً منهم بمبدأ الإسلام الذي يدعو إلى إيثار الآخرة على الدنيا، والعمل في الدنيا على أساس أن الحياة الآخرة هي الغاية، وأن الدنيا وما فيها لا تقصد لذاتها ولا تكون هدفاً أو غاية إنما هي وسيلة، وأن السعي لكسب الرزق وتحصيل المال مطلوب لكف النفس عن السؤال، وسد حاجة العيال، ونفع العباد، ونصرة الإسلام، والتقرب إلى الله من خلال الإنفاق، فهو قوام الحياة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ح: ١٤٠٤، ومسلم ح: ١٠٤٥.

(٢) رواه النسائي في السنن الصغرى ح: ١٣٠٥، وابن حبان في صحيحه ح: ١٩٧١، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح: ١٣٠١.

(٣) انظر سنن أبي داود ح: ١٥٤٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح برقم ١٢٨٧.

(٤) رواه مسلم ح: ٢٧٢١.

(٥) رواه الحارث في مسنده كما في المطالب العالية لابن حجر: ١٣/ ٣١٤.

وقد أوضح العلماء أن المقصود من ذم الدنيا الوارد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ليس ذماً لذاتها، وإنما هو تحذير من الانشغال القلبي بها؛ بأن يجعلها المؤمن غاية يسعى إليها بكل إمكاناته، ناسياً غايته الأساسية، وهي الفوز برضا الله تعالى، فنعمت الدنيا مطية المؤمن ووسيلة إلى التقرب إلى الله تعالى، وبئست الدنيا إذا كانت معبوده. وفي هذا المعنى قال العلامة المناوي رحمه الله: (فالدنيا لا تُذَمّ لذاتها فإنها مزرعة الآخرة، فمن أخذ منها مراعياً للقوانين الشرعية أعانته على آخرته، ومن ثَمَّةَ قيل: لا تركن إلى الدنيا، فإنها لا تبقي على أحد، ولا تتركها فإن الآخرة لا تنال إلا بها)(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلا حمد على ترك الدنيا لغير عمل الآخرة، كما لا حمد لطلبها لغير عمل الآخرة، فثبت أن مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه، كما لا حمد على الرغبة فيها؛ وإنما الحمد على إرادة الله والدار الآخرة، والذم على إرادة الدنيا المانعة من إرادة ذلك... إذا قدر أن شخصين أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر زاهد في الدنيا والآخرة، لكان الأول منهما مؤمناً محموداً، والثاني كافراً ملعوناً، مع أن الثاني زاهد في الدنيا والأول طالب لها؛ لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني لم يكن معه ذلك المأمور به، فثبت أن فعل المأمور به من إرادةالآخرة ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

فالمحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا، فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله»(٢).

فليس المقصود بالزهد في الدنيا رفضها، فقد يكون العبد أغنى الناس لكنه من أزهدهم؛ لأنه لم يتعلق قلبه بالدنيا، وقد يكون آخر أفقر الناس وليس له في الزهد نصيب؛لأن قلبه يتقطع على الدنيا، فالزهد مرتبة قلبية؛ إذ هو إخراج حب الدنيا من القلب، بحيث لا يلتفت الزاهد إليها بقلبه، ولا ينشغل بها عن الغاية التي خلقه الله من أجلها، ولذا قال السلف: «أخرج الدنيا من قلبك وضعها في يدك أو في جيبك، فإنها لا تضرك»، فالزهد الحق هو النابع من الكتاب والسنة، المراعى فيه ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك، بنية صادقة تقربه إلى الله.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ / ١٤٩).

المبحث السابع

مفهوم الحرية

الحرية تطلق ويراد بها مقابل العبودية، وهي في أصلها اللغوي تعني الأفضل والأكمل من كل شيء[(١)]، وقد جاء الإسلام والعرب يعرفون العبودية من خلال الرقّ، فالحر عندهم خلاف العبد وهو الرقيق المملوك الذي لا يتصرف كما يريد، وإنما وفق ما يريده سيده، خلافاً لمن خرج من هذه العبودية إلى الحرية فأصبح حرًا يتصرف كيف يشاء، وعليه فمفهوم العبودية لديهم مفهوم واضح[(٢)].

وقد جاء الإسلام ليخرج الناس من العبودية إلى الحرية، جاء لتحرير البشر والرقي بهم؛ تحريرهم من العبودية الباطلة والارتقاء بهم من خلال العبودية الحقة التي لا يحيا الإنسان حياة صحيحة إلا بها؛ وهي العبودية لله جل وعلا، وهي التي تحفظ للإنسان كيانه وكرامته وحماه من كل ما يخرم هذه الحرية، جاء ليحرره من العبودية للشهوات والرغبات التي تملكه وتحكم تصرفاته وتمنحه شعورًا وهمياً بالحرية؛ وهي حرية زائفة لا قيمة لها، إلى الحرية الحقيقة التي يشعر معها الإنسان بحقيقة الحرية؛ إذ الحرية الحقيقية ليست في الفعل فقط، بل هي أقوى وأظهر أحياناً في الترك، فالحرية لا تهتم فقط بما يجب أن يعمل، بل ربما تهتم أكثر بما يجب ألا يعمل.

والعرب في جاهليتهم، قبل بعثة المصطفى، كانوا يدركون المعنى الحقيقي للحرية، بعيداً عن مفهوم العبودية لله جل وعلا؛ وذلك أنهم كانوا يقرون بأن الإنسان ليس هو الذي أوجد نفسه، ولا هو الذي يبقيها، وأن علمه مكتسب وهو علم ناقص، وأنه يعتمد في استمرار حياته على ظروف لا قِبَل له بالسيطرة عليها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٢٦٤).

(٢) الثقافة الإسلامية (ضمن سلسلة مناهج وإصدارات العلوم الشرعية، فئة المسلمين الجدد)، عبد الرحمن الزنيدي (ص٨٥).

يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، فالضياء يأتيه من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض وهكذا، فإنسان لا يملك من ذلك شيئاً أنى يكون حرًّا؟!! وأنى يكون مستقلاً بقراره؟!! وهؤلاء المقرون بوجود الخالق مقرون بأن الله وحده ذو العلم الكامل، والقدرة الكاملة والاستغناء الكامل فهو وحده الفعال لما يريد، أما الإنسان فهو مخلوق وبما أنه مخلوق فهو مملوك لخالقه، والمملوك عبد، فالصفة التي تدل على حقيقة الإنسان هي كونه عبدًا لا حرًّا، لكنه عبد لخالقه لا لمخلوقات مثله(١).

وكذلك أن معنى العبودية لله في كل شؤون الفرد الذي جاء الإسلام يقرره ويؤكد عليه لم يثر إشكالات لدى الصحابة في مفهوم الحرية؛ بل بقي مفهوم الحرية والعبودية التي هي عبودية الاسترقاق بين البشر مستقلاً عن العبودية المتقرّرة للخالق سبحانه(٢). وبقي متقررًا في مفهوم المسلمين أن العبودية هي لله تعالى؛ ألم يقل ربعي بن عامر لرستم: (جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد)، فهي هدف من الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها، وهو منح الناس حريتهم، ورفع العبودية عنهم، وتحقيقهم العبودية الحقة لرب العباد، سبحانه وتعالى.

كما لم تكن مسألة الحرية تمثل إشكالاً في القرون المفضلة كلها، حيث فهم الصحابة ومن بعدهم حقيقتها وعاشوا بها؛ لكن عند من بعدهم -لاسيما في المرحلة التي دخلت فيها علوم الكلام والمنطق والفلسفة إلى العالم الإسلامي- ظهرت تساؤلات جديدة حول حرية الإنسان إزاء قدر الله جل وعلا، أي: هل الإنسان حر في أفعاله الإرادية، أو أن إرادة الله مسيرة له حتى في هذه الأفعال، فهو يمارسها قسرًا دون تصور، أو أنه مختار؟ وبذلك ظهرت فرق منهم الجبرية الذين يرون أن الإنسان مجبور في كل حركاته وأنه كالريشة في مهب الريح، وفرقة القدرية الذين زعموا أن الإنسان طليق لمشيئته في أفعاله ولا سلطة لله عليه إلا في كونه سبحانه يعلم مسبقًا بفعله، وبقي أهل السنة وسطًا حيث قالوا: إن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وأمدّه بالعقل والإرادة وقوة الفعل والترك، وأنه سبحانه محيط بعلمه السابق وكتابته في اللوح المحفوظ ومشيئته الغالبة بكل شيء، وأنه سبحانه هو الذي يخلق أفعال العباد التي بها يأخذون

(١) الإسلام لعصرنا (المجموعة الثالثة)، جعفر شيخ إدريس: ص٢١.

(٢) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: ص(٨٥).

ويتركون، ومع ذلك فكل إنسان في مقاله الاختيارية حر لا مكره يشعر بذلك بنفسه وهو يقبل أو يرفض[١].

وغير هذا الطرح لا نجد نقاشاً يدور حول الحرية في التراث الإسلامي القديم، ذلك أن مفهومها واضح جلي لا يحتاج إلى مزيد بيان، لكن مع انتشار الأفكار الغربية وظهور الانحرافات الفكرية في ظل الانفتاح الإعلامي؛ ظهرت الدراسات والأبحاث التي تناقش الحرية من وجهة نظر غربية، أو من وجهة نظر إسلامية.

ولا شكّ أن فكرة الحرية لدى الغربيين اليوم هي إفراز لظروف وتحولات عاشها العالم الغربي، وهي في واقع الفكر الغربي المعاصر مثار نزاع حيث تتعدد لها المفاهيم وتتشعب حولها الرؤى، والشيء الظاهر فيها أنها مشتملة على شيء من الغلو الفاحش في الواقع الفكري المعاصر، وهو يعد ردة فعل عنيفة لأوضاع القرون الوسطى في مجالات التفكير والسياسة والمال، حيث كانت تمارس الكنيسة ضغوطًا رهيبة تتحكم من خلالها بحياة الناس، فنجدها قد سلبتهم حريتهم في تلك الجوانب، ولأجل ذلك جاءت الدعوة إلى الحرية المطلقة كنقيض للفلسفة التسلطية؛ فقالت بالحرية المطلقة وهي الخلوص من كل قيد، والقدرة على الفعل المطلق[٢]، وأشير هنا إلى أن هذا أيضاً لم يطبق، بل هي دعوة لم تتحقق على ما يريدون؛ لأن هذه الحرية المطلقة لا يمكن تطبيقها حيث يحدها القانون الذي وضعه المشرعون وهم بشر، بحدودٍ لابدّ من الوقوف عندها وعدم تجاوزها، فالحرية المطلقة المنطلقة من جميع القيود غير معقولة وغير موجودة[٣].

ولعلّ من المهم الإشارة إلى أن الإشكال في الحرية التي يدعو إليها الغرب يكمن في ظل استغلالها البشع لقيمة الحرية المحببة للقلوب من أجل ترويج الضلال وتفكيك القيم المحافظة لدى الأمم التي لم تصل إلى تحلل الغرب الأخلاقي وتهتكه؛ ومن أبرز صور ذلك ما يتعلق بالمرأة والأسرة: حيث جعل من مقتضيات الحرية الشخصية للمرأة حقوق مصادقة الرجال حتى بغير رضا زوجها، والإجهاض، وإنجاب أطفال خارج إطار الزواج؛ فضلاً عن التعري والسفور والاختلاط المطلق، ومن صورها الخطيرة كذلك ما يسمى بحرية الكتابة والإبداع

(١) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: ص(٨٦).

(٢) انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، محمد البهي: ص(١٠٥).

(٣) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد: ص(٤٦).

التي جعلت وسيلة لنشر الضلال والسخرية بالله ودينه وإعلان الكفر، ووصم من يقاوم هذه الشطحات بأنه عدو للحرية رافض للإبداع وغيرها من التهم[١]. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين هما:

أ - أن ردة الفعل التي حصل بسببها هذا التطرف في مفهوم الحرية وتطبيقها المطلق لدى الغرب نتجت عنها الثورة الفرنسية التي أخذت تبطل كثيراً من النظريات الخلقية، وتهدم قواعد المدنية والدينية، وما فكرة الحرية عند سارتر الفرنسي التي تجعل الحرية هي التحلل من كل سلطة خارج نزعاته المادية، سواء أكانت أعرافًا أو تقاليد أو أدياناً أو قيماً إنسانية إلى غير ذلك، إلا دليل ومظهر من مظاهر الغلو البالغ في توظيف ردة الفعل تلك في مجال الانحلال والفساد[٢].

ب - من الإنصاف الإشارة إلى أن الحرية في الغرب كان لها جوانب إيجابية ودعت إلى ما دعا إليه الإسلام من أمور خيرة صالحة، لكن الفرق بينها وبين دعوة الإسلام لتلك الأمور أن الحرية التي دعا إليها الغرب ليست بتلك الصورة الزاهية التي تبدو لاسيما في المجالات الخيرة التي تدعو إليها؛ إذ إن هناك قيوداً كبيرة تفرض عليها بحجة وقاية الأمن العام والنظام؛ وذلك لخدمة بعض أصحاب المصالح الكبرى من أرباب السياسة والمال الذين صاروا يتحكمون بالصحافة، ويؤثرون على القضاء، ويملكون وسائل الإعلام ويوظفونها لتحقيق رغباتهم؛ فأصبحت الحرية ملكاً لهؤلاء الفئة القليلة المسيطرة[٣]، يقول د. محمد البهي: (أصبحت الحرية الفردية يمارسها في نطاق واسع: أصحاب المال، وهم في الوقت نفسه رجال السياسة، وهم أصحاب دور النشر والإعلام، ويمارسها في نطاق ضيق أو قد لا يمارسها أصلاً حتى في حق العمل والسعي في الحياة بقية الأفراد في المجتمع)[٤].

وعند الحديث عن حدود وحقيقة الحرية لابدّ من استحضار أمور من الأهمية بمكان:

أولها: أن الإنسان لا يمكن أن يخلو من التزام؛ إما بدين يتضمن معتقدًا وتشريعاً؛ يستقيم

(١) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: (ص٩٦).

(٢) العدوان على المرأة، فؤاد العبد الكريم: (ص٣٢).

(٣) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: (ص٨٩).

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، محمد البهي: (ص١٠٩).

على مبادئه ويستجيب لأوامره ونواهيه، وإما لنظام وقوانين يتقيد بمضامينها، ولا يمكن أن يخلو من ذلك؛ إذ لا يخلو منها إلا الكائنات التي لا تعقل، عندها يكون قد انحط إلى مستوى متدنٍ للغاية؛ ولأجل ذلك فلا بدّ من قيود تقيد حرية الإنسان وضوابط تضبطها، سواء أكانت نابعة من دين أو معتقد أو مبدأ أو نظام أو قانون أو غير ذلك.

ثانياً: الطبيعة الاجتماعية للإنسان التي يراها البعض طبيعية ويراها آخرون ضرورية إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش منفرداً، هذه الطبيعة الاجتماعية لها التزام، وهو أن الإنسان في مجتمعه لابدّ أن يراعي في تصرفاته عدم التجاوز في حق الآخرين؛ إذ لا يتصور وجود حرية مطلقة من جميع القيود؛ لأن حرية إنسان واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواه؛ وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بحريته المطلقة منفردًا بها بين أمثاله من المقيدين؟ أما أن يوجد جميع الناس بحرية مطلقة لكل منهم على سواء فهذا مستحيل عقلاً في الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق، ولابدّ من التأكيد على أن الحرية للإنسان ذات مفهوم اجتماعي فلا بدّ من القواعد التي ترعاها بمسوغاتها الاجتماعية؛ وإلا صارت ظلماً وجورًا؛ فالحرية لكل إنسان في المجتمع بضوابطها، وإلا ذهبت الحرية والإنسان معًا؛ ولذلك لابدّ من السيطرة على النفس للمحافظة على حرية الجميع، والحرية شُعب؛ ولكل حرية حدودها التي ينبغي أن يكون احترامها مبنيًا على أساس من الدوافع الذاتية الصحيحة، وألا تكون عن نزوات وشهوات[1].

والحديث عن الحرية في مفهومها الصحيح في الإسلام يطول، ولكننا نكتفي هنا بذكر خطوط عريضة لا بد من معرفتها، من ذلك:

أولاً: كل ما دعا إليه الغرب من الحريات المقبولة المستقيمة ففي الإسلام دعوة إليها ولا ريب، ولو أردنا تتبع ذلك لطال الأمر جدًا.

ثانياً: هناك شرائع فرضها الإسلام قد يفهم منها البعض أنها تتضمن حجراً على حريات البشر، أو تدخلاً في شؤونهم الخاصة، وأبرزها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحق الذي لا شك فيه هو أنها تمثل حماية لحرية الآخرين، فليس من المقبول أن تُطلَق لأحدٍ

(١) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، عبد الرحمن المطرودي: ص(٣٧٧)، والإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد: ص(٤٥).

حريته على حساب جمع من الناس فضلاً عن المجتمع بأكمله، هذا من جانب، ومن جانب آخر فيها حماية لذات الفرد من أن يضر بنفسه في النواحي الفكرية أو الصحية أو الاجتماعية أو غير ذلك، فالإسلام جاء يحفظ الفرد ويحميه ويحفظ المجتمع ويحميه(١).

ثالثاً: الإسلام يقرر أن الإنسان مخلوق لله خلقه الله جل وعلا وكرمه وجعله الأكرم بين مخلوقاته، وحدد له الهدف والغاية من خلقه وأوضحها في القرآن حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبناء على هذا الأمر يقرر الإسلام أمراً آخر وهو: مبدأ المسؤولية، فهو يعطي للإنسان مطلق الحرية فيما يأتي وما يذر، ولكنه مسؤول عن كل ذلك، وهو مطالب بنهج يسير عليه لتحقيق الهدف الأسمى الذي خُلق لأجله:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، فلا بد أن يسأل عما قدم؛ ولأجل ذلك كان لا بد أن يعمل العاقل على محاسبة نفسه، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المبدأ مهم غاية الأهمية للبشر لأمور من أبرزها:

أ – مبدأ المسؤولية يعطي للإنسان قيمة، ويرتفع به عن باقي الكائنات التي لا تعقل ولا تحاسب، وفقدانه لهذا الأمر، بمعنى عدم إحساسه به والتزامه بمسؤوليته، يسفل به لدرجة تلك الكائنات، ولأجل ذلك نجد أن المرء لا يقبل أن يوصم بأنه عديم الإحساس بالمسؤولية، بل ويعدها في غاية الذم، وكذا لا يقبل بأن يعده الآخرون غير مسؤول عما يفعل لما يترتب على ذلك من أحكام مثل إقامة ولي له، فهذا مما يسقط قيمته في مجتمعه.

ب – مبدأ المسؤولية كذلك يحفظ المرء من نفسه أن يضربها ويحفظ كذلك المجتمع من تجاوزاته؛ لاسيما إذا أدركنا أن بعض ما يضر بالنفس أو بالمجتمع محبب للأنفس كالشهوات والملذات المضرة المحرمة؛ فشعوره بالمسؤولية عن أفعاله يجعله يعيد النظر مرارًا قبل الوقوع فيها وممارستها.

ج – ليس للعقل أي قيمة ما لم يكن المرء مسؤولاً عما يفعله، إذ ما مزية العاقل على من سواه إذا لم يكن هناك مسؤولية تُرعى، وحقوق تُحفظ، بهذا المبدأ تتحقق إقامة العدل حيث لا يساوى من كان أهلاً للمسؤولية مراعياً لها، قائماً بحقوقها؛ بمن هو على خلاف ذلك، أما إذا

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي: ص(١٥).

عُدمت المسؤولية فإنهما سواء؛ إذ لا يملك أحد محاسبة أحد على أمر لم توضع عليه مسؤولية ولم تقرر له حدود.

رابعاً: حرية الإنسان في اختيار طريقه في الحياة ومنهجه؛ فلم يكره الإسلام أو يرغم أحدًا على التزام منهج بعينه بل جعل للإنسان كامل الحرية، والتزم له ببيان الخير والشر، وأما الاختيار فهو للإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، والأمر كما بينه جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

خامساً: حرية الذات، فالإسلام حفظ لكل إنسان كرامته الإنسانية وأن يكون حرًا في التصرف في شؤونه الشخصية دون مصادرة أو إهانة، بل جاءت النصوص التي تعظم الاعتداء عليه في دمه أو ماله أو كرامته، ففيه الحديث الصحيح يقول ﷺ: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)(١)، بل حتى غير المسلم في المجتمع المسلم له حرمته ويحرم التعرض لحياته، ففي الصحيح قوله ﷺ: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)(٢)، وحرم الإسلام جميع أنواع الاعتداء على الإنسان سواء أكان اعتداء بالضرب أو الجرح أو السجن أو الجلد أو بالسب والشتم والتخويف بل وظن السوء والسخرية واللمز، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

سادساً: حريته في مجال الرأي والتعبير: الإسلام في هذا لا يكتفي بمجرد فتح المجال ليقول الإنسان الحق، بل يوجبه عليه إذا كان تركه يفوت مصلحة شرعية، وهو يأجره عليه

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ (رب مبلغ...) ح: ١٠٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب: الديات، باب: إثم من قتل ذمياً بغير جُرم ح: ٦٩١٤.

ويثيبه بكل حال، ويحذر من التعرض للناس في هذا أو منعهم منه أو أذيتهم بسببه.

ولذا كان يبايع رسول الله ﷺ الصحابة على: أن يقولوا بالحق حيث كانوا لا يخافون في الله لومة لائم[1]، كل ذلك وفق ضوابط جاءت لتحقيق مصالح العباد؛ ولأجل ذلك فحرية الرأي في الإسلام لا يمكّن بسببها الفرد حتى يقع في العبث بضروريات الحياة الإسلامية وأهمها الدين وأعراض المسلمين، كما أنه في هذا الإطار حرم الإسلام الرذائل الخلقية كالكذب وتلبيس الحق بالباطل وفحش الكلام، أو إثارة الفتن في المجتمع المسلم أو تهديد أمنه.

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب: الأحكام، باب: كيف يبايع الإمام الناس.

المبحث الثامن

مفهوم التجديد

يتردد كثيراً في الآونة الأخيرة مصطلح جديد على الساحة الثقافية وهو التجديد، ويطلق في المطالبة بتجديد الخطاب الديني، أو تجديد الدين، أو تجديد الفكر الإسلامي، وتأتي هذه المطالبات في سياق مطالبة الغرب بإخضاع بعض القضايا الشرعية لتتناغم مع العولمة الثقافية التي يُراد فرضها على العالم الإسلامي.. كما هي تأتي ضمن مشروع إسلامي من بعض الدعاة المصلحين، فما المفهوم الحقيقي للتجديد؟ وما المفاهيم الباطلة له؟

يرجع التجديد في اللغة إلى الجدَّة نقيض البلى، يقال: شيءٌ جديد، وجَدَّ الثوب والشيء يَجِدُّ (بالكسر) صار جديدًا، وهو نقيض الخَلَق، وتجدد الشيء صار جديدًا وجدده صيره جديدًا[(١)]، ومن خلال ما سبق يظهر معنى التجديد وهو إعادة الشيء إلى حالته التي كان عليها أولاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، وهو يستلزم أن الشيء المجدد كان موجودًا وللناس به عهد، ثم أصابه البلى وصار قديمًا ليس كما كان يعهده الناس ثم أنه أعيد إلى حاله التي كان عليها قبل أن يبلى[(٢)].

والتجديد في الاصطلاح الصحيح هو: إحياء ما اندرس من معالم الدين وبعثها من جديد لإصلاح الحياة العامة للمسلمين، وتجديد الدين هو أحد المصطلحات الإسلامية، نشأ من حديث صحيح من لفظ النبي ﷺ يقول فيه: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[(٣)]. وبهذا يكون التجديد في المفهوم الصحيح ليس هو تغيير القديم وإحالته عن أصله أو الاستغناء عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر جديد، فهذا ليس من التجديد في شيء، فالتجديد في الإسلام ليس معناه الإتيان بإسلام جديد، بل معناه إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والعملُ بمقتضاهما وفق العهد الأول، عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين حيث صفاء المنهج، مع إماتة ما ظهر من بدع ومحدثات، مع مراعاة ظروف

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: (٣/ ١١١) (مادة: جدد).

(٢) مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد: ص(١٤-١٥).

(٣) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، ح: ٤٢٩٣، وهو حديث صحيح صححه الحاكم والبيهقي والحافظ العراقي وابن حجر والسيوطي ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني.

العصر[١]. فالتجديد الصحيح يتحقق بإحياء العمل بما تُرك من هدي الكتاب والسنة، وتصحيحِ المفاهيم المنحرفة عنهما، وتسديد العمل وفق العلم الصحيح، ورد النصوص المكذوبة وعدم العمل بها، وكشف الانتحال والغلو وبيانها[٢]، وبعث الاجتهاد والقضاء على الجمود الفكري والتعصب المذهبي ومقاومته.

والواقع الإسلامي، منذ وفاة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام لم يستمر على حال واحدة، بل أصابه ما أصاب الأمم السابقة قبل أمة الإسلام، وقد نبه إلى هذا المصطفى ﷺ بالحديث الذي قاله فيه: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[٣]، فقوله ﷺ: (يجدد لها دينها) فيها دلالة ظاهرة على أنه سيحصل نقص في دين الناس وخلل، وهذا من المعروف عند من تأمل جملة من الأحاديث وهو ما كان بالفعل؛ الأمر الذي ظهر معه مجددون على مرّ التاريخ الإسلامي اعتنى بهم أئمة الإسلام حيث بدأ الحديث عن التجديد والمجددين منذ القرن الثالث الهجري، ليس ذلك فحسب بل عددوا المجددين وسموهم[٤]؛ حيث كان يظهر في كل عصر مجدد أو مجددون يحاولون أن يعيدوا للدين جدته ونضارته ويرجعوا الناس إليه تارة بالتجديد في العقيدة، وتارة في الشريعة، وتارة في معالجة الانحراف في السلوك والدعوة إلى إعداد القوة، وتارة علمية، وتارة حضارية شاملة، وتارة بالجهاد، إلى غير ذلك من جوانب التجديد في حياة أمة الإسلام[٥].

ولكن هذا المفهوم الصحيح انحرف عنه بعض الناس من كُتَّاب، ومن يسمون بالمفكرين، وبعض رموز الحركات الإسلامية الحديثة، فنادوا بالتجديد؛ ولكن على منهج لم يعرفه سلف هذه الأمة، تحت غطاء العصرانية، والتقدمية، واليسار الإسلامي، والتوجه الحضاري، والفكر المستنير، وغيرها من الشعارات البراقة، فدعوا إلى تطويع الدين وإخضاعه إلى ما يلائم الحضارة الغربية الحديثة، ويعتبرون أن تأخر المسلمين لا بد أن يعالج على طريقة الغربيين ولكن تحت مظلة باهتة من مفهومهم عن الإسلام[٦].

---

(١) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(١٣).

(٢) تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف: ص(١٣).

(٣) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث: (٤/ ١٠٩).

(٤) المجددون في الإسلام، أمين الخولي: ص(٦-٧).

(٥) تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد: ص(٧٤).

(٦) تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد: ص(٧٤).

وهؤلاء ليسوا سواء في أطروحاتهم ومواقفهم من الدعوة إلى التجديد بهذا المفهوم، فمنهم المقل والمكثر، ومنهم من هو سيئ القصد منحرف التوجه، ومنهم من يظن به الخير ولكنه تأثر ببعض أفكارهم، فهم طرائق قدد ومذاهب شتى، يجمعهم تقديم العقل على النقل، والمصلحة على الشرع، وتطويع النصوص الشرعية لتتلاءم مع المفاهيم الغربية الحديثة وأنماط السلوك الغربي، ولو كان ذلك بتأويلات بعيدة باطلة عن منهج السلف، مع النظر إلى تراث الأمة نظرة ازدراء، ولما عند الغرب بنظرة إعجاب، مع عموميات في الطرح، وعدم وضوح في الآراء وما يقال من أفكار(١).

وهنالك أسباب أدت إلى ظهور هذا الفكر المنحرف في التجديد يرجع أساسها إلى ما عاشه الغرب من نهضة حديثة في كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والصناعية، مقابل ما منيت به الدول العربية والإسلامية من تدهور وتخلف، وأعقب ذلك إرسال البعثات العلمية إلى الغرب، والاستعانة بخبراء وأساتذة للتدريس في الجامعات العربية، فتأثر كثير من المثقفين والمفكرين وأبناء المسلمين بما عند الغرب، خاصة أن كثيراً ممن أرسل هو ضعيف الثقافة الإسلامية، متأثرين في ذلك بمواجهته اليهودية والنصرانية من مشكلة كبيرة بعد التطور المادي الهائل والنتاج الفكري لدى الغرب بعد الثورة الصناعية الذي صادم تلك الخرافات المنسوبة إلى الدين دفعها إلى اتخاذ مواقف من تلك التطورات، فأما اليهود فقد ظهر بعض علمائهم في تشكلات تسمى باليهودية الإصلاحية أو المتحررة أو التجديدية، وقد حاولت تحوير المبادئ والتعاليم اليهودية في النصوص المقدسة لديهم بما يتواءم مع العصر بفلسفاته وقوانينه الفكرية والتطبيقية(٢). أما في النصرانية فقد ظهر عدد من العلماء من داخل الكنيسة يسعون إلى إعادة تفسير مفاهيم النصرانية التقليدية في ضوء ما يسمى معارف العصر، كما كانت تدعو إلى التوفيق بين أسس العقيدة وبين العقل ونتائج النقد التأريخي التي لا تقبل الجدل(٣).

من خلال ما سبق يتضح كيف فعلت دعوى التجديد باليهودية والنصرانية إذ جعلتها

(١) العصرانيون ومفهوم التجديد عرض ونقد: أ. د. عبد العزيز مختار ص(٢٤، ٢٥).

(٢) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد، الشيخ محمد الحامد الناصر: ص(٧، ١٧٧، ١٨٠).

(٣) مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد: ص(١٠٧، ١١١).

مجالاً للعبث وأخضعتها للمتغيرات، مما يسمى بالتطورات، وهذا أمر طبيعي لأنها مما قد لعبت بها الأيدي قديماً وأخضعتها للمتغيرات فكان لزاماً أن يستمر هذا التغيير مع استمرار تغير الزمان.

أما عند المسلمين فقد قامت دعوات مماثلة لتلك التي قامت عند اليهود والنصارى متأثرة بصنيع أولئك يحاول أصحابها تحوير مبادئ الإسلام وتعاليمه لتتسق مع الفكر الغربي المعاصر(١). وعلى ذلك فالتجديد عند هذا الفريق هو إجراء التغيير -كلما احتيج إليه- في أصول هذا الدين وفروعه لتتوافق مع قيم هذا العصر ومعطياته ومنطلقاته المستمدة من الثقافة الغربية المعاصرة التي هي نتاج تفكير بشري محض ليس للوحي المعصوم فيه أثر إضافة إلى خليط رديء من تحريفات اليهود والنصارى ووثنية الرومان(٢).

وتتفاوت مناهج أرباب التجديد المنحرف حيث يذهب فريق منهم إلى منهج التجديد الذي يحاول فيه نسف الإسلام لعدم مواءمته الفكر الغربي المادي، أو يقضي على ما فيه من مبادئ وتشريعات يشمئز منها الذوق الغربي المعاصر مثل: القصاص، الطلاق، وضع المرأة في الإسلام وغيرها، أو دون ذلك من يحاول تأويل ما لا يتسق مع النظرة الغربية تأويلاً يقربه منها.

وفي الآونة الأخيرة لجأ كثير من اتباع الاتجاه التجديدي العصراني -المنحرف- إلى التراث ـ تراث الأمة الإسلامية، حيث وصلوا إلى ضرورة الانطلاق منه في الدعوة إلى التجديد من خلال توظيف بعض الأفكار المرجوحة والشاذة في تراثنا العلمي، آراء الفرق المنحرفة والمندثرة، في خدمة مشروعاتهم التجديدية المنحرفة، وذلك لأجل تسويق أفكارهم وحركتهم التجديدية داخل المجتمعات الإسلامية، ذلك أن الدعوات التجديدية المنحرفة، والتي هي في حقيقتها دعوات تغريبية، تجاهر بنسف التراث الإسلامي نسفًا علمياً لم تحظ بتجاوب الأمة، بل أدى ذلك إلى نفور الأمة منها(٣).

ولا شكّ أن تجديد الدين على منهج الإسلام الصحيح مسألة مهمة وخطيرة لا يصلح أن

(١) حقيقة الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الزنيدي: ص(١٩٩).

(٢) تجديد الخطاب الديني، محمد بن شاكر الشريف: ص(٣٧).

(٣) حقيقة الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الزنيدي: ص(٢٠٠).

ينهض بها أو يتناولها كل أحد، وذلك لجليل قدرها وعظيم شأنها، ولأجل ذلك لا بد من التنبيه إلى أمور من الضروري التنبه لها في التجديد الإسلامي الصحيح وهي:

الأول: ضوابط في المصدرية والمرجعية: والمراد بالمصدرية مشارب التلقي التي هي أساس الفكر والنظر ومنطلق العلم ومصدر نتائج الفكر، وهي بالنسبة للفكر الإسلامي مصادر الوحي والتشريع من الكتاب والسنة النبوية وما استنبط منهما من أصول التشريع المتفق عليها بين علماء الملة.

وأما المرجعية فيقصد بها الوسائل الفكرية التي يرجع إليها في قراءة التراث الإسلامي وفهمه واستيعابه وانتقاء النافع منه للفكر والمعرفة، وهو ما يقوم به العلماء والمفكرون الذين يعدون مراجع الأمة في هذا الشأن[1]، ولا يدخل في عداد هؤلاء من لم يعرف بالعلم والإيمان والصدق والورع والنصح للأمة، وهذا لا يعني أنه لا يستفاد إلا من فئة قليلة، بل يستفاد من كل من قدم ما يمكن الاستفادة منه، كما لا يفهم منه التعامل مع علماء الأمة الأعلام على أنهم معصومون، بل يعرض ما لديهم على الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح فما وافقهما أخذناه، وما خالفهما رددناه وشكرنا لصاحب الصدق والنصح اجتهاده وسعيه للوصول إلى الحق.

الثاني: ضوابط في القائم بالتجديد «التأصيل قبل التنظير»: وذلك من خلال الفهم والإدراك الجيد لما في التراث الإسلامي من ثروة علمية واستيعابها والرسوخ فيها؛ وذلك قبل التصدي لاقتراح البدائل والنظريات والشروع في عملية تجديد الفكر الإسلامي، والمتأمل للواقع الفكري الإسلامي يدرك أن هناك من ركبوا موجة التجديد والمطالبة به، وطرحوا البدائل فيه وليس لهم من العلم والمعرفة بعلوم الإسلام الأصيلة شيء، فأفسدوا وأضروا أكثر مما نفعوا وقدّموا؛ لاسيما من أرباب الأقلام في الصحف الذين نالوا الدرجات العلمية العالمية لكنهم لم يلتزموا بتخصصاتهم وتكلموا فيما لا يعلمون فأتوا بالعجائب. هذا من جانب ومن جانب آخر لا بدّ أن يكون لعلماء التجديد الحق معرفة بأحوال الناس وفهم وإدراك لها بالإضافة إلى رسوخهم في العلم، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: ذلك «فهاهنا نوعان من الفقه لا بدّ للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطي الواقع حكمه

(١) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(٢٠-٢١).

من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفًا للواقع»[١]. ويقول رحمه الله في إعلام الموقعين: «فالواجب شيء والواقع شيء، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[٢].

أما في العصر الحاضر فالحاجة إلى التجديد ظاهرة عميقة؛ وذلك بسبب ما اعترى الفكر الإسلامي من الجمود، لاسيما مع نهاية الألفية الهجرية الأولى، إذ بلغ الضعف والجمود الفكري مبلغاً عظيمًا فظهرت الحاجة إلى تجديد ما اندرس من معالم الدين، وإعادة ترتيب العقل المسلم، وتنظيم أولوياته في التعامل مع التراث، والاستفادة منه في بناء الحضارة، وحل مشكلات العصر، والتخلص من الجمود الفكري والركود العلمي الذي اقتصر فيه العلماء على اجترار ما سبق من جهود علمية والتوقف عندها تهذيبًا وشرحًا واختصارًا؛ مما أدى إلى توقف حركة الإبداع والإنتاج العلمي في الأمة إلى أن داهم الغزو الصليبي الحديث بلاد المسلمين يحمل معه أفكار المنصرين، وعلومًا ونظريات حديثة للمدنية الغربية تغير على الفكر والحضارة والتاريخ والدين.

ولقد استطاعت الحركات الإصلاحية التي ظهرت مطلع الألفية الهجرية الثانية في بقاع من العالم الإسلامي أن تبعث الفكر الإسلامي من جديد وعلى رأسها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التي سوف يأتي الكلام عليها في القسم الثاني بإذن الله، إلا أن الاستعمار جاء فأعاد الإشكالات الحضارية والعلمية من جديد؛ الأمر الذي يستدعي القيام بنهضة تجديدية تعيد للفكر الإسلامي توازنه، وتحقق له الحماية من الأفكار الوافدة، وتطور وسائل ومناهج الفكر والنظر والعلوم لتواكب مستجدات العصر وترتقي إلى مدارك التفاعل مع واقع الحياة العلمية والفكرية في العصر الحديث[٣]، مع الالتزام بأصول الإسلام ومبادئه وفق ما جاء في الكتاب والسنة. وقد قامت محاولات جادة من بعض الجمعيات والمؤسسات والمنظمات والأفراد في العالم الإسلامي للنهوض بالأمة كان لها الأثر الإيجابي في تجديد حركة

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم: ص(٤).

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم: (٤/ ١٩١-١٩٢).

(٣) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(١٨١).

البعث الإسلامي في نفوس أبناء الأمة، ولكنها جهود ما زالت في بداية الطريق، وتواجهها تحديات إقليمية وعالمية كبيرة.

فالتجديد للدين لابد أن يكون من الدين، أي نابع من أصوله الكتاب والسنة، ملتزم فيه بضوابط الفهم وقواعده التي وضعها سلفنا الصالح، يكون بواسطة علماء الأمة المشهود لهم بالعلم والصلاح، يجمع فيه بين إحياء ما اندثر، وتصحيح ما وقع من انحراف، وتلمس حل للمشكلات الحادثة بما يتوافق مع ضوابط الشرع وروح العصر.

القسم الثاني

أحوال المجتمع المسلم المعاصر وسبل النهوض به

ويحتوي على:

الفـــــــصل الأول: أحوال المجتمع المسلم المعاصر.

الفـــصل الثـــاني: دعوة الشيخ: محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية.

الفـــصل الثالـــث: سبل الإصلاح والنهوض بالأمة.

الفصل الأول

أحوال المجتمع المسلم المعاصر

ويحتوي على:

المبحث الأول: الغزو الفكري وأثره على المجتمع المسلم.

المبحث الثاني: أبرز التيارات الفكرية المعاصرة وأثرها على المجتمع المسلم.

المبحث الأول

الغزو الفكري وأثره على المجتمع المسلم

الغزو الفكري مصطلح حديث لم يسمع به ويتداول إلا في القرن الرابع عشر الهجري، ويقصد به كما هو ظاهر الغزو عن طريق الأفكار، ويمكن تعريفه بأنه: «محاولة إخضاع أمة لأخرى عن طريق تغيير أفكار الأمة المغزوة واستدراجها لاعتناق أفكار الأمة الغازية حتى تصير تبعاً لها منقادة لما تأمرها به أو توجهها إليه»(١)، أو هو باختصار تسلط أمة من الأمم على أخرى لتغيير أفكارها وقيمها ومعتقداتها.

ولا شكّ أن الغزو الفكري يستهدف البنية المعنوية للأمة المغزوة، ولأجل ذلك فهو يضربها في مقتل؛ لأنه متى ما سيطر على أفكارها ومعتقداتها واستطاع تغييرها أو العبث بها ألغى حقيقة وجودها؛ لأن ما حصل في الحقيقة هو إلغاء للهوية التي تمثل الكينونة المعنوية التي مع إلغائها سرعان ما تتغير الكينونة المادية للأمة، فتظهر بالمظاهر المادية للأمة الغازية في اللباس والبناء وغير ذلك؛ على الرغم من أن هذا الغزو لا يستهدف المظهر، بل على العكس هو يحرص كل الحرص على ترسيخ المظاهر الخاصة بكل أمة، وتدعو دائماً لإحياء تراث الأمة المادي لتبقى الأمة خاوية بلا روح حتى لا يبقى فيها إلا الإطار. ولا شك أن الهدف من ذلك هو إشعار الأمة أن شيئاً لم يتغير، ولأجل أن تظهر الأمة بمظهر المتمسك بالتراث، والحق خلافه.

وأهم الأمور التي يستهدفها الغزو الفكري، لإحداث هذا التغيير الخطير، هي الجذور لا القشور، والأصول قبل الفروع، وهو بالتأكيد لا يستهدفها ابتداءً، بل يصل إليها متدرجًا من أمور أقل أهمية، ويبدأ بالتدرّج حتى يصل إلى الجذور والأصول، ويدخل فيها من التشكيك ما يزعزع الثقة فيها إلى أن يقتلعها ويلغيها.

ولعلّ من أعظم الإشكالات في قضية الغزو الفكري هو أنه يستهدف الأمة في عقيدتها وفكرها بصورة متدرجة تخفى على عامة الأمة بل وبعض مثقفيها، ولا يدرك خطرها إلا جهابذة الأمة وعظماء مفكريها والعلماء فيها، الذين يتحملون مهمتين عظيمتين:

الأولى: مقاومته في ذات أنفسهم.

---

(١) جوانب من الغزو الفكري المعاصر، محمد أمين السماعيلي: ص(١١).

والثانية: إقناع الأمة بفداحة الخطر القادم وعظيم ضرره، وهذا الأمر جليل عظيم قد لا تستوعبه الأمة بسهولة، كما أن تطور الغزاة المادي لا شك يقوي جهودهم في الإفساد، ويضعف جهود المقاومين لهم، لاسيما إذا أدركنا أن الأمة المستهدفة تقف على الدوام، بوعي منها أو بدون وعي، في حال من الانبهار يقودها غالباً إلى الاستسلام.

ولعلّ أخطر ما في الغزو الفكري اليوم أنه أصبح "ذا دفع ذاتي تلقائي"؛ حيث إنه يتم دون أن يدرك ضحية الغزو أنه معرض لأي خطر فيقبل في حماسة بلهاء لا على قبول الغزو فحسب، بل على اعتناقه واحتضانه دون الشعور بأنه مصدر خطر؛ ذلك أن الغزو الفكري المعاصر أصبح يتخذ شكل برنامج تلفزيوني، أو فيلم يبث على الفضائيات، أو موضة ما، أو فكرة تدعى نظرية، أو مؤلف لفيلسوف غربي، تسوق وتنتشر في العالم بصورة سريعة ودون أي تأخير، ويسوق لها في كل بلد وإقليم، دون التأمل في مضامينها وإدراك ما تحمله من خير أو شر، ولو تم ذلك قد يصعب التحكم في الحيلولة بينها وبين المتلقي المسكين في أي بقعة من العالم، بسبب التطور الهائل لوسائل المواصلات والاتصالات التي حولت العالم إلى قرية صغيرة.

أبرز وسائل الغزو الفكري:

لا شكّ أن الغزو الفكري حرب فكرية موجهة للعالم الإسلامي يشنها الغرب بمفكريه ورجال الدين والسياسيين والاقتصاديين فيه؛ الذين يبذلون الجهود الكبيرة لتحقيق النجاح والنصر في هذه الحرب، وأخطر ما يعده المفكرون فيهم الأفكار والدراسات والبحوث التي يستهدفون بها استبدال ما لدى المسلمين من أفكار ورؤى وقيم ولكن بطريقة متدرجة ومؤثرة.

تلك الجهود يتم تسويقها من خلال وسائل يحاولون من خلالها فرض تلك الرؤى والأفكار، وأبرز تلك الوسائل هي:

أ/ الاستعمـــار:

تلك الحركة التي بدأت مبكرًا بعد الكشوف الجغرافية، وذلك في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري تقريبًا)، واستمرّت في التقدّم والتطوّر؛ إذ اهتمّت أول الأمر بالسيطرة على الأطراف البعيدة من العالم الإسلامي تمهيدًا للوصول إلى قلبه وهو ما وصل إليه الاستعمار لاحقاً، حيث تمت السيطرة على العالم الإسلامي كله إلا مناطق قليلة

ومساحات محدودة، وتم تقسيمه بعد ذلك[١].

ويعدّ الباحثون أن الاستعمار الحديث من أبشع وأعقد ألوان الاستعمار التي مرت بها البشرية؛ وذلك أن العلاقات الاقتصادية الاستغلالية وغيرها من العلاقات لا تزول بزوال السيطرة العسكرية أو بزوال الحكم المباشر وإنما أصبحت تمثل ميراثًا ثقيلاً يبقى بعد رحيل المستعمر، وواقع المستعمرات السابقة والحالية في العالم يشهد بذلك.

ومن المعلوم أن قوى الاستعمار في البلد المُستَعمَر تسيطر عليه بقوة السلاح وتتحكم فيه غير أنها تختلف في حقيقتها وتنقسم إلى منهجين مختلفين:

أحدهما: الاستعمار المتحضر، وهو الذي لا يتدخل مباشرة في نواحي حياة المستعمر جميعها، بل يطلق لأبناء المستعمرة بعض مظاهر الحرية.

والثاني: الاستعمار الاستبدادي، وهو الذي يتدخّل تدخلاً مباشرًا في جميع تفاصيل الحياة حتى الأكثر خصوصية منها وهي الدينية، فتدخّله يمتدّ إلى كل شيء، بل يصل الأمر إلى أن يخصص لأبناء المستعمرات مدارس استعمارية يستعمر بها عقولهم[٢].

يقول الأستاذ مالك بن نبي في وصف دور الاستعمار في الغزو الفكري: (إن الاستعمار ذو منهج، وهو يخرج أعماله كلها إخراجًا فنياً خداعًا بحيث يصبغ البلاد المستعمرة بصبغة استعمارية، وهو بذلك يزيل أية عقبة تعترض طريقه مستخدمًا في ذلك علمه ومقدرته، ومن أصول الفن لديه أن يقصي صفوة الناس عن أماكن القيادة؛ لأنهم هم الذين يمثلون أسمى فضائل شعبهم، ثم يستخدم لتحقيق مآربه طائفة من خلصائه اصطفاهم ليمثلوا الشعب المستعمَر)[٣].

لقد سلك الاستعمار إلى تحقيق التغيير في المجتمعات الإسلامية وتغريبها كل سبيل، وتغلغل في كل الميادين، فشمل السلوك الفردي، والآداب الاجتماعية والفنون والآداب، واستعان عليها بالبرامج الدراسية، وبالصحافة، وبالمؤتمرات التي يتعاون فيها المسلمون والمستشرقون على توجيه الفكر الإسلامي، وبهيئة الأمم المتحدة، وبمؤسسة اليونسكو والتربية

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، حسان محمد حسان: ص(٣٠) وما بعدها (طبع ضمن سلسلة دعوة الحق التي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة).

(٢) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي: ص(١٢٠، ١٢١) (ترجمة: عبد الصبور شاهين).

(٣) نفسه: ص(١٢٢، ١٢٣).

الأساسية فيها على وجه الخصوص.

ب/ التنصير:

ويعرف بأنه حركة سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر إخفاق الحروب الصليبية، ظاهرها نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة عليهم[١]، ويعدّ المنصرون فصيل الطليعة أو الاستطلاع الذي يسبق الاستعمار المباشر أو الاحتلال العسكري، فهم عيون للاستكشاف وأوكار للتلصص، وخلايا للتجسس، كما أنهم يكتسبون دعمًا قويًا في ظل وجود الاستعمار وتحت إدارته، ويحققون نجاحاً في غزو العقول، ويسعون في تحويلها عن دينها، ويجردونها من ثقافتها لتفقد القدرة على المقاومة وتصبح جاهزة للتبعية المطلقة.

ومما يؤكد على هذا الدور السياسي الاستعماري ما نطق به القس صموئيل زويمر وهو من كبار المنصرين في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م إذ يقول: (... لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هدية لهم وتكريمًا؛ وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله تعالى، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها)، ويقول: (... إنكم أعددتم نشئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل...)[٢].

وبهذا ينكشف الزيف ويظهر للعيان الهدف الحقيقي من عملية التنصير التي تدعمها الدول الغربية أفرادًا وحكومات، فهي ليست إلا حركة باعت نفسها للشيطان تستخدم الدين غطاءً لاستعباد الناس والسيطرة عليهم والظهور بمظهر الدعوة إلى المحبة والتسامح.

ويهدف التنصير إلى تحقيق أهداف خطيرة من أبرزها:

١ـ تنصير المسلمين: وذلك بإخراجهم من دين الإسلام إلى النصرانية، وقد أثبت التنصير، من خلال تجربة طويلة، الإخفاق الذريع في تحقيق هذا الهدف إلا من بعض المكاسب التي

---

(١) الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي: ص(١٥٩).

(٢) الموسوعة الميسرة: ص(١٦٢، ١٦٣).

جاءت لظروف أسهمت في تحقيق هذا الهدف كالعمل في مناطق المجاعات وغيرها.

٢-إحداث البلبلة لدى المسلمين: وذلك من خلال ما ينتقل للمسلمين من نتاج الحضارة الغربية المادي، بالإضافة إلى بعض مظاهر الحياة المدنية الغربية، بما تشتمل عليه؛ من عادات وتقاليد وأفكار وقيم تدخل في حياة المسلمين فتؤثر فيهم، وتحدث كثيراً من الخلل في المفاهيم والقيم، بل يصل الأمر إلى ضعف اعتزاز المسلم بدينه وانجذابه القوي إلى تلك الحياة وما تشتمل عليه؛ فيُكسر الحاجز الديني أو يضعف لدى المسلم؛ الأمر الذي يخل بالعلاقة الصحيحة التي ينبغي أن تربط المسلم بغيره.

٣-الإبعاد عن الإسلام مع بقاء اسم الإسلام: وذلك من خلال حركات معروفة عصفت ولا تزال تعصف بالعالم الإسلامي، مثل: التغريب، التحديث أو الحداثة، العلمانية، العولمة، وغيرها مما يحقق الهدف التنصيري الخطير بإبعاد المسلم عن دينه بحيث لا يملك منه إلا الاسم؛ وأما الأفكار والمبادئ والرؤى والقيم والحياة برمتها فغربية متوائمة مع النصرانية مخالفة في مجملها للحياة الإسلامية.

ج/ الاستشراق:

حركة علمية فكرية - في أساسها- تُعنى بالدراسات المتعلّقة بالشرق الإسلامي(١)، وتشمل الدين والحضارة والآداب واللغات والثقافة وغيرها، كان لها دورها في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، والدافع الأساس لهذه الحركة هو الجانب اللاهوتي النصراني الذي يسعى لتحطيم الإسلام من داخله بالدس والكيد والتشويه من خلال هذه الحركة التي تظهر روح العلم والحياد وهي بخلاف ذلك(٢)، ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبرز الأسباب في ظهور الاستشراق هو التنصير، وذلك من خلال: دراسة الشرق لاسيما دين الإسلام، وإعداد الدعاة إلى النصرانية وتجهيزهم بالخلفيات اللازمة عن المسلمين والعالم الإسلامي ثم إرسالهم إليه، ولأجل ذلك فقد كانت طلائع المستشرقين من القسس والرهبان الذين انكبوا على تعلّم اللغة العربية ثم بقية علوم المسلمين ليلموا بها ثم يعلموها من وراءهم،

(١) ولقد سعى أعداء الأمة بتسمية الشرق الإسلامي بالشرق الأوسط محاولة لنزع هذه الخصوصية المهمة منه.

(٢) الموسوعة الميسرة: ص(٣٣، ٤١)، ومناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (القرآن والمستشرقون، التهامي النقرة): ص(٢٥).

وكذا ليستطيعوا مقارعة المسلمين بما يقدمونه من مؤلفات[١].

ولعل من أهم الأمور التي تجدر الإشارة إليها، لإيضاح حقيقة الاستشراق، هو التحوّل الذي طرأ على اهتمام المستشرقين حيث تحول من العناية بالدراسات الإسلامية القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التي تتابع تطور الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية في مختلف بلاد المسلمين، بهدف مسايرة تطور السياسة الاستعمارية، وذلك من خلال هذه الدراسات التي توجه لمعرفة خصائص الشعوب الإسلامية ومعرفة أمثل الطرق في التعامل معها، وذلك لخدمة المصالح الاستعمارية؛ ولاسيما بعد ظهور حركة البعثات العلمية؛ التي تم فيها استغلال الطلبة الذين تم ابتعاثهم لمواصلة الدراسة في الغرب لهذا الغرض.

ولعل مما يجدر ذكره في هذا السياق هو أن الاستشراق خضع خضوعًا مباشراً، في تاريخه القديم والحديث، لقوتين مهمتين من قوى العالم الغربي: هما: القوة السياسية الاستعمارية، والقوة الدينية الكنسية، وخضع في تاريخه الحديث لقوة جديدة هي: القوة اليهودية الصهيونية، فأصبحت ثلاث قوى تتحكم فيه، هي: الاستعمار والتنصير والصهيونية[٢]، وهذا الأمر حول الاستشراق إلى حركة تابعة للقوى السياسية والدينية الغربيةفي أغلب طروحاته، وإن كان يشذ عن ذلك بعض أفراده فيتمرد على ما رسم له ويغلبه الإنصاف والاعتراف بالحقيقة. ولا يتمتع بالاستقلالية المطلوبة في أي حركة علمية منصفة متوازنة، بل وبلغ الأمر أن أضحى مسمى الاستشراق منبوذًا حتى لدى المستشرقين واستبدلوا به مسميات أخرى ـ ستأتي ـ بسبب واقعه الذي استغل فيه لتحقيق أهداف استعمارية تنصيرية غير علمية ولا منصفة. ويستحسن بعد ذكر ما سبق؛ بيان أهداف الاستشراق وهي تتمحور حول ثلاثة أهداف:

١ـ الهدف الديني الصليبي: والمراد هو الانتصار للنصرانية في صورتها المشوهة التي شوهت حقيقة الدين الذي أنزل على المسيح عليه السلام، فالاستشراق يسعى ليحقق الهدف من الحملات الصليبية. ويمكن تلخيص ما قام به المستشرقون في هذا الجانب بما يلي:

أ ـالاستفادة من العلوم الشرعية في حركة التصحيح الدينية عندهم، وهذه قد تكون الدافع الأقوى عند المستشرقين الأوائل الذين درسوا في جامعات الأندلس، واستفادوا من علومها ونقلوها إلى أوروبا.

---

(١) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، أحمد السايح: ص(٤٦، ٥٠).

(٢) أزمة الاستشراق الحديث، محمد خليفة حسن: ص(٢١-٢٢).

ب / تشويه صورة الإسلام لحماية الغربيين أنفسهم من الدينونة بالإسلام، والدخول فيه، والحيلولة دون انتشار الإسلام بين الأوروبيين كما انتشر بين غيرهم من الشعوب، ويظهر هذا في المقررات الدراسية عن الإسلام عندهم، وموسوعاتهم العلمية وما يكتب عنه في وسائل إعلامهم، وهي معلومات منقولة من كتب المستشرقين التي تشوه الإسلام، وتظهره في أبشع صورة.

ج/ تشكيك المسلمين في دينهم، وإضعاف القيم الإسلامية عندهم؛ لإضعاف قوتهم والحيلولة بينهم وبين مصدر قوتهم الحقيقية من جهة، وبينهم وبين تصدرهم الأممي في القيم والأخلاق.

د/ إحياء ما اندثر من موروثات الفرق الضالة، والآراء الشاذة لتسهم في تفريق كلمة المسلمين، وإضعاف قوتهم،وانشغال المسلمين بعضهم ببعض ليتحقق لهم الإخفاق وذهاب الريح؛ انتقاماً لما حصل لهم في الحروب الصليبية على أيدي المسلمين، واستمراراً لهذه الحرب التي لم ولن تضع أوزارها حتى يقاتلهم المسلمون مع المسيح ابن مريم عليه السلام، آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير.

ه / التمهيد للتنصير في بلاد المسلمين، والعلاقة بين التنصير والاستشراق أوضح من أن تحتاج إلى دليل خاص، وأن أول قيامه كان على أيدي الرهبان كما تقدم، بل ذكرت الإحصاءات أن عشرين من تسعة وعشرين من طلائع المستشرقين كانوا منصرين أو رهباناً أو عاملين في الأديرة.

و / تمجيد القيم الغربية من يهودية ونصرانية، وذلك بمحاولة المقارنة بين الإسلام والديانات السابقة، ومحاولة نسبة الإيجابية والقيم الفاضلة في الإسلام إلى اليهودية والنصرانية، وإصرارهم على اعتماد الإسلام عليهما. ويؤكد ذلك أنه بدأ على أيدي الرهبان، ومعظم رجاله من رجال الكهنوت من اليهود والنصارى. وكان جل همهم الطعن في الإسلام وتشريعاته، وفي القرآن والسنة ونبينا محمد ﷺ وصحابته لتنفير الناس من هذا الدين. وهذه المطاعن هي التي يرددها بعض الكتاب والإعلاميين في العالم العربي اليوم.

٢ ـ **الهدف العلمي**: وهو المتوقع من حركة علمية فكرية تُعنى بالدراسات والأبحاث، والمراد هنا من سعى لتعلم علوم الإسلام بحثًا عن الحق وسعيًا للحقيقة والحقيقة فقط، ويمكن حصر هذه المرحلة ببدايات الاستشراق فقط على أنها لم تستمر زمناً طويلاً إذ سرعان ما أصابها التحول والانحراف حيث جانبها هذا الهدف إلى الأهداف الأخرى، غير أنه لابدّ

من التأكيد على أنه لم تَخلُ المراحل التالية من بعض من كان يسعى لأجل هذا الهدف وهم قلة قليلة. يقول أحدهم وهو "ثرينش": «إن أكثرية هؤلاء جاؤوا وهم يحملون الكره للإسلام، وجاء آخرون يدعون أنهم أبناء الإسلام، أما الباقون فجاؤوا وفي نيتهم أن يستغلوا الإسلام، لكن أحداً منهم لم يغادر هذه الأرض إلا وهو يكن للإسلام احتراماً عميقاً إلى أبعد الحدود، والبعض أشهر إسلامه، أما أولئك الذين لم يتغيروا خلال هذه التجربة العميقة فقد ماتوا بأيديهم»(١). ومن الإنصاف أن لبعضهم جهوداً إيجابية ومن أهمها حفظ كثير من تراث أمتنا الزاخر، وصيانته والعناية به بعد أن فقدنا كثيراً من نفائسه(٢).

٣-**الهدف الدفاعي**: وهذا الهدف غلب على المرحلة الأولى حيث حاول مقاومة الإسلام من أن يغزو بني جنسهم، أو أن ينتشر في بلدانهم أو البلدان التي ليس لها ديانة خاصة.

٤/ **الهدف الاستعماري**: ولذلك قيل: إن الاستشراق كمنهج عقلي لقاح من أبوين غير شرعيين؛ التنصير الذي خطط له، والاستعمار الذي غذاه واستثمره. وفي هذا يقول الأستاذ أحمد سمايلوفتش في كتابه فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي: (لقد ظل هدف الاستشراق والاستعمار واحداً لفترة طويلة من الزمن، وإن كان الأول يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعين أمنه ليصيب أهدافه ويحقق آماله فما عليه إلا أن يبدأ بالتشكيك في قيم الشعوب المغلوبة والسخرية منها ومن دينها وشخصية نبيها وهدم الإسلام فكرياً وحضارياً، وعلى الثاني أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعياً وعملياً كما كان الاستشراق حريصاً على تدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين يحملون جميعاً أيديولوجية الغرب وعقليته ضد الشرق وحضارته، وعلى الاستعمار أن يتبنى هؤلاء ويساعدهم وينفذ خططهم. بل يعلنها المستشرق "ماسنيون" صريحة بقوله عن أبنائنا المبتعثين للدراسة هناك: «إن هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أعواناً لنا في بلادهم»(٣) لكن الله سيخيب آمالهم بإذن الله.

---

(١) قافلة الخير: في الجزيرة العربية والخليج، سمير عطا ص٤٧.

(٢) من كتاب " مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية " بيان وإيضاح لبعض الجوانب الايجابية في دراسات المستشرقين، وقد قام بنشر الكتاب مكتب التربية العربي لدول الخليج والمنظمة العربية للتربية والثقافةبالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٣) من التبعية إلى الأصالة، أنور الجندي ص٦.

٥/ الأهداف السياسية والاقتصادية: وهذا ظاهر جلي في اعتماد صانعي القرار السياسي إلى حد كبير على الدراسات التي يقوم بها المستشرقون عن بلاد المسلمين ودينهم، أما العاملون في الملحقيات الثقافية والإعلامية في السفارات والقنصليات الغربية في البلاد الإسلامية وما يرفعونه لحكوماتهم من تقارير عن المسلمين وأوطانهم وعما يبثونه من أفكار استشراقية استعمارية تخدم أهدافهم عن طريق وسائل إعلام البلاد الإسلامية والسماعين لهم من المتنفذين في تلك الوسائل، وعن طريق إقامة العلاقات والطروحات الفكرية والثقافية بينهم فهو أمر غير خاف على متأمل، وهو صورة من صور واقع الاستشراق اليوم، علماً بأن هناك فيهم ـ كما قدمنا ـ من كان هدفه العلم المجرد، ومنهم من كان هدفه شخصياً أو تجارياً لكنهم قلة بالنسبة لأصحاب الأهداف السابقة.

واقع الاستشراق اليوم:

لعلّ واقع الاستشراق اليوم والتحولات التي طرأت عليه تبرهن التبعية الكاملة للاستعمار، ذلك أنه قد طرأت عليه تغييرات كبيرة حيث نجد أن هذه المسميات قد اختفت وظهرت مسميات أخرى تتفق معه في الهدف وتختلف في الطريقة والمسمى على النحو التالي:

١ـ ضعف الانتماء لدى المستشرقين إلى النصرانية كديانة، وذلك مع انتشار موجة العلمانية؛ من خلال السعي إلى تغريب العالم الإسلامي؛ لا بتحويله إلى النصرانية بل لفرض الثقافة الغربية ونظم الحضارة الغربية بين المسلمين، وهذا لا يعني اختفاء الاستشراق الخادم للتنصير؛ بل إنه لا زال موجودًا من خلال تحقيق الإستراتيجية التنصيرية التي تهدف إلى إبعاد المسلم عن دينه، وهذا ظاهر اليوم، وأيضاً وجود مدارس أخرى في الاستشراق مستمرة على النهج القديم التنصيري.

٢-غياب الاستشراق التقليدي وظهور لون جديد من الاستشراق يتمثل في ظهور مراكز علمية جديدة ذات طابع مختلف نوعًا ما اتخذت مسميات مختلفة منها: مراكز بحوث الشرق الأوسط، وبعضها اتخذت مسميات أكثر إقليمية أو تخصصت في مجال معين من مجالات الدراسة في الشرق الأوسط كالسياسي أو الاقتصادي أو الأدبي أو غيرها.

كما يلاحظ أيضاً مع غياب المستشرق التقليدي ظهور الباحث الأكاديمي أو ما يسمى بالخبير الغربي في شؤون الشرق الأوسط، أو الخبير الغربي في الأقاليم العربية والإسلامية، وتحول اهتمامها من أن يكون منصباً على الجوانب الدينية بالدرجة الأولى إلى العناية بالأوضاع السياسية والاقتصادية الحديثة للعالم الإسلامي والعربي، والتركيز على الجوانب الدينية المرتبطة

بالدور السياسي والاقتصادي للدين في الحياة بالمجتمعات الإسلامية، وهذا الدور كان يلعبه فيما مضى المستشرق التقليدي كجزء من عمله، لاسيما وأن جل المستشرقين القدماء عملوا في الدوائر الاستعمارية كسفراء ودبلوماسيين وموظفين في بلاد الشرق، وأصبحوا خبراء يستعان بهم في هذا الأمر من قبل حكوماتهم(١).

ولعلّ من أبرز إفرازات هذه التحولات التي طرأت على الاستشراق هو أنها دفعت المراكز الاستشراقية التقليدية إلى التحول إلى مراكز بحوث تعنى بما تعنى به مراكز البحوث الجديدة، ومن أبرز الأمثلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن التي تحولت إلى عدد من مراكز بحوث الشرق الأوسط، وغابت مجلة جمعية الدراسات الشرقية، لتحل محلها مجلة شؤون الشرق الأوسط(٢).

(١) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، محمد خليفة حسن: ص(٨٤-٩٢).

(٢) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، أحمد السايح: ص(٥٧).

المبحث الثاني

التيارات الفكرية المنحرفة وأثرها على المجتمع الإسلامي

لا شكّ أن الإنسان اجتماعي بالفطرة وهي ضرورة لحياته، وهذه طبيعة غرسها المولى عز وجل فيه حينما خلقه، ولما هبط آدم إلى الأرض لم يهبط وحده بل مع زوجه، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: ٣٨]، ومن مقتضيات اجتماع البشر أن يتأثر بعضهم بأفكار بعض وسلوكهم، فلا يمكن الحجر على الفكر أو التحرز من تأثير الأفكار؛ وذلك لأنها ليست مادة يمكن السيطرة عليها ومنعها عن الناس، وقد حاول البشر ذلك فلم ولن ينجحوا.

ولقد طرأ على المجتمعات الإسلامية في عصور التأخر والتخلف كثير من الأفكار والمذاهب التي نشأت في المجتمعات الغربية المتطورة مادياً؛ مما سوغ كثيراً من تلك الأفكار حتى زعم البعض أن سر تطور تلك المجتمعات المادي يرجع إلى ما يطبقونه من أفكار ونظم اجتماعية، وسعوا جاهدين في تطبيق تلك الأفكار في المجتمعات الإسلامية ضاربين عرض الحائط بما لدى المجتمعات الإسلامية من نظم وتشريعات سماوية متكاملة تشمل جميع مناحي الحياة؛ لاسيما الجانب الاجتماعي، لكنهم كانوا في اندفاع لا يفسره إلا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته من أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، وذكر أن السبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيم، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا كان ذلك انتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به[1].

ولأجل ذلك فإنه لا يستغرب موقف كثير من أبناء المسلمين الذين أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام التقدم المادي المذهل للغرب، حتى أصبح كل ما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادئ والنظريات مدعماً ببأس الحديد معززًا بقوة الحجاج وشواهد العلم، ومزخرفاً بفاتن الألوان؛ أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة -هؤلاء- منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها واستقر في سويداء قلوبهم - من حيث لا يشعرون- أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقياس للصحة والصواب.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون: ص(١١٦).

هذا على الرغم من وجود كثير من التناقضات التي يبوء بها كاهل منهج الحضارة الغربية حيث تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأعمال[١]، الأمر الذي أربك دعاة التغريب في المجتمعات الإسلامية -لاحقاً- لاسيما بعد ظهور زيف كثير من المبادئ والأفكار الغربية التي كان أولئك يدعون إليها ويبشرون بها بصورة جلية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما أعقبها من تدمير لأفغانستان، ثم العراق بعد ذلك في تجلٍّ واضح ومصادمة جلية للمبادئ التي كان يدعو إليها ويبشر بها.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا؛ موقف أولئك الذين خذلهم الغرب من خلال الممارسات التي جاءت مخالفة لما كان يبشر به دعاته في العالم؛ لاسيما البلاد الإسلامية إذ تنوعت ردود أفعالهم على ثلاثة أشكال:

- فريق رجع عن تلك الأفكار وإن بقي معه شيء من لوثتها.

- وفريق حاول أن يؤسلم جملة من تلك الأفكار والمبادئ فظهرت العلمانية التي ترتدي ثوب الإيمان.

-وفريق استمر على غيه بل غلا وزاد فأصبح غربياً في أفكاره أكثر من الغربيين أنفسهم.

ولعل من أبرز وأهم التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة التي دخلت على المجتمعات الإسلامية وكان لها أثر بالغ فيها ما يلي:

أولاً: العَلْمَانية:

تعرف "الموسوعة الحرة" على الشبكة العالمية للمعلومات العلمانية بقولها: تأتي كلمة علمانية من الكلمة الإنجليزية Secularism (سيكيولاريزم) وتعنى إقصاء الدين والمعتقدات الدينية عن أمور الحياة[٢]، ويذهب آخرون إلى أن العلمانية هي الترجمة العربية لكلمة [Secularism, Secwarita] في اللغات الأوروبية حيث يقصد بها: إقامة الحياة بعيدًا عن الدين أو الفصل الكامل بين الدين والحياة، كما تعرف دائرة المعارف البريطانية العلمانية بأنها: حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة

(١) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص(٨١).

(٢) موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، http: //ar. wikipedia. org (مفردة العلمانية).

الدنيا وحدها[١].

من خلال ما سبق يتضح ضعف التعبير الشائع عن العلمانية بأنها فصل الدين عن الدولة إذ لا يعطي المدلول الكامل والحقيقي للعلمانية والصواب أن يقال: فصل الدين عن الحياة، فالعلمانية باختصار تدعو إلى إقامة الحياة على غير الدين، وهي تنقسم في الواقع التطبيقي بعد ظهورها إلى قسمين:

- علمانية غير معادية للدين ولا قامعة له، ولكنها تكاد تلغيه؛كعلمانية العالم الغربي.
- علمانية متطرفة محاربة للدين، كعلمانية الشيوعية والعلمانية الإلحادية في العصر الحاضر.

ولكن على الرغم مما بذله دعاة المنهج العلماني في العالم الإسلامي إلا أنه واجه حملة كشفت حقيقته في العالم الإسلامي مما جعله غير مقبول عند عموم الشعوب الإسلامية لمعرفتهم بحقيقته؛ الأمر الذي ألجأ دعاة العلمانية إلى الخروج ببدعة جديدة وهي إعطاء العلمانية زخماً دينياً لكي يمنحها قبولاً في المجتمعات الإسلامية فأطلقوا ما يسمى بـ "العلمانية المؤمنة" التي يعرفونها بأنها: حرية المعتقد على الصعيد الفردي، تسمح بممارسة الشعائر الدينية جماعياً لأي كيان اجتماعي، مهما صغر أو كبر، متمتعاً بقدر وافٍ من الاستقلالية عن سلطة الدولة وهي تعني مواطنة بلا دين[٢]، والمتأمل لهذا التعريف يجد أنه لا يقدم أي جديد، فهذه العلمانية في قسمها الذي لا يحارب الدين، الجديد فقط: الاسم الذي قد يسوغ عند بعض العوام أو أشباه العوام قبول المنهج العلماني لأجل أنه ألحق به مسمى (المؤمنة).

إن كل من اطلع على فكرة المنهج العلماني يستطيع أن يدرك أن هذا المنهج مخالف للإسلام، جملة وتفصيلاً مهما حاولوا إظهاره بأنه لا يصادم الإسلام، فالإسلام دين شمولي لا يقبل بحال من الأحوال -في أصوله وجذوره ومرتكزاته- ذلك الفصل الذي يمثل العمود الفقري للعلمانية؛ إذ هم -العلمانيون- يحصرون دور الدين في علاقة العبد بربه، ويرفضون أن يتعدى ذلك لينظم باقي مناحي الحياة. وهذا يخالف منهج الإسلام، وهو أمر يدركه من كان له أدنى بصيرة ومعرفة بحقيقة الإسلام كدين جاء ليكون حاكماً على الحياة في مختلف مناحيها وجوانبها.

---

(١) مثل قاموس العالم الجديد: لوبستر، ومعجم أكسفورد، والمعجم الدولي الثالث الجديد: انظر العلمانية، د. سفر الحوالي: ص(٢١-٢٤).

(٢) جريدة الشرق الأوسط، عدد ٩٠١٠، الأربعاء ١/ ٥/ ١٤٢٤هـ، غانم جواد.

ويكفي أن نعلم أن العلمانية ترتبط في ظهورها بعصر الثورة على الدين في الغرب في القرن الثامن عشر؛ وذلك على يد رجل يعرف بجورج هوليواكي وهو بريطاني ملحد؛ وذلك عام ١٨٤٦م[١]، كما ظهرت فكرتها في الهند وحصلت على دعم كبير من الهندوسيين، ففكرة العلمانية مرتبطة بمحاولة إضعاف دور الدين في الحياة.

ونظراً لكون العلمانية فكرة غربية فقد تبناها الغرب وأصبحت من القضايا المسلم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية، وأصبح الضغط منصباً على جعلها النظام السائد في كل دول العالم[٢].

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى الأمور التالية:

-العلمانية تُعد منهج حياة يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو يمكن أن يقال عنها: إنها (إيديولوجيا-عقيدة- تشجع المدنية والمواطنة وترفض الدين).

-العلمانية حديثة الوجود غربية الأصل، فرض وجودها ظروف عاشها العالم الغربي تحت ضغط الكنيسة التي وظف رجالها الدين في الضغط على الناس واستعبادهم.

-اضطراب تطبيقات العلمانية لدى المتبنين لها من العالم الإسلامي، فليس هناك رؤية واضحة ولا فكرة متفق عليها عندهم.

ثانياً: العولمة:

العولمة في اللغة: العولمة تعني إكساب الشيء طابع العالمية أو أنها تصيير المحلي عالمياً.

أما تعريف العولمة وتوصيفها العقلي العملي فهو أمر مختلف فيه بشكل كبير حيث نجد أن البعض يحصرها في جانب أو جوانب من النشاط الإنساني، فتجد من يقصرها على النشاط الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو التجاري أو الثقافي، والصحيح هو أن العولمة في مدلولها الأعم الأشمل هو: صيرورة العالم واحداً[٣]، وهو ظاهر الدلالة على محاولة صبغ العالم بصبغة واحدة من خلال توحيد النظم والرؤى والمنطلقات بحيث تلغى قضايا التفرد والخصوصية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويصبح العالم بمختلف تقسيماته

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، علي جريشة: ص(٧٥).

(٢) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص(٩٠).

(٣) العولمة والعالم الإسلامي أرقام وحقائق، عبد سيد عبد إسماعيل: ص(٣٨).

عالماً واحداً.

ويعرفها آخر بقوله: (العولمة هي التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة ودون حاجة إلى إجراءات حكومية)[١].

فالعولمة ليست تعريفًا جامدًا لحركة ثقافية فحسب، بل هي أكبر من ذلك بكثير؛ فهي ليست مصطلحًا لغويًا قاموسيًا جامدًا يسهل تفسيره بشرح المدلولات اللغوية المتصلة بها، بل العولمة مفهوم شمولي يذهب عميقًا في جميع الاتجاهات لتوصيف حركة التغيير في سيرورتها المتصلة، ولأجل ذلك فالأمر المهم في الموضوع هو فهم كنه العولمة ومضمونها[٢]، إذن فهي حركة تغيير شاملة من ناحيتين: الناحية الأولى أنها شاملة للجميع يعني للعالم كله لا مناص لأي أحد عنها، والناحية الأخرى أنها شاملة لكل جوانب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها

هذا المفهوم وصل إليه جموع من المثقفين الغربيين وغيرهم ورأوا في العولمة أنها في حقيقتها إرادة للهيمنة من خلال القمع والقضاء على الخصوصي، إذن العالم الواحد الذي يُراد الوصول إليه هو المتمثل في النموذج الغربي والذي يحقق مصالح الغرب، وهذا أمر ظاهر وواضح غاية الوضوح وذلك أن العولمة تقتضي توحيد النظم والقيم وغيرها حسب النظام الغربي. فالغرب هو الذي سيتولى تحديد معايير القيم ومواصفاتها، وهو الذي يوجه هذه العولمة، فإن هذه العولمة ستكون مصبوغة بالصبغة الغربية فلسفة ونمط حياة، وهذا القول ليس استنباطاً فحسب بل هو الحقيقة المعلنة التي تظهر في أطروحات مثقفي الغرب وصانعي القرار فيهم، يقول أحدهم[٣]: «يتعين على الولايات المتحدة ألا تتردد في الترويج لقيمها وسعيها لأن يكونوا مهذبين أو سياسيين، ينبغي على الأمريكيين ألا ينكروا حقيقة أنه بين كل الأمم التي عرفها تاريخ العالم، فإن أمتهم هي الأكثر عدلاً والأكثر تسامحاً والأكثر حرصاً على إعادة تقييم الذات وتحسينها وهي النموذج الأفضل للمستقبل، ويتعين على الأمريكيين أن يروجوا

(١) مقال بعنوان: الاقتصادي والسياسي والعولمة، مصطفى العبد الله الكفري: موقع الحوار المتمدن : ٣٤٩ .www. rezgar. com/w. asp?l.

(٢) العولمة والعالم الإسلامي، عبد سعيد عبد إسماعيل: ص(٤٤).

(٣) هو ديفيد روشكويف أستاذ جامعي ومسؤول في حكومة كلنتون سابقاً.

لرؤيتهم للعالم لأن الفشل في القيام بذلك أو تبني موقف "عش ودع غيرك يعيش" يعنيان التنحي، فهل تبنى قادة أجانب كنماذج تشجع النزعة الانفصالية والصدوع الثقافية التي تقوض الاستقرار، ويمثل تهديداً لصالح الولايات المتحدة وللسلام الإقليمي وللأسواق الأمريكية ولقدرة الولايات المتحدة على القيادة؟ إن الإجابة هي نعم بالتأكيد)[1]، وهي كذلك سوف تكون مفصلة على ما يحقق مصالح تلك القوى ويحفظ لها موقعها المتفوق وريادتها الحضارية ويُبقي عالم الضعفاء اتباعاً مهمشين منجذبين من أنفسهم أو بسلطان العولمة نحو التبعية لتلك القوى.

ولعل من أبرز ما أسهم في فرض العولمة ما حدث في نهاية القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين من تطورات هائلة في مجال التكنولوجيا، لاسيما في مجالي الاتصالات والمواصلات الدولية، حيث أصبح من الممكن القول: إن العالم أصبح قرية واحدة، من خلال سهولة التواصل العالمي بانتقال الأفكار والمبادئ والقيم فضلاً عن الأمور المادية المتعلقة بالاقتصاد وغير ذلك، وهذا يجرنا إلى الحديث عن الوسائل التي يتم فرض العولمة من خلالها، والتي من أبرزها:

أ - **الإعلام**: فالإعلام هو الوسيلة الأبرز لاسيما في الجانب الأخطر وهو الجانب الفكري والثقافي، الذي يهدف إلى إعادة بناء المنظومة الفكرية والثقافية في العالم بما يتوافق مع فكر معين، ولا شكّ أن الإعلام بمختلف جوانبه ومناشطه الصحفية والكتب والمؤلفات ومواقع الإنترنت والأفلام وغيرها استطاعت أن تحقق تقدمًا رهيبًا في هذا الباب وهو أمر مشاهد وظاهر في جميع دول العالم، ويكفي أن أشير هنا إلى ما تحققه أفلام هوليود الأمريكية من تأثير بالغ على عقليات الشباب في محاولة إبراز الأمريكي والغربي عمومًا وجعله النموذج المتميز الذي يستحق أن يسار على نهجه ويقتفى أثره.

ب - **الغزو والاحتلال والاستعمار**: وهي وسيلة قديمة حديثة حيث عادت بصورتها الجديدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في محاولة لإزالة كل ما يعترض طريق العولمة وتنصيب من يسهم في امتدادها ويدعمها.

ج - **الضغوط الاقتصادية والسياسية** والتهديدات العسكرية، وهذا لا شك من الوسائل التي أتاحت فرض توجه واحد وفكرة واحدة، إلى غير ذلك من الوسائل.

---

(١) العولمة الغربية (الصحوة الإسلامية)، عبد الرحمن الزنيدي: ص(١٨-١٩).

ولا بدّ هنا أن نقول: إن العولمة لم تكن كما كان يرجى لها وذلك بأن تسود العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خبرات بعضهم من بعض، بل عادت العولمة أن تكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى[١]؛ ولذا أفرزت سلبيات عظيمة. ولعل من أبرزها في الجوانب الاقتصادية والثقافية:

أولاً: الاقتصاد: ارتبطت العولمة بالمؤتمرات والمنظمات الاقتصادية كمنظمة " الجات " وبعدها منظمة التجارة العالمية والمؤتمرات الدولية التي تعقدها كمؤتمر دافوس وغيره مما كان على نسقه، وكلها تتجه إلى تحرير الأسواق وخصخصة المؤسسات وانسحاب الدولة من الدعم الاقتصادي للمؤسسات الوطنية، بل وانسحابها حتى من وظائفها الاجتماعية المرتبطة بالجانب الاقتصادي كالرعاية الاجتماعية، وظاهر في تلك المنظمات والمؤتمرات سعيها الحثيث لفرض مصالح الدول الأقوى اقتصاديًا على ما سواها، بل وسحق ما سواها لأجل مصالح الأقوياء، وتحويل شعوب الأرض سوى الأقوياء إلى مستهلكين فقط يعيشون عالة -في الجانب الصناعي- على الأقوياء.

والأمر الذي لا شك فيه أن السبق والغلبة ثم الهيمنة هي للأقوى اقتصادياً، والاندحار ومن ثم الانهيار من نصيب الضعفاء اقتصادياً، وهذا يفسر لنا سبب الإلحاح المستمر من الغرب، وبالذات أمريكا، على حشد دول العالم نحو الانخراط في المنظومة الاقتصادية الغربية تحت مظلة العولمة، والترهيب من التخلف عن ذلك.

ثانياً: الثقافة: المراد بالثقافة هنا هو ذلك الكل المتجانس والإبداعات والقيم والأفكار والمعايير والرموز والتعبيرات والإبداعات وأنماط العيش التي تشكل قوام حياة المجتمع[٢]، وظاهرة خطورة العولمة التي تسعى إلى صياغة ثقافة كونية شاملة تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية[٣]، التي تتوافق بطبيعة الحال مع نسق الحياة والثقافة الغربية حيث تسعى القوى الغربية، وعلى رأسها أمريكا، إلى إيهام الشعوب على المستوى العالمي والضغط على الحكومات

(١) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص(١٤١).

(٢) العولمة، عبد الكريم بكار: ص(٨٣).

(٣) ظاهرة العولمة: ص(١٠٤).

بوجوب الانتماء إلى ثقافة عالمية واحدة، وطمس الفروق الحضارية بين المجتمعات، مع الإيمان بأن الثقافة العالمية يجب أن تستمد من الثقافة المركزية الغربية المهيمنة نظراً لتفوقها التكنولوجي الهائل وتعاظمها الاقتصادي وامتلاكها لمعظم الإدارات الإعلامية وشبكات المعلومات المتقدمة على المستوى العالمي، في خضم ذلك ستجد الشعوب نفسها سائرة في فلكها دون اختيار(١).

ولعل أبرز المخاطر الثقافية التي تواجهها شعوب الأرض التسلط على هوية الشعوب للعبث بها أو إلغائها؛ ذلك أنه لا يراد البقاء إلا لهوية واحدة وهي هوية القوى الذي لا يريد أي مقاومة، ولأجل ذلك فقد سخر العولمة لطمس المعالم الشخصية التي تميز كل أمة، ثم ماذا؟ ثم صَبْغُ الجميع بالشخصية الغربية، ثم التبعية الكاملة للغرب، والضرر يتفاوت من أمة لأمة ومن شعب لشعب، وذلك على مقدار بعدها وقربها من الأسس التي تقوم عليها ثقافة الغرب وقيمه وتطلعاته.

والمتأمل لكثير من المجتمعات الإسلامية يجد طمسًا واقعًا في كثير من معالم الشخصية الإسلامية، ولعل من أبرز ذلك ما يظهر من الزي واللباس الذي أصبح يلفظ المحلي ويتجه بقوة نحو الغربي لاسيما لدى الشباب، ثم اللغة التي ضعف الاهتمام بها في مقابل العناية الفائقة باللغة الإنجليزية، ولا شك أن ذلك، وإن كان يبدو أموراً شكلية، إلا أن التغيير غالباً ما يبدأ كذلك؛ والأمر الذي لا بد أن يتنبه له هو أن مخاطر العولمة على الهوية إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة والوطن والثقافة والأمة؛ إذ هي تعني بلا شك مزيدًا من تبعية الأطراف للمركز تجميعًا لقوى المركز وتفتيتاً لقوى الأطراف، ومن خالف ذلك أو لم يستجب له فإنه يجلد بسياط حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات والحريات الدينية وحقوق المرأة بل يتجاوز الأمر ذلك للدعم المباشر للمتبنين للعولمة والتبعية المطلقة والضغط على الحكومات لأجلهم(٢).

ثالثاً: الليبرالية:

هي كلمة أعجمية وليست عربية، ترجع إلى اللغة اللاتينية وهي مشتقة من (ليبر) Liber

---

(١) الخروج من فخ العولمة، كمال الدين عبد الغني المرسي: ص(١٨).

(٢) انظر: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، حسن حنفي: ص(٣٣) (ضمن مطبوعات جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، الأردن، ضمن مؤتمر (العولمة والهوية) منشورات الجامعة عام ١٩٩٩م، الأردن)، و العولمة، عبد الكريم بكار: ص(٨٥).

وتعني الحر، وهي تطلق الآن ويراد بها حركة أو مذهب له فكر معين لا نستطيع أن نحدد له تعريفًا دقيقًا يمثل مفهوم الليبرالية، والسبب في ذلك يرجع إلى عدم الثبات الذي يعاني منه هذا المذهب، وهو أمر يعترف به أربابه والدارسون له، جاء في الموسوعة العربية العالمية: وتعتبر الليبرالية مصطلحًا غامضًا لأن معناها وتأكيداتها تبدّلت بصورة ملحوظة بمرور السنين(١)، وجاء في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا): الليبرالية تتعدد بتعدد الليبراليين، وكل ليبرالي فهو مرجع ليبراليته، وتاريخ الليبرالية المشحون بالتجارب الليبرالية المتنوعة والنتاج الثقافي المتمحور حول قيم الليبرالية كلها مراجع ليبرالية لكن أياً منها ليس مرجعًا ملزمًا، ومتى ألزم أو حاول الإلزام سقط من سجل التراث الليبرالي(٢).

ولأجل ذلك نجد أن تحديد مفهوم دقيق لهذا المصطلح أمرٌ في غاية الصعوبة.

ولو أردنا العودة لتاريخ هذا المذهب لعلنا من معرفة تاريخه نستطيع أن نستوضح معالمه لقلنا: إن الليبرالية ظلت في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى نحو ثلثي القرن التاسع عشر (القرن الذي برزت فيه الليبرالية(٣) تعني اعتناق المذهب الاقتصادي القائل بحرية العمل (Laissez Faire)، ثم تطورت مع مرور الوقت وأصبحت تحمل مبادئ مرشدة ومواقف موجهة أكثر رسوخًا من مجرد حرية العمل، لكنها لم تبعد عن المجال الاقتصادي على الرغم من النزعة الاجتماعية التي طرأت عليها؛ إذ تفترض الليبرالية دائماً أن زيادة الرفاهية المادية، وإن لم تكن تضمن الفضيلة دائماً، إلا أنها تزيل السبب الأصلي للرذيلة(٤).

أما من الناحية السياسية -وكذا الاجتماعية- فنظرة الليبرالية كانت دومًا لها نظرة علمانية، وهي تدعم بشكل قوي فصل الدين عن الدولة، بل وتنفر من سيطرة الدين وأهله على نواحي النشاط الاجتماعي والتعليم والسياسة.

ولعل من أبرز نتاج الفكر الليبرالي في المجال السياسي "الديمقراطية" حيث إنها تعطي جملة من الحريات السياسية مثل حرية الترشيح، وحرية التفكير والتعبير، وحرية الاجتماع، وحرية الاحتجاج، كما تعطي جملة من الضمانات المانعة من الاعتداء على الأفراد وحرياتهم

---

(١) عن: الليبرالية نشأتها ومجالاتها، عبد الرحيم السلمي. (موقع ليبرالي lebraly. com).

(٢) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا wikipedia. org).

(٣) الليبرالية، صلاح نيوف: (مقال) (موقع الرأي Arraee. Com).

(٤) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل، ترجمة: نقولا زيادة: ص(٣٦، ٣٧).

مثل ضمان الاتهام، وضمان التحقيق، وضمان التنفيذ، وضمان الدفاع.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد مفهوم دقيق للّيبرالية إلا أن هناك جوهراً أساسياً يتفق عليه جميع الليبراليين يتكون من عناصر أهمها:

١-أن الفرد هو الأساس، ومن هذا الفرد وحوله تدور فلسفة الحياة برمتها وتنبع القيم التي تحدد الفكر والسلوك معًا يقول "تشارلز فرنكل": (وقد دأب الليبراليون منذ لوك وفولتير على القول بأن تقييم رأي اجتماعي أو نظام سياسي لا يتطلب أكثر من استرشاد بمصالح الإنسان ومهامه وميوله في الحياة الدنيا)(١).

كما ترى الليبرالية مبدأ أولوية الفرد على الجماعة، ويعد هذا الخط الرئيس للفكر الليبرالي الأمر الذي دفع بعض الليبراليين إلى تعريف المجتمع باعتباره «مجموعة من الأفراد يسعى كل واحد منهم لتحقيق مصالحه واحتياجاته»، ويطلق على هذا الرأي المذهب "الذري" حيث ينظر للأفراد كذرات متنافرة بداخل المجتمع، وهذا التفكير يؤدي إلى فكرة مؤداها أنه لا وجود للمجتمع بل هو متخيل فهو مجموعة من الأفراد المكتفين ذاتياً(٢)، أو قد يقال: إنه فكر يحمل أكبر حالات الصراع الكل ضد الكل(٣)، فالفرد كل فرد يسعى لتحقيق مصالحه واحتياجاته، ويرى أنه لا يمكن لأحد أن يقف في طريقه، والنتيجة صراع لا نهاية له.

٢-تنظر الليبرالية إلى العقائد الدينية والفلسفية على أنها أمور شخصية قد تكون لها أهمية قصوى في خلاص الفرد وفهمه معنى الحياة، ولكن دون أن يكون لها أي قيمة سياسية في حد ذاتها.

٣-ترى أن النزاع على السلطة هو الحقيقة الثابتة في الحياة السياسية، وقد طرح هذا عدد كبير من الكتاب الليبراليين من جون لوك، إلى جيمس مل، إلى برتراند رسل، إلى ج. ك. غولبريت وتنطلق الفكرة من اعتقادهم أن المصدر الأكبر للظلم الاجتماعي هو احتكار السلطة في يد جماعة واحدة سياسية أو اجتماعية أو دينية، والسبيل الوحيد في نظرهم - لاتقاء

(١) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل، ترجمة: نقولا زيادة: ص(٣٧).

(٢) الجوهر الليبرالي: فردانية القيم والتصورات، هبة رؤوف عزت: (مقال) (موقع إسلام أون لاين .www islamonline. net).

(٣) الليبرالية، صلاح نيوف: (مقال) (موقع الرأيArraee. Com).

قيام الظلم الاجتماعي هو أن توازن القوة بالقوة[١].

٤-لا تعترف الليبرالية بمرجعية مقدسة إذ ترى أنها لو قدست أحد رموزها إلى درجة أن يتحدث بلسانها، أو قدست أحد كتبه إلى درجة أن تعده المعبر الوحيد أو الأساس عنها لم تصبح ليبرالية ولأصبحت مذهبًا منغلقاً على نفسه.

ما سبق يعطي الملامح الأوضح لهذا الفكر المسمى الليبرالية، ولعل المطلع عليه وعلى أطروحات أربابه يلاحظ أموراً أهمها:

١-أن الفكر الليبرالي ينطلق في بنيته الأساسية من السعي الحثيث في محاولة معرفة الآخر من خلال ما قدمه هذا الآخر عن نفسه وليس من خلال قراءته قراءة نقدية؛ متجاوزًا الأهم والأولى وهو معرفة الذات بجميع خصائصها ومميزاتها، بل متجاهلاً لها متجاوزًا إياها عن عمد[٢]، ولذلك نجد الأطروحات الليبرالية فيها من التمجيد والتعظيم والإجلال لنظريات لا ترتقي لما يوجد من أنظمة في الشريعة الإسلامية التي على الرغم من حسنها الذي شهد به الأعداء وكثرتها وتعدد مجالاتها؛ لم تلفت نظر هؤلاء ولم يعنوا بها كعنايتهم بما يطرح في الغرب من أفكار لا ثبات لها ولا اتزان.

٢-الفكر الليبرالي من اسمه يلاحظ أنه منتج غربي كان نتاج واقع عاشه المجتمع الذي ظهر فيه هذا الفكر، وهذا الفكر قد يكون أثمر في ذلك المجتمع وأدى نتائج مقبولة فهو متميز بالنسبة للمستفيدين منه، ولكن قد لا يكون كذلك لدى مجتمعات لم تستفد منه، بل لا تحتاج إليه أصلاً، وهنا لا بد أن نشير إلى أن الفكر الليبرالي لم يقرأ قراءة نقدية ممن أعجب به من الليبراليين العرب، بل أخذهم الإعجاب بالحضارة المادية الغربية فاعتقدوا أن الرقي بمجتمعاتهم لا يكون إلا بسلوك نفس الطريق والنسج على منوال القوم فركبوا موجة هذا الفكر دون وعي بمضامين -لدى البعض- وحاول غرسه في المجتمعات العربية، كما أن فئاماً منهم قد ضاقوا ذرعاً بمكانة الدين لدى المجتمعات العربية وإقبالهم عليه؛ فرأوا أن وجود مثل هذا الفكر الذي يدعو إلى الحرية سبيل لتهميش الدين ومن ينتمون أو يدعون إليه فكانت عنايتهم بهذا الفكر؛ ولو أنهم قرؤوا هذا الفكر قراءة نقدية لوجدوه خالياً من المقومات

(١) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل: ص(٣٧).

(٢) انظر: هل للفكر العربي الحديث من فلسفة، ماجد صالح السامرائي، (awu-dam. org)مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق (عدد ٢١، السنة ٨، شتاء ٢٠٠٥م).

الأساسية للنظم الحقة التي تحمل في طياتها أبرز أسس البقاء والتي على رأسها الثبات والتوازن؛ إذ هي منتج بشري ولا يمكن لأي منتج بشري أن يحمل الثبات؛ ولذا نجد أرباب هذا الفكر يعترفون بعدم ثباته (الليبرالية تكاد تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع من يتمثلونها، لا يمكن أن أحاسب ليبرالياً ما بقول يقول به ليبرالي آخر؛ لأن كلاً منهما مسؤول عن ليبراليته وليس عن ليبرالية الآخرين، كما أن تيارات الليبرالية متنوعة فمنها ما ينحو منحى إيمانياً يكاد أن يعم جميع أفراد التيار، ومنها ما ينحو على الضد من ذلك[١]، فهل مبدأ كهذا يحمل في مضامينه نظاماً يمكن أن يسير عليه مجتمع ما.

أما التوازن فظاهر الشطط في هذا الفكر الذي يقدس الفرد ويجعله المحور الذي يدور عليه مهمشاً المجتمع بل موجدًا للعداوة بين المجتمع والفرد، فالليبرالية كانت دائماً في الجانب الذي يدعو إلى التحرر من القيود التي تربط الناس ربطًا وثيقًا بأي فئات اجتماعية، بمعنى أنهم يسعون لإلغاء أي سلطة يمكن أن تسيطر على الفرد[٢]، وهذا أمر لا شكّ مدمر للمجتمع إذ لا يستقر المجتمع بمثل هذه النزعة الفردية ولا بضدها، بل بهما معًا، وسبق بيان شيء من ذلك.

٣- تضارب آراء مفكريهم في أساس الفكر الليبرالي وهي الحرية، فبينما لا يقبل الكثير من الليبراليين بالحرية المطلقة، بل يذهب جون ستيوارت ميل إلى أن المسوغ الوحيد لممارسة القوة، بشكل صحيح تجاه أي عضو في المجتمع المتحضر والتي تكون ضد إرادته، هو منع الضرر عن الآخرين بمعنى أنه هنا يسلب الحرية، ثم نجده يذهب في رأي آخر إلى رفض أي قيود تفرض على الفرد لمنعه من تدمير نفسه جسمانياً أو أخلاقياً، وبهذا يرفض القوانين التي تجبر سائقي العربات على ربط حزام الأمان، أو سائقي الدراجات النارية ارتداء الخوذة، ويساويهما تماماً بالرقابة التي تمنع الأفراد من القراءة أو الاستماع إلى رأي ما، بل ويدافع أصحاب الفكر التحرري المتطرف عن حق الفرد ما يشاء بما في ذلك تناول المخدرات[٣]، ولا شك أن هذا من التضارب الذي يدل على وجود خلل في المنهجية التي يعتمد عليها أرباب هذا الفكر؛ إذ كيف يتم فرض حماية الآخر من الفرد ولا يتم حماية الفرد من نفسه بمعنى كيف لفكر يعظم الفرد

---

(١) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا http: //ar. wikipedia. org).

(٢) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل: ص(٣٧-٣٨).

(٣) الجوهر الليبرالي، هبة رؤوف عزت: (مقال) (موقع إسلام أون لاين www. islamonline. net).

ألا يسعى في حمايته والحفاظ على ذاته.

تيارات الغلو والتكفير والتخريب:

في مقابل تلك التيارات الفكرية ذات الامتداد الإيديولوجي الغربي فإنه في المقابل ظهر في بلاد المسلمين بعض التيارات الفكرية الغالية التي هي امتداد لظاهرة الغلو عند الفرق القديمة كالخوارج، والجماعات الحديثة الغالية كجماعة التكفير والهجرة، وقد اخترقت من قبل المشبوهين والعملاء ووقع في شباكهم وتأثر بشبهاتهم بعض الشباب الغر، قليلي الثقافة والتحصين الذين عندهم نزعة تدين وحب للخير حتى جيشوهم جنوداً لهم ينفذون أهدافهم بغير وعي ولا بصيرة من قتل وتفجير وتدمير في بلاد المسلمين.

والغلو هو مجاوزة الحد المشروع إفراطاً أو تفريطاً.

وقد جاءت الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة في النهي عن الغلو والتنطع في العبادة ومن ذلك:

١/ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

٢/ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. فهذا التحذير وإن خوطب به أهل الكتاب إلا أن المقصود به المسلمون أيضاً حتى يجتنبوا موجبات الغضب التي وقع فيها من سبقهم من الأمم(١).

٣/ وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢]، فالآية نص صريح على الأمر بالاستقامة، وهذه الاستقامة ليست بحسب الأهواء أو اجتهادات البشر بل حددها الشارع بأن تكون (كما أمرت) أي كما أمر الله تعالى. ثم أكد ذلك بالتحذير مما يقابل الاستقامة وهو الطغيان (ولا تطغوا) والطغيان مجاوزة الحد إفراطاً أو تفريطاً.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٤).

٤/ ومن الأحاديث ما جاء عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «**هَاتِ الْقُطْ لِي. فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١)، قال ابن تيمية: «وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بما يقتضي مجانبة هديهم، أي هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك»(٢).

٥/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَه، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ، وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ**(٣)»(٤)، وَالْمَعْنَى لا يتشدد أَحَد فِي الأَعْمَال الدِّينِيَّة وَيَتْرُك الرِّفْق إِلا عَجَزَ وَانْقَطَعَ فَيُغْلَب(٥)، وقد رأينا ورأى الناس عواقب الغلو والتشدد، من ترك الالتزام، وعدم الثبات على الحق، وهذه من دلائل النبوة المشاهدة على مر العصور.

٦/ عَنْ الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ عَنْ عبد اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلاثًا**»(٦)، قال الإمام النووي: «المتنطعون: المتعمقون، المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»(٧).

فمن خلال هذه الأدلة القرآنية، وما جاء من بيان إضافي في السنة المطهرة يتبين بصورة قاطعة النهي الصريح عن مجاوزة الحد، والزيادة على ما شرع الله جلَّ وعلا، فكما أن التفريط فيما شرع الله انحراف، كذلك الزيادة عليه انحراف وخطر، وأن الهداية في الاستقامة على

---

(١) رواه أحمد في المسند ح: ١٨٥١، و النسائي ح: ٣٠٠٧، وابن ماجة ح: ٣٠٢٩، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٣٧ وصححه، وصححه الألباني في حجة النبي ﷺ، ص: (٨١).

(٢) نقلاً من كتاب تيسير العزيز الحميد ص: ٢٧٥.

(٣) الدُّلجة: سير ساعة من الليل، وهو إشارة إلى الرفق في العبادة، فتح الباري ١٣ / ٣٦٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ح: ٥٩٨٢، ومسلم ح: ٥٠٣٦.

(٥) انظر: فتح الباري ١١ / ٣٥٩.

(٦) رواه مسلم ح: ٤٨٢٣.

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ٢٢٠.

الكتاب والسنة دون إفراط أو تفريط.

وكان لهذه الظاهرة من الأسباب، إضافة إلى ما تقدم من كونها ردة فعل للتيارات التغريبية الآنف ذكرها وما تبثه من فساد وانحلال في بلاد المسلمين، أسباب أخرى من أهمها:

١/ الجهل بالدين: ويشمل الجهل بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح في النظر والاستدلال. كما تقدم الجهل بعقيدة أهل السنة والجماعة ـ والجهل بمقاصد الشريعة والسنة الربانية ومراتب الأحكام ومناهج الاستدلال والجمع بين الأدلة.

٢/ الإعراض عن العلماء وعدم التلقي منهم والاستهانة بهم والطعن فيهم، واتخاذ رؤوس جهال منهم يفتون بغير علم (فضلوا وأضلوا) كما أخبر النبي ﷺ.

٣/ الغلو والتشدد والتعصب للرأي والإعجاب به، والاستعلاء على الآخرين واحتقارهم والشعور بالكمال والأفضلية عليهم، فهم في زعمهم من القاعدين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف... الخ مما أدى إلى القول بتكفير المجتمعات وعلمائها وقياداتها وسوء الظن بالمسلمين.

٤/ الاضطراب النفسي والسلوكي وعدم التوازن والتركيز على بعض الجوانب دون الجوانب الأخرى، وعدم النظر في عواقب التصرفات ومآلاتها، والمبالغة في الأمور بحيث يصعب معها تقبل النقاش والحوار حولها.

٥/ قلة الصبر واليأس، والإحباط والبطالة والفراغ، مع ثورة الشباب غير المنضبطة والجنوح إلى العنف والقوة.

٦/ التقصير الحاصل في بعض المجتمعات المسلمة من ضعف التدين والتساهل في الالتزام بأحكام الشريعة، مع ضعف التربية والتحصين، وقلة المحاضن التربوية المؤثرة، إضافة إلى الطروحات الفكرية المنحرفة في الإعلام وغيره والمثيرة لغيرة الشباب الدينية وحماسته.

وقد ترتب على هذا زعزعة الأمن وعدم الاستقرار في بلاد المسلمين، إضافة إلى ما ترتب على ذلك من إزهاق للأرواح، وتدمير للممتلكات، وإثارة للفوضى والخلافات، وتشويه لحقائق الدين وشعائره العظيمة كالجهاد والتدين، وتعطيل كثير من المصالح الشرعية والدنيوية والطاقات البشرية، وتأخير عجلة التنمية وخدمات المجتمع، وغير ذلك مما يحزن الصديق ويفرح العدو.

ومن المؤكد أن هذه الظاهرة، إذا لم تكن ذات صلة مباشرة بأعداء الأمة في الغرب أو

الشرق، فمما لا شك فيه أنهم يستثمرونها ويوظفون اتباعها لتحقيق أهدافهم التي من أهمها زعزعة الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين ليكونوا عالة عليهم في حماية أمنهم والرضوخ لمطالبهم الاستعمارية. فهل يعي شبابنا ذلك فيحذرون مكائد الأعداء ويكونون لبنات صالحة في مجتمعاتهم وأوطانهم يلتفون حول علمائهم وقادتهم وأهل الرأي والحل والعقد منهم للمشاركة في البناء والإصلاح وقطع الطريق على العدو المتربص بالإسلام والمسلمين.

الموقف من تلك التيارات المعاصرة المنحرفة:

ما سلف من الاتجاهات والمذاهب الفكرية لا شك أن لها وجوداً كبيراً في البلدان الإسلامية، وينتمي إلى ذلك الفكر بعض المسلمين، ومنهم من يدعو لتلك الضلالات، ومعلوم ما تشتمل عليه تلك الاتجاهات والمذاهب من مبادئ في حقيقتها كفر بالله وبما جاء عنه من الشرع المطهر، فهل يصح إطلاق الكفر على كل من انتسب لذلك الفكر سواء أعلن ذلك أم لم يعلنه؟ وهل يجوز تصنيف الناس لمجرد رأي أبداه أو فكرة طرحها؟الجواب على ذلك في أمور:

أولاً: مسألة تكفير المعين من المسائل الخطيرة التي لا يجوز للمرء أن يتكلم فيها إلا عن علم وبصيرة ووفق ضوابط وقيود لا بدّ من مراعاتها، كما سبق الحديث عن ذلك في النقطة السابقة، وفي مبحث المفاهيم المنحرفة في الإيمان والكفر، فلا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على أحد حتى لو فعل مما يشرك أو يكفر أو يلعن فاعله لأن الحكم بذلك له أسباب وموانع؛ إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

ثانياً: قد يطرح البعض آراء أو أفكاراً توافق بعض ما لدى العلمانيين أو الليبراليين أو غيرهم من رؤى وأفكار فلا يعني هذا أنه ينتسب إليهم، أو أن يصنف معهم، بل الصحيح الواجب على المسلم ألا يتعجل في مثل هذه الأمور، أو يتبين من صاحب المقال، ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يشتغل بتصنيف الناس على الظن والهوى حتى لو كان بناءً على دافع عقدي في حسبانه[1]، بل لا بدّ له أن يرجع إلى العلماء الموثوقين فيما يشكل عليه ليعرف وجه الحق في المسائل وقائليها، كما أنه لا بدّ أن يعلم أن تجريح الناس وتصنيفهم بغير وجه حق، شعبة من شعب الظلم فهو من كبائر الذنوب والمعاصي، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال:

(١) تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد: ص(٤٠٦) (ط ١، ١٤١٤هـ، دار العاصمة، الرياض).

«**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»(١)، وقوله: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»(٢) وغيرها، فهنالك فرق بين كشف الباطل والرد عليه، وبين الحكم على من يفعل الباطل.

وهنا تساؤل مهم: هل يعني ما سبق السكوت عمن طعن في الدين أو هاجمه أو جاء بآراء فاسدة يدعو لها في مواجهة الشريعة؟!! لا شكّ أن الجواب: لا. بالتأكيد، فالقيام لله نصيحة له ولرسوله ﷺ ولدينه ولكتابه واجب لا يجوز التخلي عنه، وكذلك مواجهة دعاة الباطل من أهل البدعة والضلال واجب وأمر لا شك فيه؛ لكن هذا لا بد لمن يقوم به أن تتوفر فيه شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون أمره بالمعروف معروفاً، ولا يكون نهيه عن المنكر منكراً.

(١) صحيح البخاري، باب: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ح: ٦٤٨٤.

(٢) صحيح مسلم، باب: تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِ ح: ٦٧٠٦.

الفصل الثاني

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية

ويحتوي على:

مـــــــــــدخل: عن أسباب دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المبحـــــــث الأول: أحوال العالم الإسلامي والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المبحـــث الثـــاني: نشأة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه العلم.

المبحـــث الثالـــث: الدعوة الإصلاحية للشيخ نشأتها وحقيقتها.

المبحـــث الرابـــع: آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب العلمية والدعوية.

المبحـــث الخـــامس: شبه المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

مدخل

عن أسباب دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

دراسة أحوال المجتمع المسلم المعاصر تقتضي لزاماً دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية لما لها من الأثر الكبير داخلياً وخارجياً، كما أن هنالك عدة أسباب تدفع لدراسة دعوة الشيخ، من ذلك ما يلي:

- لأنها تمثل نموذجًا للحركات الإصلاحية التي هدفت إلى إصلاح واقع المسلمين بعد أن ساء كثيرًا، وقامت بتجديد الدين من خلال إحياء ما اندثر من معالمه، خاصة في جوانب العقيدة، وقد صححت الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في عقول أبناء الأمة، وهي نموذج للبناء والإصلاح لواقع الأمة المسلمة، والنهوض به نحو الأفضل.
- أنها من أوائل إن لم تكن أول الحركات الإصلاحية ظهورًا في العالم الإسلامي.
- أنها أفضل الحركات الإصلاحية منهجًا وأسلمها طريقة، إذ إنها تدعو إلى الرجوع الصادق إلى الكتاب والسنة والعمل بهما في الاعتقاد والعبادة والسلوك والأخلاق متمثلة منهج أهل السنة والجماعة في ذلك.
- خفاء حقيقتها على كثير من المسلمين حتى أصبح الفهم الخاطئ هو الأصل في تصور كثير من المسلمين لها؛ وذلك بسبب محاربتها من كثير من أصحاب الأهواء، ولأجل هذا كان لا بد من الفهم الصحيح لحقيقة هذه الدعوة ومعرفة ما ينقمه الآخرون عليها والدفاع عنها ببيان حقيقتها دون زيادة أو نقصان.
- امتدادها حتى يومنا هذا، فهي تمثل الواقع الديني والثقافي لبلادنا الحبيبة، بلاد الحرمين الشريفين، إضافة إلى انتشارها في أكثر بلدان المسلمين وقبولها ولله الحمد والمنة لأنها التي تمثل الإسلام الصحيح النقي بصفائه ووضوحه وفطريته.
- أنها الأقوى أثراً بين تلك المحاولات الإصلاحية التجديدية حيث قامت عليها دولة وأصبح لها دور كبير في نشر المبادئ التي أحيتها تلك الدعوة الإصلاحية.

المبحث الأول

أحوال العالم الإسلامي والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

كان القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، يعد حقيقة من أسوأ عصور الانحدار التي مرت بالعالم الإسلامي من جميع نواحيه الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى وصلت إلى حال من الضعف كبيرة؛ فكانت الدولة العثمانية تعيش مرحلة شيخوختها، حتى سميت "بالرجل المريض "، وتوالت عليها الهزائم من قبل الدول النصرانية من النمسا وروسيا والبندقية وغيرها، وضعف سلطانها على كثير من الأقاليم، مما جرأ بعض الولاة على الخروج عليها والانفصال عنها، وتكونت حكومات ضعيفة ومستبدة لا تستطيع إخضاع من في حكمها، ولا تحقيق الأمن والاستقرار لرعاياها.

أما الجزيرة العربية فلم تكن أحسن حالاً من تلك الأمصار، فكان وسط الجزيرة والأقاليم النجدية بعيدة عن نفوذ الدولة العثمانية وسلطانها، فكانت ممزقة بين إمارات صغيرة متعادية ومتفككة، وصل بهم الحال حتى أصبح أحياناً في كل قرية أمير مهدد من طامعين في إمارته، ربما يكون ذلك من أقرب الناس لديه، حتى وصل الحال إلى أن القرية الواحدة تمزق بين أميرين متعاديين أو ثلاثة أو أكثر، كل يدعى لنفسه الولاية[١]، أما الحجاز فقد كان يحكمها الأشراف تحت سلطان الدولة العثمانية، ولكن كان هؤلاء الأشراف في منازعات بينهم، وحروب كانت تقوم بين الأخ وأخيه والعم وابن أخيه، وتهدر فيها الدماء وتستحل الحرم، فكان معدل ولاية الأمير على مكة سنة أو سنتين لكثرة الاغتيالات والغدر والخلاف، وقد تعاقب على إمارة مكة خلال القرن الثاني عشر وحده ثلاثون شريفاً لم ينعم واحد منهم بالاستقرار، وصارت السلطة مثار نزاع لا نهاية له[٢]، ولم تكن كذلك الأحساء بعيدة عن غيرها حيث انفصل زعيم بني خالد براك بن غرير بالأحساء عن الدولة العثمانية سنة (١٠٨٠هـ)، فكانت معظم البلاد تعيش وضعاً سيئاً في جميع الجوانب الدينية والدنيوية، وظهرت غربة الإسلام، فانتشر الجهل، وكثرت البدع والخرافات، وشاع التقليد الأعمى

(١) انظر: عنوان المجد لابن بشر ١/ ١٢٤، وتاريخ البلاد العربية د. منير العجلاني ص٢٨، وحركة التجديد والإصلاح في نجد، د. عبد الله محمد العجلان ص٢٠.

(٢) انظر: عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٢٤.

والتعصب المذهبي، ووقع كثير من الناس في الشرك بالله تعالى، وصرفوا العبادة، التي هي محض حق لله تعالى، صرفوها لغيره من حجر أو شجر أو قبر أو غير ذلك بتأويلات واهيات كالتي ذهب إليها أهل الجاهلية، وردّوا بها دعوة الحق التي جاء بها رسول الله ﷺ؛ كما انصرفوا عن القيام بالواجبات الشرعية التي افترضها الله عليهم، وأهمها الصلاة.

وما ذكره العلماء والمؤرخون عن تلك الانحرافات كثير سننقل هنا ما ذكره مؤلف غربي عن أحوال العالم الإسلامي في تلك المدة –على ما فيه من بعض المبالغة– وهو الكاتب الأمريكي لوثروبستودار (Lothrop Stoddard) فيقول في كتابه حاضر العالم الإسلامي في وصف العالم الإسلامي إبان القرن الثامن عشر: «في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة؛ فاربدّ جوه، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيًا من آثار التهذيب العربي؛ واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات؛ وماتت الفضيلة في الناس؛ وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة؛ وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال؛ فليس يرى في العالم الإسلامي ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين، كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول في الهند؛ يحكمون حكمًا واهنًا فاشي القوة متلاشي الصبغة؛ وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها وينشئون حكومات مستقلة، ولكن مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها؛ فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك؛ فكثر السلب والنهب؛ وفقد الأمن؛ وصارت السماء تمطر ظلماً وجورًا، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاقًا فوق إرهاق، فغلت الأيدي؛ وقعد عن طلب الرزق؛ وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين؛ وبارت التجارة بوارًا شديدًا؛ وأهملت الزراعة أيما إهمال.

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء؛ فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفًا من الخرافات وقشور الصوفية؛ وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء؛ ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور؛ وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان؛ وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير

خشية ولا استحياء. ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرها من سائر مدن الإسلام؛ فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي ﷺ على من استطاعه ضربًا من المستهزآت؛ وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطًا بعيد القرار؛ فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الإسلام؛ لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين؛ كما يلعن المرتدّون وعبدة الأوثان). ويعلق الأمير شكيب أرسلان على كلام الكاتب الأمريكي بقوله: (لو أن فيلسوفًا من فلاسفة الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي ستودارد)[1].

ومع هذا فقد كان في نجد وغيرها فطاحل من العلماء كان جلّ اهتمامهم بكتب الفقه ومختصراته وحواشيه، والأدب واللغة والنحو والفرائض والتفسير والحديث، أما عنايتهم بالعقيدة فكانت قليلة، وما وجد منها فعلى طريقة المتكلمين الجامدة؛ ولذلك قلت عنايتهم بتوحيد العبادة على وجه الخصوص، وبالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وإن وجد ذلك من بعض أفرادهم ففي محيط ضيق وأثر محدود.

في ظل هذه الأوضاع السيئة التي سبق وصف جملتها كان ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الإصلاحية التي سعى من خلالها إلى تصحيح شيء من الخلل الذي أصاب الأمة.

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد: (١/ ٢٥٩- ٢٦٠)، تحقيق وتعليق: لأمير شكيب أرسلان،، وللاستزادة في هذا الموضوع انظر: تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام، ورسالة للإمام محمد بن علي الشوكاني بعنوان: الدواء العاجل في دفع العدو الصائل، وغيرها من المؤلفات التي كتبت في تلك المدة قبل ظهور الشيخ بدعوته الإصلاحية.

المبحث الثاني

نشأة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه العلم

في ذلك الجو المظلم ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي من آل مشرف سنة (١١١٥هـ، ١٧٥٣م) في العيينة، في أسرة ترجع في نسبها إلى القبيلة العربية المعروفة (تميم) التي يقول عنها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لاَ أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ ثَلاَثٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: «**هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ**»، قَالَ وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا**». قَالَ وَكَانَتْ سَبِيَّةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «**أَعْتِقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**»)[١].

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأ في أسرة علميةمرموقة، وفي بيت عرف بإخراج العلماء والقضاة، فمنهم: جده وهو الشيخ سليمان بن علي الذي قدم العيينة من روضة سدير التي كان قاضيًا فيها، وكان أفقه من نزل نجدًا في وقته[٢]، انتهت إليه الرئاسة العلمية فيها، وكان علماء زمانه فيها يرجعون إليه فيما أشكل عليهم في الفقه وغيره[٣]، بل كان يعد مفتي الديار النجدية في وقته[٤]، وكان يملك كثيراً من الكتب النفيسة في الفقه وغيره من الفنون[٥]. أما والده فهو الشيخ عبد الوهاب قاضي العيينة وحريملاء بعده، وكان من أعلم أهل زمانه[٦] في بلده. وعمه هو الشيخ إبراهيم المتوفى سنة (١١٤١هـ) فكان من العلماء الأجلاء. وأخوه سليمان كان عالماً فقيهاً تولى القضاء في حريملا.

في هذه الأسرة العلمية المتميزة ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتشرب العلم منذ نعومة أظفاره، مع ما وهبه الله تعالى من نبوغ فذ وعبقرية وذكاء، فحفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من العمر، وأتقن كثيراً من العلوم والمعارف قبل بلوغ العشرين من عمره على يد أبيه وعمه وبعض علماء نجد، حيث كان سريع الحفظ، وقاد الذهن، حاد الفهم، كما كان فصيحًا

---

(١) رواه البخاري ح: ٤١٠٨، ومسلم ح: ٦٦١٢.

(٢) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في: الدرر السنية: (٩/ ٢١٥).

(٣) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٦٢).

(٤) مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص(١٥٤).

(٥) علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام: (١/ ٦٥).

(٦) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٢-٨٣).

فطنًا جريئًا غير هياب، كثير الاطلاع، محبًا للعلم يسأل عما يشكل عليه، ويطرح رأيه ويُناقش عليه، وذكر والده أنه استفاد من ولده محمد فوائد في الأحكام[١]، ففي هذه الأسرة العلمية نشأ الشيخ محمد بن عبد والوهاب وتأثر بها في حياته.

بعد أن استفاد الشيخ محمد من والده الشيخ عبد الوهاب وعمه الشيخ إبراهيم وتلقى عنهما العلم الغزير رأى أن يسلك مسلك العلماء في الرحلة لطلب العلم، فبدأ الشيخ محمد رحلته في طلب العلم بمكة المكرمة حيث أدى مناسك الحج والتقى فيها بعض علماء الحرم الشريف[٢]، وكان منهم الشيخ عبد الله بن سالم البصري حيث أخذ عنه علم الحديث الشريف، ومن مكة خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ووصل إلى المدينة المنورة وهناك التقى علماء المسجد النبوي، ومن أبرزهم الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري النجدي[٣]، وقد تلقى عنه علم الحديث وحصل منه على إجازات في رواية الحديث الشريف[٤]، وكان بين الشيخ عبد الله وبين الشيخ محمد توافق في الأفكار حول ما أصاب الناس من انحراف عن التوحيد والتألم لأجل ذلك[٥]. وفي المدينة أيضاً التقى الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن طريق شيخه الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي الشيخ المحدث محمد حياة السندي المتوفى سنة ١١٦٥هـ من علماء الحديث الكبار المنكرين للبدع والأعمال الشركية ومن المعارضين للتعصب المذهبي، فتلقى عنه علم الحديث ولازمه وصار من خواص تلاميذه وتأثر به كثيراً[٦]، وأخذ كذلك عن الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، وعن الشيخ علي الداغستاني[٧]، وعن الشيخ عبد الكريم أفندي الداغستاني، والشيخ محمد البرهاني، والشيخ عثمان الديار بكري نزيل المدينة المنورة[٨].

وبعد أن أقام الشيخ في المدينة ما شاء الله له عاد إلى حريملاء وهو يحمل هم الدعوة إلى الله

---

(١) نفسه: ص(٨١).

(٢) محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، عبد العزيز بن باز: ص(٢٠).

(٣) الحطة في ذكر الصحاح الستة، صديق حسن خان: ص(١٦٦-١٦٨).

(٤) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٢).

(٥) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل طامي: ص(١٠١٦).

(٦) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٢).

(٧) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن أحمد "ابن بدران الدمشقي": ص(٢٣٠).

(٨) توحيد الخلاق في جواب أهل العراق، ص(١٩).

تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه لم ير أنه قد شفي غليله من سلاح العلم، لأن تلك الجاهلية والمنكرات تحتاج إلى مزيد من التسلح والرسوخ في العلم؛ ولذا لم يلبث أن تجهز لمواصلة رحلة الطلب، فخرج إلى البصرة يريد بعدها الشام، وفي البصرة سمع الحديث والفقه من جماعة كثيرين وقرأ بها النحو وأتقنه، وكتب الكثير من اللغة والحديث(١)، واستفاد كثيراً من عالم جليل فيها هو الشيخ محمد المجموعي فلزمه مدة يقرأ عليه(٢)، وقد استفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب أعظم الفائدة من بقائه في البصرة فاشتغل بمطالعة الكتب التي لا يجدها في نجد، وألف فيها كتابه المميز الذي شهد بفضله في تصنيفه القريب والبعيد، ذلك هو كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» فيتضمن هذا الكتاب الكثير جدًا من النصوص الشرعية، لاسيما الأحاديث والآثار التي أخذها من كتب الحديث والآثار التي في مدارس البصرة(٣).

بعد أن مكث في البصرة مدة من الزمن خرج منها يريد الشام، لكن حصل له ما منعه من الذهاب إليها فانثنى عائدًا إلى نجد ومر بطريقه إليها على الأحساء ونزل فيها على الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي(٤)، ومكث لديه مدة من الزمن، وتذاكر معه شيئاً من التفسير والحديث والتوحيد(٥)، وسمع فيها من غيره، وكانت إذ ذاك آهلة بالعلماء(٦)، وبعد خروجه من الأحساء عاد إلى نجد ليبدأ حياته الدعوية منها.

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٢).

(٢) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٣٦).

(٣) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٩/ ٢١٥).

(٤) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٣).

(٥) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب: مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس (الرسائل الشخصية): ص(٢٥٠).

(٦) مصباح الظلام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص(١٥٥).

المبحث الثالث

الدعوة الإصلاحية للشيخ نشأتها وحقيقتها

المطلب الأول: نشأة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

في ظل الأوضاع المؤلمة التي كان يعيشها العالم الإسلامي كان مولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأته؛ ولأنه من أسرة علم بدأ منذ نعومة أظفاره يسلك سبيل العلم ودرج فيه مثله مثل أي طالب علم، فتوجه لدراسة الفقه الحنبلي الذي يعد من أهم العلوم وأكثرها رغبة لدى طلبة العلم هناك، وفي أثناء تلقيه حدث ما جعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتوقف ويعيد النظر في واقعه، ولندع الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يروي لنا ما ذكره الشيخ عن نفسه إذ يقول: «وقد أخبر شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان في ابتداء طلبه للعلم وتحصيله في فن الفقه وغيره لم يتبين له الضلال الذي كان الناس عليه من عبادة غير الله، من جن أو غائب أو طاغوت أو شجر أو حجر أو غير ذلك، ثم إن الله جعل له نهمة في مطالعة كتب التفسير والحديث وتبين له من معاني الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة أن هذا الذي وقع فيه الناس من هذا الشرك أنه الشرك الذي بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالنهي عنه وأنه الشرك الذي لا يغفر الله لمن لم يتب منه، فبحث في هذا الأمر مع أهله وغيرهم من طلبة العلم فاستنار قلبه بتوحيد الله الذي أرسل الله به رسوله وأنزله به كتبه..»[(١)]، وهنا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بين أمرين: إما أن يستسلم للواقع الذي يعيشه الناس حتى لو كان منحرفًا؛ فيكون في نفسه وقلبه وعقله ميدانًا للمتناقضات، فما يعرفه من الحق يناقض ما يعايشه من الباطل، وإما أن ينهض بواجبه فيسعى بجهده إلى نشر الحق والسنة وتنبيه الغافلين والسادرين في غيهم حتى يعودوا إلى الحق ويستقيموا عليه[(٢)].

وبالفعل اختار أصعب الأمرين وأحسنهما عاقبة، ونهض بأمر الدعوة إلى الله تعالى، فبعد أن عرف الحق وتحقق منه من خلال أمرين مهمين: مداومته على مطالعة كتب التفسير والحديث، وتأمله لما فيها من معاني الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة، التي تدل على

---

(١) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تسمى (المقامات في: الدرر السنية في الأجوبة النجدية)، جمعها عبد الرحمن بن قاسم: (٩/ ٢١٨).

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود: ص(٧٩، ٨٠).

حقيقة التوحيد ومعالمه ومظاهر الانحراف عنه، والأمر الثاني هو: أنه بحث الأمر الذي توصل إليه مع العلماء من أهله وغيرهم من طلبة العلم ووجدهم قد استحسنوا ما توصل إليه لكنهم ما كانوا ينهون الجهال من العوام عن فعل ما يعلمون أنه باطل، ولم يدعوهم إلى الحق الذي يعرفونه، عندئذٍ بدأ هو بالقيام بواجبه فأنكر على الناس تلك الأفعال المخالفة لحقيقة التوحيد، لكنهم لم يستجيبوا له بل أعرضوا عنه(١)، وبرز له علماء السوء وعارضوه وأصبح مرمى شبهاتهم وتلبيساتهم، واتهاماتهم إياه بالانحراف، ومن ثم تأليب العوام عليه(٢)، وما هي إلا فترة وجيزة حتى كتب الله لدعوته القبول، وأصبحت الدرعية مناراً يقصده كل طالبي العلم الصحيح القائم على الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، وأخذ الناس يتوافدون إليها من كل صوب، يتعلمون على يد الشيخ ثم يصدرون إلى أهليهم وبلدانهم دعاة إلى الحق والصلاح، حتى أثمرت دعوته وآتت أكلها مبكرة.

وقد حرص الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أهمية وجود سلطان ناصر ومعين له في دعوته في ظل تلك الأوضاع السيئة، محلياً وعالمياً، خاصة بعد ما انتقل إلى العيينة، يقول ابن غنام عن هذا: «فانتقل الشيخ من حريملاء إلى العيينة ورئيسها يومئذٍ عثمان بن حمد بن معمر... ولما عرض على عثمان دعوته اتبعه وناصره، وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره... وهكذا لم يبق وثن في البلاد التي تحت حكم عثمان، وعلتْ كلمة الحق وأحييت سنة رسول الله ﷺ...»(٣).

ولما أُخرج الشيخ من العيينة وتخلى عنه ابن معمر ـ بعد التهديدات التي وجهت له ـ قصد الدرعية يبحث عن النصرة أيضًا، فكان يسمع عن حسن سيرة أميرها محمد بن سعود، مما جعله يطمع في حسن استقباله ومناصرته للدعوة، وهو ما كان بالفعل بعد أن شرح الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمير الدين الحق والمتمثّل بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ثم ذكر له ما عليه كثير من أهل نجد من انحرافات عن الشرع والسنة على الشرك والبدعة، قال له الأمير: «يا شيخ، إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، فأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد»(٤)، وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في وصف حال

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن عبد الله بن بشر: (١/ ٣٤، ٣٥).

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، صالح العبود: ص(٨٠).

(٣) نفسه: ص(٨٥).

(٤) نفسه: ص(٨٧).

الدعوة في أول أمرها: «فهاجر إلى الدرعية بلد محمد بن سعود، فتلقاه هو وأولاده بالقبول وتابعهم على ذلك أكثر أهل بلده وقبيلته على قلة منهم وضعف كما قدمناه، فصبروا على مخالفة الناس والملوك من حولهم والبعيد عنهم... ولهذا تحمّل هذا الرجل واتباعه عداوة كل من عادى هذا الدين..»[١]. وبسبب مناصرته للدعوة تسلط عليه الأعداء وحاربوه وفيها قتل اثنان من أولاده، فيصل وسعود ابنا محمد بن سعود[٢]، ومع كل ذلك لم يتراجع أو يتخاذل مثلما فعل ابن معمر، بل ثبت، ومن هنا ظهر الارتباط الوثيق بين دعوة الشيخ وأسرة آل سعود وذريته من بعده إلى يومنا هذا، فتحقق لهذه الدعوة الانتشار العظيم في الجزيرة العربية وخارجها بفضل الله ورحمته ثم بفضل تلك المؤازرة العظيمة من آل سعود لهذه الدعوة الصافية المباركة، فرحم الله الجميع وجزاهم خير الجزاء على ما قدموا في خدمة الإسلام وأهله.

المطلب الثاني: حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهدافها:

لم تكن الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجهولة الحقيقة، بل كانت واضحة جلية أبان الشيخ فيها ما لديه، فهي دعوةأساسها العودة الصادقة إلى الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، مع العناية بتصحيح المعتقد من خلال تحقيق التوحيد الخالص، ونبذ الشرك ووسائله والذرائع المؤدية إليه، ومحاربة البدع والخرافات التي شوهت جمال الإسلام وصرفت الناس عن الدين الحق، مع العمل على نشر السنن وإحيائها، إضافة إلى تحكيم شرع الله ومحاربة ما يخالف الشريعة من العادات والتقاليد والقوانين، مع الدعوة إلى الوحدة والجماعة والطاعة لولاة الأمر في طاعة الله، ونبذ الفرقة والخلاف التي تؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار، فهو لم يدع إلى خلاف ذلك، ويظهر ذلك واضحاً من كلام الشيخ نفسه واتباع دعوته، وحكم الدارسين المنصفين عليها، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بيان حقيقة الدعوة: «... ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل: ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم»[٣].

ويقول في رسالة أخرى: «وأخبرك أني -ولله الحمد- متبع ولست بمبتدع، عقيدتي ودِيني

(١) رسالة له: ضمن الدرر السنية: (٩/ ٢١٨).

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٩٨).

(٣) الرسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، لابن غنام: ص(٢١١).

الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة واتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبد الله به من: الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة... وأنا صاحب منصب في قريتي مسموع الكلمة فأنكر هذا بعض الرؤساء لأنه خالف عادة نشؤوا عليها، وأيضًا ألزمت من تحت يدي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات...»[(١)].

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: «... فإن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إنما دعا الناس إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا يشركوا به شيئًا، وهذا لا يرتاب فيه مسلم أنه دين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه...»[(٢)].

ويقول أحد المتخصصين في دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «إن ما كتبه الشيخ من المصنفات والرسائل يؤكد يقينًا بأن الشيخ لا يدعو إلا لعقيدة السلف الصالح في جميع أبواب الاعتقاد، وليست مصنفاته ورسائله فحسب هي الجواب على هذا فقط، بل إن سيرة الشيخ الإمام وأفعاله وسلوكه جواب آخر...»[(٣)].

كمايقول أحد الكتاب الغربيين الذين عنوا بدراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ولم يكن في دعوة الشيخ جديد؛ لأنه كان يرى علاج المشكلات جميعاً في العودة إلى سنة النبي محمد وأصحابه من السلف الصالح، وكان جل همه أن يخلص العالم من شرين عظيمين هما: الشرك والبدع، وهو ما قضى حياته هو واتباعه يناضل في سبيل تحقيقه في حماس شديد»[(٤)]. ويقول: «بل إن كثيراً من الرحالة استشهدوا بأقوال العلماء عن اعترافهم بأن الدعوة الوهابية

(١) الرسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، لابن غنام: ص(٣٢٠-٣٢١).

(٢) رسالة له ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام: (٣/ ٣٦٧).

(٣) دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبد العزيز العبد اللطيف: ص(١٩).

(٤) الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، القسم الأول: كتابات الرحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر الميلادي، لديفيد كوبر، ترجمة عبد الله الوليعي: ص(٤٨).

هي نفسها المذهب السني في الإسلام...»[١].

ويقول دارس آخر عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فقد كان الإسلام الذي دعا إليه الشيخ، أساسًا، هو الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ...»[٢]. ويقول: «... أن مبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت في الأساس ذات مبادئ خاتم الأنبياء الذي حمل رسالة الإسلام في القرن السابع الميلادي...»[٣].

ومن أولئك الدارسين أيضاً لوثروبستودار الأمريكي حيث يقول: «فالدعوة الوهابية إنما هي دعوة إصلاحية خالصة بحتة، غرضها إصلاح الخرق... وعلى الجملة هي الرجوع إلى الإسلام والأخذ به على أوله وأصله ولبابه وجوهره، أي إنما الاستمساك بالوحدانية التي أوصى الله بها إلى صاحب الرسالة...»[٤]. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا عن دعوة الشيخ أيضًا: «دعا إلى عبادة الله وحده، والرجوع إلى أصل الإسلام الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه...»[٥]. ويقول الشيخ مسعود الندوي: «بعبارة موجزة نستطيع أن نقول: إن شيخ الإسلام كان يحب أن يرى الدين في صورته الأصلية، وكان مولعًا باتباع السلف الصالح في العقائد والأعمال...»[٦]، ويقول: «فكانت دعوته دعوة التوحيد وكان شعاره "لا إله إلا الله"»[٧].

ومن كل ما سبق يتّضح أن ما قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب إنما هو تجديد ما اندثر من معالم التوحيد والدين الذي بعث به نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله، عليه وآله الصلاة والسلام.

---

(١) الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، القسم الثاني: محمد بن عبد الوهاب وإمبراطورية الموحدين في شبه الجزيرة العربية، جورج رينتز، ترجمة عبد الله الوليعي: ص(٩٧).

(٢) نفسه: ص(١٣٧). أثنى الشيخ محمد الجاسر في مقدمة الكتاب على جورج رينتز ووصفه بالمنصف، انظر: المقدمة: ص(١٣).

(٣) نفسه: ص(١٣٨).

(٤) حاضر العالم الإسلامي، لوثروبستودار: (١/ ٢٦٤) (ط٢، ١٣٥١هـ، دار الفكر العربي).

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا: ع.

(٦) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي: ص(١٨٠).

(٧) نفسه: ص(١٨٦).

المطلب الثالث: العوامل التي أسهمت في نشأة دعوة الشيخ محمد وظهورها:

لا شكّ أن هناك عددًا من العوامل أسهمت بشكل فاعل في نشأة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وظهورها في أرض الواقع وانتشارها ونجاحها بعد فضل الله ورحمته، إذ حركت تلك العوامل والأسباب الشيخ رحمه الله ودفعته للقيام بدوره الإصلاحي مما نتج عنه قيام هذه الدعوة الإصلاحية التي كان لها دورها الفاعل وأثرها الحقيقي في تجديد الدين وإشعال جذوة العمل الإصلاحي في العالم الإسلامي، ولعلّ أبرز تلك العوامل ما يلي:

أولاً: الواقع المرير للعالم الإسلامي وشبه الجزيرة العربية: الواقع المرير الذي كان يعيشه العالم الإسلامي بصورة عامة، ووسط الجزيرة العربية بصورة خاصة، من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكن أهمها، والدافع الذي حرك أغلب الحركات الإصلاحية، هو الواقع السيئ في الجانبين الديني والعلمي، إذ بلغت -كما سبق بيانه- درجة من الانحطاط مزرية.

ولقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد أفراد ذلك المجتمع الإسلامي، يرى ويشاهد ما وصل إليه الواقع المرّ، سواءً أكان ذلك في نجد؛ والعيينة على وجه الخصوص أو من خلال وعيه، رحمه الله بواقع العالم الإسلامي من خلال الانحرافات التي شاهدها خلال تنقله في رحلاته لطلب العلم حيث زار مكة والمدينة والبصرة والأحساء، وفي كل بلد يزوره يجد الانحراف والضياع اللذين يعيشهما الناس في تلك البلدان.

غير أن الشيخ رحمه الله تعالى، لم تنعكس عليه تلك الانحرافات سلبًا، من خلال بناء تصور سلبي داخلي لديه يدفعه -كما كان حال كثير من علماء عصره- إلى السلبية البالغة التي تمنعهم من محاولة الإصلاح والسعي في تصحيح ما لدى الناس من خلل وما أصاب واقعهم من انحراف، بل دفعته تلك الانحرافات إلى السعي الجاد للإصلاح، بل تجاوز الأمر ذلك إلى ما هو أعظم وأجل، حيث كوّن ذلك الواقع السيئ للأمة عزيمة لدى الشيخ ومثابرةً وإصرارًا على تصحيح الواقع السيئ للأمة.

فعلى الرغم من تعرضه للعديد من المعوقات والأذية في سبيل الدعوة إلى الله والعمل في سبيل الإصلاح إلا أنه استمر ولم يأبه بكل تلك الصعوبات، ولعلّ من أبرز ما تعرض له طرده من البصرة بسبب إنكاره للأعمال الشركية التي يفعلها أهلها حول القبور[1]، ومع هذا يستمر

(١) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٣٦). ينكر الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ هذه القصة ويقلل من شأنها انظر: =

في الدعوة إلى الله، ويتعرّض بعدها للأذية البالغة ومحاولة القتل في حريملاء[١] إلا أن هذا لم يمنعه من الاستمرار في الدعوة، فيخرج من حريملاء إلى العيينة وفيها يتعرض لطرد أميرها له[٢]، ومع ذلك يستمر حتى منّ الله عليه بمن ينصره ويثبت على تلك النصرة حتى أتمّ الله له الأمر وحققت الدعوة ما كانت تصبو إليه من إصلاح.

ثانياً: مشايخه ومعلموه: سعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ نعومة أظفاره في طلب العلم، فتلقى عن عدد من كبار العلماء في زمانه، وكان له معهم مراجعات وكلام حول القضايا الأساسية التي نهض بدعوته لإصلاحها بين الناس، ولقد كانوا يشدون عزيمته موافقة له على المبدأ الذي قامت دعوته ونهضت لأجله وهو مبدأ التوحيد وتصحيح ما وقع الناس فيه من انحراف، وأول ذلك والده وعمه الشيخ إبراهيم إذ هما أول من تلقى العلم عنهم؛ حيث ذكرنا فيما سبق أن الشيخ محمداً لما فتح الله عليه في معرفة التوحيد وأدرك مخالفة واقع الناس له وانحرافهم عنه لم يعتمد على مجرد رأيه بل رجع إلى العلماء من أهله: والده وعمّه؛ وغيرهم من طلبة العلم والعلماء، وناقشهم في الأمر فأيدوه ووافقوه على ما ذهب إليه[٣].

ولما التقى الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي إبان تلقيه عنه في المدينة المنورة، حصل بينهما توافق في الأفكار حيث أيده فيما ذهب إليه في أمر التوحيد[٤]، أما الشيخ محمد حياة السندي فقد كان ممن شدّ عزيمته بأمر التوحيد، ووجهه إلى إخلاص توحيد العبادة[٥]. بل إنه ذات مرة كان واقفًا عند الحجرة النبوية وحولها المستغيثون وغيرهم، إذ مرّ به أستاذه الشيخ محمد حياة السندي فسأله الشيخ: «ماذا تقول في هؤلاء؟ فأجاب الأستاذ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]»[٦].

=

مصباح الظلام: ص(١٥٣).

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٤).

(٢) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٤٠-٤١).

(٣) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٩/ ٢١٨).

(٤) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل أبو طامي: ص(١٦).

(٥) مصباح الظلام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص(١٥٤).

(٦) محمد بن عبد الوهاب مصلح، مسعود الندوي: ص(٤١)، على أن بشراً ذكر العكس في السائل والمجيب

=

ليس ما سبق وحسب، بل إن المشايخ الذين درس عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلقى عنهم العلم، ومنهم الشيخ محمد البرهاني، والشيخ علي أفندي الداغستاني، والشيخ عثمان الديار بكري حرر على أيديهم علم التوحيد وعرض أفكاره عليهم فأقروه، بل زاد على ذلك بأن كاتب الشيخ محمداً السفاريني وهو بالشام بما لديه فوافقه وأيده[١]، ولما زار البصرة وتلقى عن علمائها، لم يعجبه ما كان الناس فيه من البدع والخرافات والانحراف عن توحيد العبادة، فكان ينكر تلك الشركيات والبدع، فاستحسن شيخه محمد المجموعي منه ذلك، ووافقه على ما ذكره له من مسائل التوحيد[٢].

وخاتمة المطاف في الأحساء حيث لقي فيها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وتلقى عنه العلم ولاسيما التوحيد، حيث أخرج له الشيخ عبد الله كراريس من البخاري كتبها ونقل على هوامشها من الشروح، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن ذلك مخاطبًا الشيخ عبد الله: «وقلت في مسألة الإيمان التي ذكر البخاري في أول الصحيح: هذا هو الحق الذي أدين الله به. فأعجبني هذا الكلام لأنه خلاف مذهب أئمتكم المتكلمين»[٣].

كل ما سبق وغيره كثير كان من الأمور التي شدّت من أزر الشيخ محمد وقوَّت عزيمته ليقوم بعمله الإصلاحي وليبذل جهده في محاولة تصحيح ما عليه الناس ذلك الوقت من انحراف وابتعاد عن جادة الصواب، وهو ما كان بالفعل.

ثالثاً: رحلاته لطلب العلم: لا شك أن رحلته لطلب العلم كان لها أكبر الأثر في نشأة هذه الدعوة الإصلاحية وظهورها، وذلك يتضح مما سبق بيانه، إذ إنه أفاد منها الاطلاع على واقع العالم الإسلامي على الحقيقة، وما يقع فيه من أعمال مخالفة للتوحيد ومنحرفة عن حقيقة الدين، كما هي أكسبت الشيخ الكثير من الصفات الشخصية وزادت من قدراته على العمل والنجاح في العمل، كما أنها كان لها دور في انفتاح الشيخ على الآخرين، سواءٌ أكان من المذاهب أو الأشخاص، بل أصبح لديه قدرة على استيعاب المخالف والتعاطي معه بشكل إيجابي

=

ومؤداهما واحد.

(١) توحيد الخلاق: ص(١٩).

(٢) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٣٦).

(٣) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية): (٥/ ٢٥٠).

وجيد، الأمر الذي لا يجيده من لم يخرج عن بلده ولم يعرف رأيًا غير رأيه، يقول الشيخ رحمه الله لبعض مخالفيه: «فقد وصل إلينا من ناحيتكم مكاتيب فيها إنكار وتغليظ عليّ، ولما قيل: إنك كتبت معهم وقع في الخاطر بعض شيء؛ لأن الله سبحانه نشر لك من الذكر الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤته كثيراً من الناس، لما يذكر عنك من مخالف من قبلك من حكام السود... وقد دعوت لك في صلاتي وأتمنى من قبل هذه المكاتيب أن يهديك الله لدينه القيم...»[(١)]. إلى غير ذلك مما اكتسبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب من رحلاته لطلب العلم، ويأتي تفصيله.

كما تزود خلال هذه الرحلات بالعديد من المراجع والكتب المهمّة جدًا للداعية التي لا يجدها في نجد وإنما يجدها في العواصم العلمية، كمكة والمدينة والبصرة، تلك البلدان التي تتوفر فيها المراجع والكتب العلمية في مدارسها ومكتباتها ولدى علمائها؛ إذ استطاع من خلال تلك الرحلات أن يتحصل على العديد منها، ولعل مما يدل على هذه الفائدة أنه ألف كتابه الجليل كتاب التوحيد في البصرة[(٢)]، حيث توفرت له المراجع العلمية التي استطاع من خلالها أن يؤلف تلك الرسالة العظيمة، لاسيما وأنها تشتمل على الأحاديث والآثار الكثيرة التي يحتاج في نقلها إلى المراجع العلمية في الحديث والآثار.

رابعًا: صفاته الشخصية: تميز الشيخ محمد بن عبد الوهاب بصفات شخصية متميزة تؤهله للقيادة والتميز والريادة، وهذه الصفات كان لها دور كبير في نهوض الشيخ محمد بعمله الإصلاحي هذا، في وقت فقد كثير من علماء زمانه هذه الصفات، فعجزوا عن تحقيق ما حققه الشيخ محمد من خلال هذه الدعوة الإصلاحية المباركة، ولعل أبرز تلك الصفات هي:

أ/ المرونة والمداراة وحسن التعامل مع المخالف: فقد كان لدى الشيخ محمد قدرة على تفهم الخلاف واستيعابه، والمراد هنا المخالف الذي لديه شبه يحتاج إلى إزالتها، وليس المعاند الذي يعرف الحق ولا يقبل به، وهذه المرونة وحسن التعامل قلّ أن تجد من يحسنها ممن لم يخالط الناس بشكل يؤهله لفهم ذلك؛ إذ من لم يخرج من بلده ولم يعرف غير أهله يعتقد خطأ

(١) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية): (٥/ ٢٥٠، ٢٥٧).

(٢) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٩/ ٢١٨)، وقد ذكر حسين بن غنام أنه ألفها في حريملاء، والجمع بينهما أنه ابتدأها في البصرة وأتمها في حريملاء. والله أعلم.

أن كل الناس على ذلك الفكر وتلك الآراء، كما يغلب على بعض المصلحين الضيق بالمخالف وعدم الاعتداد برأيه بل ورفضه بالكلية، بخلاف من خالط الناس فإنه يعرف من تنوع آرائهم وتعدد وجهات نظرهم ما يؤهله ليكون لديه القدرة على استيعاب تلك الأفكار وحسن التعامل معها بشكل إيجابي وعقلاني، وهو ما كان من الشيخ محمد رحمه الله، ولعلّ من الأمثلة على ذلك: ما ذكره عن رجل من أشدّ المناوئين له من أهل نجد قال: «استدعيته أولاً بالملاطفة وصبرت منه على أشياء عظيمة»(١). ويقول لأحدهم: «وندار يكم ودنا أن الله يهديكم ويهديهم»(٢).

ب / الجرأة والشجاعة: تعدّ هذه الصفة الشخصية من الصفات المهمّة التي تميز بها الشيخ محمد، وأسهمت بشكل كبير في ظهور هذه الدعوة الإصلاحية، ففي الوقت الذي كان يتهيب كثير من العلماء مخالفة الناس، وبطشهم وسطوتهم وعدم قبولهم لداعي الحق، ممن دعاهم إليه، تجرأ الشيخ محمد بمواجهة الناس ببطلان ما يعملون بكل أسلوب حسن، ودفع ثمن ذلك طردًا وأذية ومحاولة قتل، لكن ذلك كله لم يكن مانعًا له من بيان الحق.

يقول الشيخ محمد رحمه الله، في رسالة له عن بعض مخالفيه: «إذا كانوا أكثر من عشرين سنة يقرون ليلاً ونهارًا سرًّا وجهارًا أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله لكن الناس لا يطعيوننا... هذا كلامهم على رؤوس الأشهاد...»(٣)، ويقول في رسالة أخرى عمن عرف التوحيد ولم يعمل به خوفًا من سطوة الناس ومداراة لهم: «يقولون: هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه حق، ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم... ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة...»(٤)، ويقول: «وإن كنت تعرف أن هذا هو الكفر الصراح والردّة الواضحة، ولكن تقول: أخشى الناس - فالله أحق أن تخشاه»(٥)، ويقول في بيان حال علماء العالم الإسلامي أيضًا: «إن هذا الذي أنكروا عليّ وأبغضوني وعادوني من أجله إذا سألوا عنه كل عالم في الشام واليمن أو

(١) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٥٧).

(٢) نفسه: (٥/ ٢٢٦).

(٣) نفسه: (٥/ ٢٦).

(٤) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٤١).

(٥) نفسه: ص(٢٦٢).

غيرهم يقول: هذا هو الحق وهو دين الله ورسوله، ولكن ما أقدر أن أظهره في مكاني لأجل أن الدولة ما يرضون وابن عبد الوهاب أظهره لأن الحاكم في بلده ما أنكره بل لما عرف الحق اتبعه...»[١].

ولقد أوضح الشيخ محمد رحمه الله أنه تعرض لإنكار الناس عليه بسبب مخالفته لما تعود عليه الناس حيث لم يستطيعوا أن يتقبلوا القول ببطلان ما كانوا عليه وآباؤهم فأنكروا على من بين لهم ذلك، يقول الشيخ رحمه الله: «وأنت لا تستهون مخالفة العادة على العلماء فضلاً عن العوام»[٢]، ويقول: «لأن بعض المسائل التي ذكرت أنا قلتها لكن هي موافقة لما ذكره العلماء في كتبهم: الحنابلة وغيرهم، ولكن هي مخالفة لعادة الناس التي نشؤوا عليها فأنكرها علي من أنكرها لأجل مخالفة العادة...»[٣]، ولقد صرح بعضهم بعجزه عن التغيير حيث يقول له: «واعتبر لنفسك حيث كتبت لي فيما معنى إن هذا هو الحق الذي لا شك فيه؛ لكن لا نقدر على تغييره»[٤].

ج/ الإصرار على الحق والثبات عليه: فلما منّ الله على الشيخ محمد بن عبد الوهاب بما منّ عليه به من معرفة التوحيد الذي لم يكن يعرفه قبل ذلك[٥]، وراجع العلماء وناقشهم فيه فأقروه عليه -كما سبق بيانه- لما ثبت له أن ذلك هو الحق الذي يحب الله ورسوله ﷺ سعى في نشره والدعوة إليه، لكن تطاول الزمان على الناس وهم في انحراف عن التوحيد جعلهم يرفضون الدعوة الإصلاحية لمخالفتها لما كانوا عليه هم وآباؤهم من قبلهم، ولمخالفتها لما عليه كثير من الناس في ذلك الوقت؛ الأمر الذي جعلهم يتصدون وبقوة لدعوة الشيخ محمد الإصلاحية، وأول ذلك كان في البصرة حيث اجتمع عليه أناس فيها من رؤسائها وغيرهم، فآذوه أشدّ الأذى وأخرجوه منها وقت الظهيرة حتى كاد يهلك من العطش وأشرف على الهلاك حتى منّ الله عليه بمن ساعده[٦]، هذه التجربة كانت كفيلة بأن تضع حدًا للعمل الإصلاحي لدى الشيخ محمد وتجعله يكون مثل غيره من العلماء الذين يخشون مخالفة العوام

(١) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموع مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ٣٢).

(٢) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٧٥).

(٣) نفسه: ص(٢٧٤).

(٤) نفسه: ص(٢٧٧).

(٥) نفسه: (٥/ ١٨٧).

(٦) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (١/ ٣٦).

في وقت كان يوافق بعض العلماء هوى العوام[١] ولا يخالفونه، لكن الشيخ محمداً لم يتخل عن مبدئه وهدفه، فكرر المحاولة في حريملاء حيث تحرك بالدعوة إلى الإصلاح وواجهه العابثون والمنحرفون، لكنه تعرض هنا لما هو أخطر حيث أراد سفلتهم أن يفتكوا بالشيخ محمد ويقتلوه سرًا بالليل[٢]، فخافهم على نفسه فخرج منها إلى العيينة، وفيها وجد الترحيب والنصرة والتأييد، لكن الأمر لم يدم طويلاً حيث وشى به بعض العلماء إلى أمير الأحساء الذي كان له قوة، فكتب لأمير العيينة يدعوه لطرد الشيخ محمد، وبالفعل نفذ أمير العيينة الأمر وطرد الشيخ محمداً[٣].

مع كل ما سبق -ولعل ما خفي كان أعظم- نجد الشيخ محمداً يخرج مطرودًا من العيينة باحثًا بعد كل ذلك العناء عن ناصر ومعين يساعده ليبلغ ويدعو إلى الله تعالى؛ وهو ما يسره الله ﷻ من خلال إكرامه وتفضله على الأمير محمد بن سعود الذي قام مع الشيخ محمد وأيّده وساعده حتى بلغت الدعوة الإصلاحية مبلغًا عظيمًا ونفع الله بها نفعًا كبيرًا.

د/ الصبر: لم يكن طريق الدعوة للشيخ محمد مفروشًا بالورود كغيره من الدعاة، وليس أمر الدعوة إلى الله كما هو معلوم أمراً يسيراً، بل شاق وعسير، وفي زمن الشيخ محمد كان الناس قد درجوا على أمر وجدوا عليه آباءهم؛ وتغيير العوائد وما درج عليه الناس من أمور هو من أصعب الأمور، ولأجل ذلك سكت أفذاذ من العلماء في ذلك الزمان لعلمهم بموقف الناس منهم وردة فعلهم، وأنهم لن يقبلوا منهم حتى إن الشيخ عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن الذي كان يعد من أجل علماء زمان الشيخ محمد في نجد والعارض لما كتب نصيحة للناس يوجههم فيها لبعض ما خفي من أمور التوحيد والديانة قال في معرض كلامه منبهًا إلى المسألة التي ذكرناها أعلاه: «ولا يهولنكم أن هذا الأمر غريب...»[٤]، ويقول الشيخ محمد في التأكيد على هذه المسألة: «وتعلمون أعزكم الله أن المطاع في كثير من البلدان لو تبين العمل بهاتين المسألتين أنها تكبر على العامة الذين درجوا هم وإياهم على ضد ذلك...»[٥].

---

(١) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموع مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ٤٠).

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٤).

(٣) رسالة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية: (٣/ ٣٤٠).

(٤) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ١٩٣).

(٥) نفسه: (٥/ ٤١).

ولأجل ما سبق فقد تعرض الشيخ محمد لكثير من الصدّ وحاربه الكثير من أنداده وأقرانه الذين أظهروا أول الأمر القبول ثم لم يلبثوا أن انقلبوا على الشيخ وحاربوه وسعوا بكل ما يستطيعون إلى تشويه سمعته وتقبيح صورته أمام القاصي والداني، يقول رحمه الله: «فلما أظهرت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به سبوني غاية المسبة وزعموا أني أكفر أهل الإسلام وأستحل أموالهم»(١).

ويقول: «إن هذا الذي أنكروا عليّ وأبغضوني وعادوني من أجله إذا سألوا عنه كل عالم في الشام واليمن أو غيرهم يقول: هذا هو الحق..»(٢).

وعلى الرغم من هذا كله كان صابرًا محتسبًا مجاهدًا في سبيل الله تعالى لم تثنه هذه العداوات ولا الأحقاد عن هدفه السامي، كذلك لم يجعلها ضغائن شخصية بل كان يدافع عن نفسه ببيان الحق، ويؤكد أن كل تلك الافتراءات والشتم لشخصه إنما هي لتنفير الناس عن التوحيد الذي يدعو الناس إليه، يقول رحمه الله: «وأما القول: إنّا نكفر بالعموم فذلك من بهتان الأعداء الذين يصدون به عن هذا الدين، ونقول: سبحانك هذا بهتان عظيم»(٣).

يضاف إلى ما سبق أذية العوام التي كادت أن تهلك الشيخ محمداً حيث حاولوا قتله في حريملاء كما سلف ذكره، وقبلها طرده من البصرة، وهو مع هذا كله صابر طلبًا لما عند الله جل وعلا، حتى مكن الله له ونصره على أعدائه.

هـ/ زهده في أمر الدنيا وإعراضه عنها في سبيل القيام بدعوته الإصلاحية:

مع العلم أنه كان في وضع متميز(٤) فهو من أسرة علم وقضاة، فلو أراد رغد العيش لسكت عما لا يرضاه العوام، ولتحدث بما يرضيهم لينال عندهم حظوة ومحبة وتقديرًا وإجلالاً، وما يتبع ذلك من هباتٍ وأعطياتٍ، يقول الشيخ محمد رحمه الله في ذلك: «وهذه المسألة -يعني التوحيد- تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس: ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة»(٥). ويقول عن معاناته: «فقد جرى عندنا فتنة

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٦٥).

(٢) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ٣٢).

(٣) نفسه: (٥/ ١٠١).

(٤) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ٣٦).

(٥) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٤١).

عظيمة بسبب أشياء نهيت عنها بعض العوام من العبادات التي نشؤوا عليها، وأخذها الصغير عن الكبير مثل عبادة غير الله وتوابع ذلك من تعظيم المشاهد..»[١].

وعلى الرغم من انصراف بعض علماء زمانه إلى إرضاء العوام طمعًا فيما لديهم، وإعراض الشيخ محمد عن ذلك إلا أن الله جل وعلا وهبه من المنزلة والمكانة والمال والجاه ما لم يمنحه لمناوئيه وبقي ذكره رحمه الله، وزال ذكرهم فكأنهم ما كانوا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/ ١٧٦).

المبحث الرابع
آثاره دعوة الشيخ العلمية والدعوية

أولاً: آثاره العلمية:

ومع أن الشيخ إمام دعوة، ومعروف أن أئمة الدعوة في الغالب يشتغلون بالجهاد والعمل، وأنهم لا يكتبون ولا يؤلفون إلا نادراً، ومن ثم فهم غير مكثرين في الكتب والتأليف إلا أننا نجد الشيخ قد ترك كماً من الكتب والرسائل المفيدة تتميز بما يلي:

١/ التركيز على القضايا والمسائل المهمة في الجوانب العلمية والعملية، وأهمها القضية الكبرى، وهي تحقيق التوحيد وإخلاصه لله وحده، ومحاربة الشرك والبدع والخرافات، والتركيز على محكمات الملة وأصولها الكلية، وهذه سمة ظاهرة في كل كتابات الشيخ الأصولية والفرعية.

٢/ الاعتماد الكلي على الدليل الشرعي من الكتاب والسنة والإجماع، وربط القارئ بالفهم المباشر من النصوص الشرعية، وتعظيم الدليل الشرعي في نفسه وضرورة احترامه وتعظيمه والتسليم له، وترتب على هذا خلو هذه المؤلفات من المصطلحات الكلامية، والتعقيدات الفلسفية والتعبيرات الصوفية.

٣/ سلاسة الأسلوب ووضوح العبارة والبعد عن التطويل وحشو الكلام، وتفصيل الجزئيات، وفروعيات المسائل.

٤/ قوة التأثير في العبارة، وشعور القارئ بصدق اللهجة وبذل النصيحة ومحبة الهداية للقارئ، وفي هذا يقول الأستاذ مسعود الندوي: «فإن كل سطر من سطوره ممتلئ بالتأثير، ولعل سببه كامن في ذلك الشعور الديني الوقاد الذي كان يقض مضجعه طوال حياته... وبالجملة فإن جميع مؤلفاته الصغيرة والكبيرة مليئة من هذا التأثير، ويظهر هذا أشد وأكثر في رسائله»(١).

٥/ تنوع التأليف وعدم الاقتصار على فن واحد، فألف في العلوم التالية:

أ/ التوحيد، وأكثر رسائله ومؤلفاته في هذا الموضوع، ومنها: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول، والقواعد الأربع، ومسائل الجاهلية،

(١) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، مسعود الندوي: ص(١٦٥).

وأصول الإيمان...

ب/ الفضائل فألف في فضائل الإسلام، وفضائل القرآن.

ج/ السيرة، وغلب عليه الاختصار من المتقدمين كابن هشام وغيره فألف السيرة المختصرة، والسيرة المطولة، واختصر زاد المعاد.

د/ الحديث، فألف مجموعة الحديث على أبواب الفقه، وكتاب الكبائر، ومختصر فتح الباري.

هـ/ التفسير، وله فيه تفسير سورة الفاتحة، ومختصر سورة الأنفال.

و/ الفقه، وله فيه آداب المشي إلى الصلاة (وهو مختصر في فقه الصلاة والزكاة والصيام) واختصر الإنصاف، والشرح الكبير في الفقه الحنبلي.

ز/ كما اختصر مجموعة من كتب العقيدة لشيخ الإسلام ابن تيمية كالعقل والنقل، وكتاب الإيمان، وكتاب المنهاج، ولتلميذه ابن القيم كمختصر الصواعق المرسلة.

وله خلاف ما ذكر العديد من الرسائل والفتاوى، وقد قامت جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بجمع هذه المؤلفات وقد بلغت ما يقارب عشرة مجلدات.

وبعد أن أفنى الشيخ من عمره قرابة الثنتين والتسعين عاماً حافلة بالدعوة والجهاد والتعليم والعمل اختاره الله إلى جواره فوافته المنية في يوم الاثنين آخر شهر شوال[١] سنة ست ومئتين وألف من هجرة المصطفى ﷺ، ودفن في الدرعية، ولم يخلف ديناراً ولا درهما، فلم يوزع بين ورثته مال ولم يقسم[٢] وإنما ورث هذا العلم النافع والأثر العظيم في إيقاظ الأمة من رقدتها وتجديد ما اندرس من أمور دينها، والعودة بها إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ كما ورث هذه السلسلة المباركة من أبنائه وتلاميذه الذين قاموا بنشر هذه الدعوة بمساعدة ومؤازرة آل سعود، فرحمة الله على الجميع، وجزاهم عنا وعن الإسلام خير الجزاء، وكان له من الأبناء حسين، وعبد الله، وعلي، وإبراهيم، رحمهم الله تعالى[٣].

---

(١) على رواية ابن غنام في الروضة (٢/ ١٥٤) وابن قاسم في الدرر السنية، وعلى رواية ابن بشر في آخر ذي القعدة من السنة نفسها. عنوان المجد (١/ ٩٥) وينظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للعبود (ص ١٤٦).

(٢) روضة الأفكار (٢/ ١٥٥).

(٣) عنوان المجد (١/ ٩٢).

توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ولكن دعوته لم تمت، فبقيت حية خالدة من ذلك الزمن إلى يومنا هذا، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بإذن الله تعالى؛ لأنها دعوة التوحيد الخالدة.

ثانياً: آثاره الدعوية في الداخل والخارج:

لقد كانت لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب آثار مباركة في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، وقد تمثل هذا الأثر في جوانب متعددة من أهمها:

١. إحياء الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الشرك ووسائله والذرائع المؤدية إليه، فقد كان من آثارها محاربة كل صور الشرك في الجزيرة العربية والقضاء على مظاهره ووسائله المؤدية إليه. كما انتظمت الدعوة إلى التوحيد في كثير من دول العالم وذلك من خلال ظهور علماء وجماعات وجمعيات تدعو للتوحيد الخالص متأثرة بدعوة الشيخ في كل من دول الخليج، ومصر، والعراق، والشام، واليمن، والهند، وفارس، وكثير من دول العالم، بعد أن سادت مظاهر الشرك معظم تلك البلدان(١).

٢. الرجوع بالأمة إلى الكتاب والسنة على هدي السلف الصالح، وتنقية مصادر التلقي، ونشر العلم الصحيح، ومحاربة الجهل، مع إحياء ونشر السنن، ونبذ البدع وإنكارها؛ لأن دعوة الشيخ قائمة على التغيير من خلال الدعوة، وحث الناس على العودة الصادقة إلى لكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وتحمل واجب الدين من خلال التصدر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والمجاهدة على ذلك.

٣. تحكيم شرع الله تعالى ومحاربه ما يخالف الشريعة من العادات والتقاليد والقوانين، وقد تحقق في ذلك نموذج فريد في العصر الحديث.

٤. تحقيق الجماعة وتوحيد الكلمة على كلمة التوحيد، ونبذ الفرقة والخلافات، بعد ما كانت تعاني الجزيرة العربية وغيرها من التفرق والاختلاف.

٥. تحقيق الأمن والسلطان، فظهر نور الحق في نجد والجزيرة العربية وما جاورها وعم الأمن والاستقرار سائر ربوعها، وقامت عليها دولة عظيمة متحدة، على نهج قويم، وهي دولة

(١) انظر: عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم للدكتور صالح العبود (٦٣١ ـ ٦٩١).

آل سعود، «فإن دولة آل سعود التي عظمت إنما أصلها الدين، أصلها الدعوة إلى الإسلام والسنة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقبلوها وأقاموها خالصة من أي شيء يخالف عقيدة السلف الصالح ونهجهم القيم»[1]، فجعل الله لهم عاقبة حميدة ونصرهم في نهاية جهادهم، وذلك لتمسكهم بمنهج هذه الدعوة المباركة.

٦. عمارة الأرض، والحث على الكسب الحلال ومحاربة البطالة والتواكل.

❀❀❀❀❀❀

(١) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم للدكتور صالح العبود (ص٥٤٦).

المبحث الخامس

شبه المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

المتأمل لتاريخ الدعوات الإصلاحية والحركات التجديدية في العالم الإسلامي في القرون المتأخرة يلاحظ أنه لم تتعرض دعوة لهجوم مثل ما تعرضت له دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، حتى أضحت هذه الدعوة والقائمون بها شيئاً مخيفًا، وتهمة لكل مخالف، وذلك لأنها قامت في ظل واقع سياسي معارض لهذه الدعوة؛ ولذا شنت عليها حرباً لا هوادة فيها، كما أنها واجهت واقعاً مليئاً بالطرق الصوفية وزعماء الفرق الأخرى من أصحاب الديانات المنحرفة، والمصالح والأغراض الخاصة، ولذلك تمالأ المستشرقون، والحكام، والصوفية، والرافضة على النيل من هذه الدعوة وإثارة الشبه والافتراءات والأكاذيب حولها.

وحقيقة الأمر أن غالب الذين يهاجمون الدعوة أصحاب غايات لا يفرقون في سبيل الوصول إلى غاياتهم بين الحلال والحرام؛ ولأجل ذلك يسعون إلى مسخ الحقائق والبراهين، وهو ما سعت إليه قوى سياسية ودينية وجماعات مختلفة وأفراد، حيث لم تأل جهدًا في مهاجمة الدعوة وذمها لأغراض مختلفة: منها السياسي، ومنها المادي، ومنها الديني، ومنها طلباً للمكانة والعلو بين الناس، إلى غير ذلك من الدوافع، ومنهم من بنى أمره على السماع من غير توثيق، وقد يكون من عامة ومجاهيل، ولذا جاء الكلام في غالبه مخالفاً للواقع مليئاً بالأكاذيب والافتراءات بما يثير العجب.

يقول الشيخ مسعود الندوي، وهو من الذين درسوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واطلعوا على جملة مما كتبه أبناؤها وأعداؤها: «كان من الممكن أن نلتمس الأعذار لقبول هذه التهم المفتراة في الماضي، وذلك لأن كتب أهل نجد ما كانت توجد إلا قليلاً، وأن علماء نجد أنفسهم ما كانوا يهتمون بنشر الدعوة خارج بلادهم إلا قليلاً، ولذلك كان من الممكن جدًا لأي شخص أن يحمل آراء كاذبة عنهم بصدق نية وإخلاص، ولكن اليوم إذ انتشرت كتب الشيخ وكتب تلامذته وراجت، فلا يقبل عذر الجهل وعدم العلم»[1].

وقد أثير حول دعوة الشيخ شبه كثيرة هي أضعف من أن يرد عليها، بعد أن تبينت حقيقة الدعوة وانتشرت كتبه ومؤلفاته، لأنها كلها كذب وافتراءات تخالف الواقع، من ذلك: اعتبارها

(١) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، مسعود الندوي: ص(١٨٠).

ديانة جديدة، وهي مذهب خامس، وليست مجرد دعوة إصلاحية بل ذات أهداف مباينة.

وألحقوا بأصحابها التهم العريضة من عدم محبتهم للنبي ﷺ والأولياء، وأنهم ينكرون الكرامات.

كما وصفت دعوته بالتزمت والتشدد والبدائية والتكفير... وغيرها من الشبهات.

وقد أثيرت بعض هذه الشبهات في حياته رحمه الله تعالى. ورد عليها في رسائله بما لا مزيد عليه. وتقدم بعضها[١].

ومن الوسائل التي حارب أعداء الشيخ محمد بن عبد الوهاب بها دعوته الإصلاحية هو تسميتها بالوهابية، والهدف من إطلاق هذه التسمية هو تنفير الناس عنها، وإيهامهم بأنها دعوة مخالفة لمبادئ الإسلام، أو هي نحلة جديدة مبتدعة خارجة عن دين الله، ولقد نجحوا في ذلك حتى أصبح لقب (الوهابية) شبحًا مخيفًا يطلقه الأوروبيون، ومن سار في فلكهم من العلمانيين ونحوهم، على الدعوات الإصلاحية التي قامت في العالم الإسلامي خلال القرنين الماضيين، والتي يخشون على أنفسهم منها[٢]، وتبعهم في هذا الإطلاق الفرق الضالة من الرافضة والصوفية، ومن تأثر بهم، إمعاناً منهم في تشويه الدعوة والتحذير منهم. وأصبح لهذا الاسم الوهابية مدلوله الذهني لدى كثير من المسلمين في ذلك الوقت وفي وقتنا الحاضر، وغاب عن ذهنهم وجوب البحث والتحرّي عن حقيقة هذه الدعوة المباركة التي التزمت الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح عقيدة ومنهجاً، قولاً وفعلاً. أما وقوع بعض الأخطاء في الجانب التطبيقي من بعض أتباع هذه الدعوة، أو ينتسب إليها من يخالف حقيقتها فهذا راجع إلى من وقع منه الخطأ لا إلى الدعوة، وإلا لزم اعتبار الأخطاء التطبيقية لبعض المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام من الفرق الضالة هي أخطاء محسوبة على الإسلام، وهذا لا يقوله عاقل، فالإسلام بريء من أخطاء المنتسبين إليه والمنتحلين، وكذلك دعوة الشيخ بريئة من أخطاء المنتسبين إليها والمنتحلين ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، والله يعلم المفسد من المصلح وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) ينظر تفصيل ذلك لمن أراد الاستزادة كتاب: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ عرض ونقد ـ تأليف د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، وكتاب: إسلامية لا وهابية، أ.د. ناصر العقل.

(٢) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي: ص(١٧٩-١٨٠).

الفصل الثالث

سبل الإصلاح والنهوض بالأمة

ويحتوي على:

المبحث الأول: معالم الخلل في واقع الأمة، وأسباب الضعف الحضاري

المبحث الثاني: ضرورة النهوض بالواقع وإصلاحه وعوامل ذلك.

المبحث الثالث: دور الطالب الجامعي في النهوض والإصلاح (أخلاقيات المهنة).

المبحث الأول

معالم الخلل في واقع الأمة وأسباب الضعف الحضاري

أولا: معالم الخلل في واقع الأمة:

لقد أقام النبي الكريم محمد ﷺ أمة ذات حضارة وسيادة لا مثيل لها بين العالمين، أساسها أمران رئيسان: أولهما: التوحيد الذي أخلصت الأمة من خلاله العبودية لله، والثاني الوحدة التي جمعت أبناءها شعوباً وقبائل تحت راية واحدة، وإمام واحد، وفق منهج رباني قائم على هدي الكتاب والسنة، جمع كل معالم الخير، وحجم كل صور الشر والفساد.

وقد استمر الحال على ذلك عبر قرون متتابعة، توسعت فيها رقعة دولة الإسلام وعمت حضارتها في جل أركان المعمورة، ثم بدأ داء الجهل يدب بين صفوف الأمة، والشرك يشوب توحيدها، والبدعة تظلم طريقها، والنزاع يوهن قوتها ووحدتها، حتى وصلت الأمة إلى أسوأ حالاتها.

أ-فحضارتها قد أخفقت، وقوتها قد ضعفت، وضياؤها قد خفت، واستهدف العدو أرضها، فسلب خيراتها، وفرق كلمتها إلى قوميات ودويلات بعد أن أمات في نفوس الكثيرين من أبناء الأمة مفهوم الأمة الواحدة، والولاء لعقيدتها الراسخة، وقتلوا فينا روح الريادة والابتكار، وشلت عقولنا بالتقليد والتبعية ديناً ودنيا؛ حتى أصبحت أجيالٌ من الأمة مريضة الفكر، ضعيفة الإحساس بقضيتها.

ب-وللأسف الشديد فقد انتشرت كثير من المفاهيم الخاطئة التي تكرس للضعف والوهن مثل الأفكار التي تدعو إلى العزوف عن الدنيا، أو التي تقسم العلم إلى علم شرعي مطلوب، وعلم دنيوي مذموم، وضَعُف دور العلماء، وارتفع معدل الأمية، وانتشرت الخرافات والشعوذة حتى أصبح من السهل تصديق كل خرافة، وسادت القوانين الوضعية في كثير من البلدان حتى أصبح النظام السياسي الذي ينبغي أن يكون حارساً لعقيدة الأمة محارباً لها في بعض الدول، وأصبح الإعلام لا يحمل رسالة الأمة بل كثيراً ما يتناقض مع قيمها الحضارية.

ج- وإضافة إلى ما سبق كله فقد شاع التخلف في مجال العلوم الكونية والصناعية حتى أصبحت الأمة تعتمد اعتماداً كلياً على غيرها في غالب المجالات الصناعية والغذائية والدوائية،

وعلى رأس ذلك الصناعات الحربية، وقلما نجد دولة تمتلك إنتاجا حربيا متقدما، بل استحكمت في الأمة الأمية حتى أصبحنا إذا ابتعنا سلاحاً بمواردنا لا نعرف كيف نستخدمه حتى نستقدم خبيراً من غيرنا يعلمنا كيف نستعمله؛ ولذا سهل على عدونا أن يغزونا في عقر دارنا متى ما رأى ذلك، بل أصبح كلَّ يوم يغزونا ثقافياً عبر قنواته الفضائية التي تهدم الدين والأخلاق، وتزرع الفرقة وتكرس الضياع، ودورنا هو الترجمة لإنتاجه الفكري والثقافي إلى لغتنا إسهامًا في نشر ثقافته وتعميمها.

د- لم يقتصر التخلف على الجوانب المذكورة آنفا بل وجدنا الأمراض التي تجاوزها العالم ما زالت تفتك ببعض البلاد الإسلامية، وكذا ندرة الكفاءات العلمية، وهجرة بعض العقول المسلمة لتستقر في دول الكفر، وعلى الرغم من غنى العالم الاسلامي بموارده الطبيعية فهو يعاني من تخلف اقتصادي كبير في إدارة واستغلال الموارد الاقتصادية، حتى صنفت كثير من دوله بالدول الأكثر فقراً في العالم، تتراكم عليها الديون الخارجية يوماً بعد آخر، حتى وصفنا بالعالم المتخلف والثالث بعد أن كنا العالم الأول، وأصبحنا في هامش التاريخ بعد أن كنا صناعاً له.

هـ- من الأمور الكارثية الفادحة ظن بعض الجهلاء أن سبب تخلفنا يرجع إلى ديننا، فأصبح من أبناء جلدتنا ــ ممن جهلوا تعاليم دينهم وغرتهم الثقافة الغربية التي لم يعرفوا غيرها ــ من يحارب ديننا الذي هو سبب عزتنا وقوتنا وصانع تاريخنا المجيد.

وفي مقابل هؤلاء ظهر من أبناء جلدتنا من كانت عنده ردة فعل عنيفة تجاه واقعنا المؤلم فتبنى بعض الأفكار الغالية والمذاهب المنحرفة فصب جام غضبه وغلوه على أمته في علمائها وولاتها تكفيرًا وتبديعًا وتفسيقًا مما سهل على العدو اختراقه ليكون معول هدم لأمته، ووسيلة تخريب لا تعمير وعامل تفريق وتمزيق لا توحيد وتسديد.

وقد جهل هؤلاء وأولئك أو تجاهلوا أن التخلف الحقيقي هو التخلف عن المنهج الرباني الذي رسمه الله تعالى للحياة لتسعد الإنسانية به، وأن التقدم الغربي في مجالات العلوم التجريبية يقابله تخلف عظيم في مجالات القيم الإيمانية والأخلاقية وغيرها من مجالات مهمة جعلتهم حيارى كالأنعام؛ حتى عبد بعضهم الأوثان، وغلبت عليهم المادية وعبادة الدولار، وفقدوا الكثير من القيم السلوكية المهمة، وتفكك نظامهم الأسري والاجتماعي، وارتفع عندهم معدل الجريمة، ونسبة الانتحار؛ لأن العلوم المادية وحدها لا تحقق السعادة الحقيقية للإنسانية.

ثانيا: معالجة أسباب الضعف والانهيار الحضاري:

من الضروري أن نعلم يقينا أن بناء الأمة لن يكتمل، ومحاولات النهوض لن تثمر إلا إذا عرفنا أسباب ضعف الأمة الرئيسة، وعملنا على معالجتها بحكمة وعقل، أو قللناها ما أمكن، وفيما يلي استعراض لأهم أسباب الضعف والانهيار الحضاري، مع بيان السبيل لعلاجها.

السبب الأول: مخالفة المنهج الرباني والتقصير في الالتزام به، ومن ذلك ما يلي:

١ -الجهل بحقيقة الإسلام وعظمته:

فمن أعظم أسباب ضعف الأمة الجهل بحقيقة ديننا العظيم، والتأثر بالأفكار الدخيلة على المجتمعات المسلمة، مع انتشار الأمية، وتحكم التقليد والتبعية، وضعف روح البحث والابتكار والاختراع، والتفوق والنبوغ، وقد بينا في الفصل الثاني كيف حدث الانحراف عن منهج الإسلام، والانحراف في المفاهيم، وكيف أثر ذلك على مسيرة الأمة، وبينا كيفية علاجه من خلال نهضة ترعى وتهتم بالعلوم الدينية والدنيوية في كافة المجالات من خلال عوامل النهضة العلمية.

٢- عدم تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من البلاد الإسلامية:

ومن أسباب ضعف الأمة كذلك وعوائق نهوضها وتقدمها: عدم تطبيق الشريعة الإسلامية؛ التي هي أمر الله وسبيل تحقيق مرضاته في الدنيا والآخرة، ثم إنها من أعظم أسباب الأمن والاستقرار، لأنها تحقق العدالة الاجتماعية التي تكفل ضروريات الحياة الكريمة للناس كافة، وترعى جميع الحقوق، خاصة الضعفاء كالأيتام والمرأة، وترعى حرمة الدماء والأعراض والأموال، وتحارب كل صور الظلم والفساد والغش والتزوير والاحتيال والكسب غير المشروع، وتحقق خيار الأمة الوسط بدون جفاء أو غلو، وتحقق قيم الحكم الرشيد القائم على الشورى وقبول النصح وحراسة الدين وحسن سياسة الدنيا بالدين، وترعى حقوق الأقليات غير المسلمة، وتضمن حسن التواصل الحضاري مع مختلف الشعوب.

وبدلا من السعي الجاد لإصلاح جميع أنظمة الدول وفق الشريعة الإسلامية، ظهرت دعوات تشكك في الشريعة الربانية وتمجد في الأنظمة الوضعية، حتى استبدلت الأنظمة الوضعية الجاهلية بالشريعة الربانية العادلة في كثير من الدول الإسلامية، وفصلت الدولة عن الدين، أو حصر تطبيق الأحكام الشرعية في بعض الدول على الأحوال الشخصية، فحدث ما حدث من فساد؛ لأن تلك الأنظمة لا تراعي الفطرة الإنسانية، وليست كفيلة بمعالجة قضايا

الواقع، وردع الجناة، بل كانت تلك القوانين الوضعية في كثير من البلاد حامية للفساد والمفسدين، ومسهمه في نشر الرذيلة، وعقبة في طريق نشر الفضيلة وما يحقق نهضة الأمة.

٣- كثرة الذنوب والمعاصي: وذلك لأن الله تعالى وضع سننًا كونية مطردة لا تتخلف يسير عليها الكون بنجومه وأجرامه وكواكبه، فإذا حدث تغير في هذه السنن حل الفساد وعم الخراب، كما وضع سبحانه سننًا تشريعية ليلتزمها الناس وبالتزامها تتحقق لهم السعادة الدنيوية والأخروية. فإذا خالف الناس هذه السنن فقد أذن الله تعالى بشقائهم وانهيار حياتهم وحلت العقوبة بهم كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقد ضرب الله تعالى لنا مثلًا أصحاب القرية الذين كانوا في رغد من العيش، فبدلوا نعمة الله كفرًا فرفع الله نعمته عنهم وأذاقهم عذاب الخزي بما كانوا يصنعون ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

كما ذكر سبحانه لنا قصة مملكة سبأ وما حل بهم لما أعرضوا عن دين الله فقال سبحانه ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥- ١٧].

كما طالبنا سبحانه بأخذ العبرة والدروس من الأقوام السابقة فقال ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فالتأكيد الإلهي واضح بنزول العذاب والعقاب على البشرية إن هي خالفت المنهج الرباني وانغمرت في الذنوب والمعاصي ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وخلاصة الأمر أن الذنوب والمعاصي هي من أكبر أسباب انهيار الدول والحضارات وزوال الأمم، فالواجب الحذر منها، والتوبة من اقترافها، ومعالجة الأسباب المؤدية إليها.

السبب الثاني: الظلم وغمط الناس حقوقهم:

وهذا السبب وإن كان مندرجا في سابقه وهو مخالفة المنهج الرباني إلا أننا أفردناه بالذكر لخطورته الشديدة، و المتأمل للقرآن الكريم يرى كثرة الآيات الدالة على تدمير الدول والأمم والقرى وانهيار الحضارات بسبب ظلم أهلها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١] إلى غير ذلك من الآيات، وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن له في الآخرة من خلاق، وإن لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»(١). ولذلك فقد تستمر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، وتسقط الجائرة الظالمة وإن كانت مسلمة.

والعدل الحق لا يكون إلا بتطبيق أحكام الشريعة التي تضمنت العدل كل العدل في إعطاء الحقوق لأصحابها، وتنظيم العلاقات بين الناس تنظيمًا عادلًا، والظلم والعدل يشترك فيه أفراد الناس وجماعاتهم، ويشمل كل راع كبر أو صغر «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»(٢)، ولهذا قال ﷺ: «**إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**(٣)»(٤).

وفي قصة عبد الله بن رواحة لما أرسله النبي ﷺ لخرص تمار خيبر، فأراد يهود أن يرشوه، فقال عبد الله: أنتم أبغض خلق الله إلي قتلتم الأنبياء وكذبتم رسل الله، وبغضي لكم لا يحملني

---

(١) ابن تيمية: الحسبة (ص٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ح: ٨٩٣.

(٣) أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه. النهاية (١/ ١٩٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه عن أي سعيد الخدري، والطبراني في الكبير والأوسط عن معاوية وابن مسعود، والبزار عن عائشة. قال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٤/ ١٩٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع ح: ٢٤١٧، وصحيح ابن ماجه ح: ١٩٨٤.

على أن أحيف عليكم قالوا: «هذا الحق، وبه تقوم السماء والأرض»[١] أي العدل.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: «أما بعد: فإني مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالًا يرمُّها به فعل. فكتب إليه عمر؛ أما بعد: فقد فهمت كتابك، وما ذكرته أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمّتُها. والسلام»[٢].

السبب الثالث: الترف والانحطاط الخلقي والفساد الاجتماعي:

ومع أن الله تعالى قد جبل الإنسان على حب المال والدنيا وزينتها ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، إلا أنه سبحانه نهى عن الإفراط في حب الدنيا والركون إليها والانغماس في اللهو والملذات والشهوات. وجعل ذلك سببًا في انحلال الدول وسقوط الحضارات وذلك عند انتشار الفساد والظلم والترف والإجرام، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦- ١١٧]، فجعل سبب النجاة من الهلاك هو الإصلاح لا مجرد الصلاح. ولا يمكن أن يتحقق الصلاح إلا بالإصلاح، والنجاح دائمًا محفوف بالتعب والبذل والمشقة.

وقد بيَّن تعالى أن سبب تدمير شعب من الشعوب أو قرية من القرى إنما هو فسق ومجون مترفيها وانحطاط أخلاقهم وما ينتج عن ذلك من فساد اجتماعي كبير وانحطاط خلقي عظيم تستحق به الهلاك والتدمير قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وأكد سبحانه أن هذا القانون الإلهي عام وشامل لكل قرية وأمة تبطر معيشتها وتستسلم إلى حالة الميوعة والفساد والبذخ والترف والإسراف، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

---

(١) القصة أصلها في الصحيحين، وهي في سنن أبي داود (٣٤١٣) وابن ماجه (١٨٢٠).

(٢) حلية الأولياء للأصبهاني (٥/ ٣٠٥).

وبيَّن عز وجل أن من أسباب انحرافهم الذي استحقوا به العذاب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، وقصة قارون وبطره وترفه وبغيه الذي استحق به عذاب الله بأن خسف به وبداره الأرض معروفة مشهورة.

ولهذا كان ﷺ يتخوف على أمته الركون إلى الدنيا والتنافس فيها، وبيَّن أن ذلك سبب هلاك الأمم قبلنا، قال ﷺ: «**فوالله ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

أما من فتح الله عليه من الدنيا وابتلاه بها فيجب أن يستعملها في البناء والتعمير، لا في الهدم والتدمير، في البناء الدنيوي والأخروي لا في هدم القيم والأخلاق وصحة الأجساد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ومن ثمرات الترف والفساد الخلقي والاجتماعي بروز الاستكبار والطغيان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦- ٧]. وجعل الله تعالى سبب هلاك الأمم والشعوب: التكبر والطغيان الذي يستوجب العقوبة الدنيوية العاجلة من الهلاك والتدمير قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، والجزاء من جنس العمل. وقال عن فرعون: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٠- ١٤]، ولهذا جعل الله تعالى الطغيان سببًا لحلول غضبه تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١].

في مقابل ذلك وعد الله تعالى بالتمكين والاستخلاف، والأمن والاستقرار لعباده المؤمنين

(١) أخرجه البخاري ح: ٦٤٢٥.

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فهي خالصة لعباده الموحدين ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ودور الانحطاط الخُلقي في ذهاب الأمم ودمارها أمر مشاهد محسوس، وقد قال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[١]

يقول إجوستاف لوبون: «ونحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وهي التي حفظ التأريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيرًا نشأ عن انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها»[٢]. قال: «والأمة بعد أن تبلغ الدّرجة من الحضارة والقوة حيث تطمئن إلى أنها لا تكون عرضة لهجوم جيرانها تبدأ بالتمتع بنعم السلم والترف التي يمنّ الثراء بها عليها فتذبل المزايا الحربية، وتوجب زيادة الحضارة حدوث احتياجات جديدة، وتنمو الأثرة..»[٣].

ثم بيَّن أنه تنصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة، وتضيع في الناس الفضائل التي كانت سببًا في عظمة الأمة.

وضرب على ذلك بمثالين وهو ما جرى للرومانيين والفرس؛ فهم على ما كانوا عليه من إحكام النظام و... و... لكنها قد أضاعت العامل الأساسي الذي لا يقوم الذكاء مقامه مهما بلغ ألا وهو الخُلق.

وتقدم في المستوى الأول من الثقافة الإسلامية الكلام على عامل الخُلق وأثره في بناء الأمم والحضارات وفي انحطاطها وانهيارها عند اهتزازه واضمحلاله.

---

(١) الشوقيات (١/ ٢٢٤).

(٢) السنن النفسية لتطور الأمم. غوستاف لوبون (ص١٢٩ - ١٣٠) ترجمة عادل زعيتر، ط. أولى ٢٠١٤، ن. مؤسسة هنادي ـ مصر.

(٣) المصدر نفسه (ص١٣٠).

لهذا كله فإن من عوامل النهضة الحقيقية والرقي الحضاري هو الحذر والبعد عن كل أسبا ب الضعف والتخلف والانهيار، والله المستعان.

السبب الرابع: التفرق والاختلاف وعدم الوحدة بين أبناء الأمة الواحدة:

من أعظم صور الضعف التي أصابت الأمة التفرق والاختلاف وعدم توحيد الصفوف، على مستوى الأفراد والدول والمجتمعات، مع أن العالم الاسلامي لا يمكن أن ينهض إلا إذا اعتبر توحيد الجهود وتكامل الإمكانات قضية مصيرية.

ولا شك أن التفرق داء فتاك يُضعف الأمة ويقعد بها عن الشهادة على الأمم، فلن تنتصر أمة تاريخها النزاع والافتراق، ولن تبقى لها قوة وهذا حالها، ولذا أمر الله بالاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وأكد هذا الأصل بأدلة كثيرة قاطعة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] فهذه سنن الله الكونية لا تحابي في النصر والتمكين، أو في الإخفاق ومحو الأثر في الأرض.

والمخاطر التي واجهتها الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها عبر تاريخها الطويل كثيرة ومتنوعة، ولكن أعظمها خطرًا وأكثرها ضررًا هو ما يحدث بين أبنائها من نزاع بسبب الخلافات العقدية والفكرية أو المذهبية أو السياسية، والذي تنبثق عنه صراعات تبدد أموال الأمة وطاقاتها، بل يصل الأمر أحياناً إلى سفك دمائها وانتهاك أعراضها، وتصبح سيوفهم في نحور بعضهم يوجهها العدو كيف شاء، حيث يوظف العدو دائماً خلافات أبناء الأمة في تحقيق مقاصده وأهدافه الخبيثة بأيسر السبل وأقل التكاليف، وهم متجاهلون لأصل الاختلاف وأدبه، عاجزون في كثير من الأحيان عن تجاوز آثاره.

ومن هذا المنطلق فنحن في أمس الحاجة إلى الفهم الصحيح للاختلاف، وفقه التعامل مع المخالف، إذ وجود الاختلاف لا يعني بحال الاعتداء والظلم والقهر والبغي، بل وجوده مدعاة للرحمة والرأفة والرفق؛ للوصول إلى كل خير والبعد عن كل شر؛ولذا علينا أن ندرك في طبيعة الاختلاف ما يلي:

أ ـ أن الأصل في الخلاف أنه مذموم لما ورد في ذَمّه من النصوص المحكمة التي تبين

خطورته وتحذر منه، وتبين آثاره الوخيمة في هدم كيان الأمة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وغيرها من الآيات التي فيها إطلاق ذم الاختلاف وعيب أهله(١).

وفي السُّنة مثل ذلك فعن عبد اللهَّ بن عَمْرٍو قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهَّ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلاَفِهِمْ فِي الْكِتَابِ»(٢).

ولم يصح حديث واحد في مدح الاختلاف، وقد يستدل بعضهم بحديث (اختلاف أمتي رحمة)، وهو استدلال بحديث لا يصح؛ بل صرح بعض العلماء أنه لا أصل له(٣)، وهو مناقض للأصل الذي أصله القرآن الكريم، وأكدته السنة المطهرة في حقيقة الخلاف والاختلاف؛ وذلك لأن الاختلاف في عمومه يقود إلى التنازع والشر، وهو مدخل من مداخل الشيطان على النفوس، ولأن الناس كلما تقاربوا في الفكر والمعتقد والرأي ازدادت المحبة بينهم، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولذلك تجد أن هناك رغبة جامحة لدى البشر في المجتمع الواحد في التوافق الفكري، وعدم خروج أحد أفراده عن الإطار العام، ويستخدم لأجل تحقيق ذلك أساليب مختلفة قد تصل إلى درجة بالغة في العنف والإيذاء حتى وإن كان المجتمع على الباطل والمخالف على الحق، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

(١) راجع للمزيد: إتمام السنة والنعمة في ذم اختلاف الأمة، عبد اللطيف آل الشيخ: ص(٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب: النَّهْيِ عَنِ اتباع مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُتَّبِعِيهِ وَالنَّهْيِ عَنْ الاِخْتِلاَفِ فِي الْقُرْآنِ، ح رقم٦٩٤٧.

(٣) راجع سلسة الأحاديث الضعيفة للألباني ص: ٥٧.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ ولذا كان وحدة الصف وعدم الاختلاف مقصداً من مقاصد الشريعة.

ب ـ الاختلاف في أصله ينقسم إلى اختلاف مذموم، وخلاف سائغ، ولا يعد تعدد اختلاف الآراء والاجتهادات والفهوم المنضبطة بضوابط الشرع التي تقع بين أهل العلم والاجتهاد من الاختلاف القبيح المذموم، المتوعد أصحابه بالعذاب مثل خلاف أهل الأهواء والبدع من الخوارج والرافضة مما دعاهم إلى الخروج على جماعة المسلمين واستحلال دمائهم.

أما الخلاف السائغ المقبول فلا ضير منه، لأنه اختلاف في الاستدلال بالدليل مع اتفاق الجميع على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وهو يدخل في باب الاجتهاد المأجور صاحبه أصاب أو أخطأ، ومن هنا فقد وقعت صور كثيرة من الاختلاف بين الصحابة والأئمة لأسباب مقبولة كالاختلاف في وجه الاستدلال بالدليل، أو في عدم ثبوت الدليل إما لعدم بلوغ الحديث أو عدم ثبوته عند من بلغه، أو اعتقاد ضعفه، أو غير ذلك من أسباب علمية تخلو تماماً من الهوى الممقوت(١).

ج ـ الاختلاف بين الناس أمر واقع ومتوقع لا محالة، ورفعه مستحيل، وذلك لاختلاف قدرات البشر وفهومهم وثقافاتهم وأهوائهم، فهو من مقتضى حكمة الله سبحانه وتعالى وإرادته وسننه الكونية، أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، أي خلقهم للاختلاف، بأن يكون منهم المؤمن ومنهم الكافر، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، أي اقتضت حكمته -تبارك وتعالى- أن خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون، والفريق الذي هدى الله والفريق الذي حقت عليهم الضلالة ليتبين للعباد عدله وحكمته(٢).

ولأجل ذلك وضع الإسلام ضوابط للخلاف والتعامل مع المخالف، ومنهجاً في كيفية

---

(١) انظر: الرسالة القيمة التي بعنوان: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص(٣٩٢).

الوصول إلى الحق والتعايش مع المخالف، فتجاهل هذه السنة الإلهية، أو التعامل معها بغير ما جاء في الشريعة الإسلامية من ضوابط أدى ويؤدي إلى عواقب وخيمة، قد تفقد مجتمعاتنا بسببها الأمن والاستقرار والحياة الهانئة، بل كل مقوماتها المادية والبشرية مما يؤدي إلى الفشل والهلاك بصورة عامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، إذ بالاختلاف يتحولون من ملةٍ واحدةٍ إلى مللٍ شتى[١]، فيُكفِّر بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً. وهذا لا شك أمر خطير، لا بد من الحذر منه والابتعاد عن أسبابه.

ومن هنا يأتي دور العلماء والدعاة وطلبة العلم والمفكرين للقيام بواجبهم في هذا المضمار؛ لدرء الخلاف قدر الإمكان، وتضييق هوته، وتعليم الناس قبول الاختلاف السائغ، وسعة الصدر به، تمشياً مع سعة هذا الدين وعظمة مبادئه، وذلك فيما يسوغ فيه الاختلاف، كل ذلك بعد أن يتمثلوا ذلك في واقع حياتهم. وكذلك على العلماء النهي عن كل الأسباب والدواعي والبواعث التي تؤدي إلى الاختلاف أو تأجيج نار الفتن.

فهذه أصول مهمة لا بد من إدراكها لمعرفة أصول الاختلاف وفروعه وحسن التعامل بعد ذلك مع المخالف، فبعد معرفة فقه الخلاف لا بد من معرفة فقه التعامل مع المخالف؛ لأنه في ظل إدراك ما سبق من فقه الخلاف تأتي مبادئ الإسلام لتوجه اتباعه بالتعامل مع مخالفيهم سواءً أكانوا من المسلمين أو غيرهم وفق مناهج وطرق حضارية متميزة ورائدة في بابها، تؤلف ولا تفرق، وتصلح ولا تفسد؛ وذلك من خلال المعالم التالية:

١ ـ لا بد من التفريق بين النظر إلى المُعْتَقَد والفكر وبين المُعتَقِد. فالمعتقد أو الفكر منه ما هو باطل ومنه ما هو حق، فالمسلم مأمور بقبول الحق والإذعان له ورد الباطل، وذلك بغض النظر عن القائل بهما، وفي الحديث الصحيح المشهور: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ**»[٢] لما حدث إبليسُ أبا هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن آية الكرسي.

أما المُعْتَقِدُ فالمسلم مأمور بموالاة إخوانه المسلمين الذين يجتمعون معه على اعتقاد الحق الذي جاء عن الله وعن رسوله ﷺ من أي جنس كانوا، وفي أي عصر، أو مصر كانوا، قال

(١) فتح القدير، للشوكاني (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب: وَكَالَةِ الْمَرْأَةِ الْإِمَامَ فِي النِّكَاحِ، ح: ٢٣٥٣.

تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]؛ولا بدّ هنا من الإشارة إلى نظرة الإسلام المنطقية والمتميزة التي لا يكاد يدركها كثير من المسلمين اليوم، وتتلخص في ما يلي:

أ/ الاعتراف بوجود الاختلاف والمخالف، فليس كل الناس على الحق، فضلاً عن أن يكونوا متفقين في الرأي والتوجه، وإنما توجد فئام انحرفت عن الحق صغر ذلك الانحراف أو كبر، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ومن هنا يستنبط أن اتفاق الناس على رؤية واحدة أمر غير واقع، فهناك اتباع للحق وهناك منحرفون عنه.

ب/ أهل الحق بشكل عام أيضاً يقع الاختلاف بينهم في شيء من الجزئيات، فلا تتحد آراؤهم دائمًا، بل قد يخالف بعضهم بعضاً في المسائل الاجتهادية ووجهات النظر، لكن أكثره اختلاف تنوع وتعدد لا اختلاف تضاد وتناقض، وقد أشار القرآن إلى وجود ذلك في آيات كثيرة منها: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فلو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد نسخاً مكررة لا تفاوت بينها ولا تنوع، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض، وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في هذه الأرض.

ج/ أن هذا الاختلاف الواقع بين أهل الحق له مرجعيةٌ لا بد من الرجوع إليها والوقوف عندها؛ ألا وهي ما جاء عن الله في كتابه تعالى وسنة رسوله ﷺ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

د/ من عرف الحق ولزمه أو كان منحرفاً عنه ثم رجع إليه هو الحائز على فضل الله وهدايته، ولا يمكن أن يتحقق إلا بالنية الصادقة المخلصة، التي تطلب الحق وتسعى إليه بلا هوى أو انحراف، يقول تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢ ـ من انحرف عن الحق وحاد عنه، فعلى أهل الحق دعوته إليه، بحيث تتحد الكلمة ويلتئم الشمل، وذلك انطلاقاً من قوله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ «للهِ، وَلِكِتَابِهِ،

وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»[١]. من خلال أسلوبٍ حسن وتعامل راق في غير عنف ولا إكراه، ومع مراعاة تعددية الآراء في ظل الشريعة الإسلامية؛ فلا يبذل هذا إلا لمن كانت مخالفته لأصول الشريعة أو فروعها مخالفة ظاهرة بينة مجمعاً عليها، أما ما يسع فيه الخلاف فلا، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن فكيف بالمسلمين.

٣ ـ قد لا يوفق الداعي إلى الحق لاستجابة المدعوين، وهذا أمر يفرض عليه التأمل في كيفية التعامل معهم من منطلقات شرعية سالمة من الأهواء.

فمن خالفنا في الأصول التي يفترق الناس عندها إلى مسلم وكافر، وكف أذاه ولم يقاتل ولم يعتد فإن الله أمر بمكافأته بالبر والقسط معه في التعامل الدنيوي بصورة خاصة، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]. فهذه صلة ومكافأة دنيوية، ولعلها تكون سبباً في التزام الآخر منهم الحق والاستقامة عليه[٢].

وإذا كان الاختلاف في الأصول لم يمنع من التعايش، بل يؤكد التعايش والتعاون إذا كان في الفرعيات، فلا يصح بحال أن تطغى العصبيات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، لأجل مذهب معين، أو عالم، أو قول لتحول بين المسلمين بعضهم عن بعض، أو لتصنع بينهم عداوات وصراعات تزيدهم ضعفاً واختلافاً وافتراقاً، وهذا أمر واقعٌ فعلًا في تاريخ المسلمين إذ وصل في بعض مراحله إلى أن عادى اتباع المذاهب بعضهم بعضاً وصار يسعى بعضهم لبعض بالكيد والأذى، مما حصل بسببه القتال والفتن الكثيرة[٣]، وهو يتكرر في واقعهم اليوم وللأسف؛ لكن بصور أخرى في التعصب لشيخ أو حزب أو طائفة.

٤ ـ إن حسن التعامل والتعايش السلمي مع وجود الاختلاف في الآراء والأفكار لا يعني بحال من الأحوال، ولا يلزم منه أن يكون مبنياً على شك أصحاب الحق فيما لديهم من الحق، أو ارتيابهم فيه، بل يكون حسن التعامل والتسامح؛ مع وجود اليقين التام بما لديهم من حق،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان الدين النصيحة، ح: ٢٠٥.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، صالح الفوزان: ص(٢٤).

(٣) حاضر العالم الإسلامي، جميل عبد الله المصري: ص(٥٤)، (ط٢، ١٤٠٩هـ، دار أم القرى، عمان-الأردن).

ومعرفتهم الكاملة بما لدى مخالفهم من الباطل، لكنهم يقومون بذلك وفق ما جاء في شرع الله تعالى، كما في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وكذلك انطلاقاً من سيرة المصطفى ﷺ الذي كان على الرغم من أنه هو الذي بلغنا الحق، فقد كان يعود جاره اليهودي ويحسن التعامل معه(١)، هذا إذا كان الأمر متعلقاً بالمخالفين في الأصول التي لا يصلح الاختلاف فيها، وأهون منه بلا شك اختلاف أصحاب المذاهب الإسلامية في الفرعيات التي يجوز فيها الاختلاف إجمالا، أو قد تجد للمخالف عذراً.

كما أن الاختلاف الكوني القدري في الناس لا يعني مطلقاً أن الكافر معذور في كفره، وأن الله ضمن له حرية الكفر شرعاً، فإن الله يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وإنما المراد من الآيات تنبيه النبي ﷺ والدعاة إلى الله على سبيله إلى أن عدم استجابة الكفار لدعوتهم غيرُ خارجة عن السُّنة الإلهية الكونية، فلا ينبغي الجزع من إعراضهم؛ فإن اتفاق الناس على الإيمان غير وارد أصلاً، على مقتضى السنة الإلهية، كما قال سبحانه لنبيه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد انحرف قوم بمفهوم الاختلاف هذا فراحوا يسوّغون حرّية الكفر تحت عنوان حرية الاعتقاد، بحجة ما دل عليه القرآن من أن الاختلاف سنة إلهية وطبيعة بشرية(٢)، وربما استشهدوا على ذلك بنحو قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، مع أن الآية كما يدل تمامها سيقت للوعيد والتهديد، لا التخيير(٣).

بل سوّغ بعضهم بذلك حرية الردة عن الإسلام، وأنكروا عقوبتها الواردة في قول النبي ﷺ الثابت عنه: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(٤)، مع أن حكمة هذا الحد ظاهرة، وهي صيانة المجتمع المسلم من فتنته في دينه، قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٩، ح رقم١٣٧١.

(٢) انظر مثلاً كتاب: "حرية الاعتقاد في القرآن الكريم" للدكتور عبد الرحمن حللي ص ١٢٦، ١٢٧.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٦١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في باب: لَا يُعَذَّبُ بِعَذَابِ اللهِ ح: ٢٨٥٤.

وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقد أشار إلى هذه الحكمة قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

خامساً: إن الاختلاف بين المسلمين لا يعني هدم الأخوة الإسلامية، وما تحمله في طياتها من حب وإخلاص وصدق ووفاء، في نظرة خالية من ظنون الخيانة والبغضاء والخوف، وذلك لتلتقي الأمة بفئاتها وجماعاتها على نصرة دين الله حبًا فيه وولاء لله ولرسوله ﷺ علمًا وعملًا واحتكامًا، في انتماء يستعلي على كل انتماء حزبي أو إقليمي، أو أسري، أو حتى لعالم بعينه، أو لمذهب اختزل الإسلام فلم يجعله يظهر في سواه، وملأ قلوب وعقول العامة والاتباع بذلك.

إن على أهل العلم والدعوة أن يدركوا قيمة ما يدعون إليه، وما يجمعهم من دين، فليس الحق حكراً على مسلك أو شيخ أو مجموعة معينة، والخلاف في الرأي لا يجوز أن يكون مصدر لجاجة أو غل، وإن من شأن المجتهدين أن يختلفوا، ونتائج هذا الاختلاف مقبولة من غير تشنج ولا تعصب، ومن غير أن ينبني عليه شقاق، أو تتنامى بسببه أحقاد، لا بد أن ندرك جيدًا أن النقد لا يجعل الحق حكراً على الناقد(١).

ولا شك أنه عندما يشعر المسلم بهذه الأخوة فالرب واحد، والرسول واحد والملة واحدة والقبلة واحدة والمصدر المعصوم ـ الكتاب والسنة ـ واحد، فسوف يزيل ترسبات التعصب، ويقبل النصح ويبذله بكل نفس طيبة، فلا يتحول النصح إلى تعيير أو مجادلة يتبعها نزاع وشقاق قد يتطور إلى ضرر وأذى وفرقة وشر.

و كل ذلك يمكن التغلب عليه بأن يربي العلماء وأصحاب الرأي والفكر والدعاة وطلبة العلم أنفسهم والناس عموماً على أمور من أهمها:

أ) حسن الظن بالمخالف وتغليب أخوة الإسلام على كل اعتبار آخر، وحمل ما يصدر منه أو ينسب إليه على المحمل الحسن ما أمكن ذلك.

ب) إذا صدر ما لا يمكن تحمله فيعتذر عنهم ولا يعدم قاصد الخير والحق أن يجد لإخوانه من الأعذار ما يُبقي صدره سليماً ونفسه رضية. وهذا لا يعني القول بأنهم لا يخطئون،

(١) أدب الخلاف، صالح بن عبد الله بن حميد: ص(٧).

بل هم يخطئون ويغفر الكريم الخطأ ويتجاوز عنه، كما يحب أن يُتجاوز عنه إذا أخطأ هو.

سادساً: العناية بتربية الأمة على طلب الحق والقبول به، والتحذير من الانصياع للأهواء وترك الحق لأجلها، حيث يأسره هواه فيصبح لا يرى ولا يسمع ولا يفكر ولا يعمل إلا من خلاله، وصاحب الهوى يعميه هواه ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله ﷺ في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله ﷺ، ولا يغضب لغضب الله ورسوله ﷺ، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه[١].

وهذا من أكبر أسباب التفرق والاختلاف وتعدد الطوائف والأحزاب مع وجود النفرة بينها والتناحر؛ فكل فريق يزعم أنه على الحق المبين[٢]. والمتأمل في كثير من الخلافات الواقعة اليوم بين الجماعات والأفراد، سواء كان ذلك في مسائل العلم، أو في مجال التوجيه والعمل يجد ظاهرها طلب العدل والإنصاف أو الصواب، وترك الانحراف، وحقيقتها اتباع الهوى[٣].

وفقه الاختلاف وأدب التعامل مع المخالف من الموضوعات الواسعة؛ لكن هذه إشارة لأهم ما يمكن اتخاذه ومعرفته للإسهام في معالجة شيء من الواقع؛ وذلك مما يجب على الدعاة والعلماء والمصلحين القيام به على سبيل الوجوب لا الندب، إذ إن فقه الاختلاف ومعرفة أصول التعامل مع المخالف من أهم ما يحقق الألفة والمودة بين المسلمين ويجمع كلمتهم على الحق والهدى، ويعصم مسيرتهم في النهوض من الانحراف.

(١) منهاج السنة النبوية، أحمد عبد الحليم ابن تيمية: (٥/ ٢٥٦).

(٢) اتباع الهوى(مظاهره، خطره، علاجه)، سليمان بن صالح الغصن: (ص: ٥٠).

(٣) الهوى وأثره في الخلاف، عبد الله الغنيمان: ص(٢١، ٢٢).

المبحث الثاني
ضرورة النهوض بالواقع وإصلاحه وعوامل ذلك

أولاً: ضرورة النهوض بالواقع واستصلاحه وتنسيق الجهود لذلك:

لا شك أن الوضع السيئ الذي آلت إليه الأمة يوجب العمل على تغييره حتى تعود إلى مكانتها الطبيعية قائدة للأمم، وهادية لركب العالمين، ومن ثم فإن القعود للقادر معصية؛ لأن الله سبحانه أمرنا في الكتاب والسُّنة بالأخذ بأسباب القوة والعزة، وعدم الركون إلى الضعف والمذلة، والسعي الدائم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ويكون الدين لله ربِّ العالمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالواجب على كل فرد وجماعة أن تبذل ما في وسعها وطاقتها لتغيير هذا الواقع وفق السنن الربانية التي لا تتبدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقد تعددت وتنوعت الجهود المبذولة لإصلاح الأمة في مجالاتها ومن حيث نوعية القائمين عليها؛ فبعضها يكتسب صبغة الجماعية والمؤسسية، وبعضها ذو طابع فردي لكنه تجاوز في أثره الإصلاحي جهود المؤسسات، وتجاوز حدود الزمان والمكان؛ بل أصبح أثرهم مدارس تربوية تتربى عليه الأجيال لما كان عند أصحابها من إخلاص وعلم وجهد وزهد.

وهذه الجهود، مع تنوعها وتباين أثرها، تختلف كذلك من حيث الموافقة للشرع أو الابتعاد عن منهج النبوة في الإصلاح، كما هي تختلف في الأسلوب والأولويات، ومن هنا كان طرح موضوع سبل النهوض بالأمة وإصلاحها والتذكير به أمراً مهماً وضرورياً لسببين:

الأول: أهمية فهم الموضوع؛ لأن الاختلاف في فهم سبل النهوض والإصلاح وتصوره أدى إلى تشتت الجهود، وتبدد الطاقات ـ فقد كثر الدعاة والمصلحون، والجماعات والجمعيات العاملة، وقلّ الاتفاق فيما بينها في الأولويات ـ فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، والعلم

والفهم السليم يسبق القول والعمل؛ لأن العمل بلا علم كالسَيْر في الفلاة بدون هدى، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، فصواب العمل مقترن بصواب العلم الذي يقود إليه.

والآخر: تنسيق الجهود، وتنظيم صفوف العاملين لتحقيق الأولويات التي تم الاتفاق عليها؛ لأن الأمة لن تنهض إلا بالفهم السليم للدين؛ والعمل المستقيم به وله، وفق جهود متراصة متعاونة غير مختلفة ومتناقضة.

فكثير من جهود العاملين غير متناسقة ومتكاملة، فهي إما جهود طابعها فردي، أو ذات تصورات قاصرة، أو ذات طبيعة متنافرة مع غيرها، إما لخلل في فهم الأولويات، أو لضعف في تشخيص الداء وتحديد وتقديم الدواء، فكثير من المعالجات هي مسكنات، والبعض الآخر يفهم الأولويات ولكنه يظن أنه وحده يمكنه أن يحقق نهضة الأمة بمفرده، والله عز وجلّ يدعو للتعاون على عمل الخير، ورصّ الصفوف في سبيل نصرة الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

فالأمة لتنهض بحاجة إلى فهم سليم لدينها، ومعرفة عميقة بواقعها، وفهم الواجب في هذا الواقع، والعمل له بوعي وتعاون كبير بين أفرادها، بعيداً عن حظوظ النفس، فإنَّ الخلل في فهم سبل النهوض، أو الاختلاف في طرق العلاج، أو العمل بدون تعاون وتنسيق بين العاملين؛ أضر كثيراً بمسيرات الإصلاح في تاريخنا المعاصر.

ولابد من التذكير بأن السعي للنهوض بالأمة لا يختص بفرد أو طائفة دون غيرها، بل المسؤولية متعلقة بالجميع، الفرد والأسرة والمجتمع، والحاكم والمحكوم، والأب والمعلم والقائد والداعية والإعلامي وغيرهم.

ولذا فمن المتعين على حكام الأمة السعي الجاد لنهضتها من خلال تصحيح النظم لتتوافق مع الشريعة، والعمل على تحقيق العدل بين كل أفرادها دون تمييز، والسعي والعمل الجاد في تحقيق التضامن الإسلامي دولاً وشعوباً، والعمل على استثمار ثروات الأمة والمحافظة عليها، والأخذ بوسائل التقدم المادي والمعنوي في سائر مناحي الحياة، وتوجيه التعليم والإعلام لبناء أمة قوية جادة.

إنَّ هذه الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس، وهي أحق الأمم لقيادة ركب الإنسانية فيما يحقق صلاحها وفلاحها، ولكن لحكمة أرادها الله ابتليت في كثير من عوامل قوتها ونهضتها حتى استهدفها العدوُّ من كل ناحية؛ لذا فالواجب عليها أولاً لتعود إلى مكانتها، ويصرف الله عنها كيد عدوها أن تعود إلى ربها بتوبة صادقة نصوح تخلص له العبودية، وتجرد لله الاستسلام، وتقلع عن المعاصي والآثام، وتبعد عن حياة اللهو والترفِ والركون إلى الدنيا وزينتِها، وأن تأخذ بكل أسباب القوة والعزة، وتنبذ كل صور الضعف والهوان، وتعتصم بحبل الله وتتمسك بصراطه المستقيم الموصل إلى كل خير وسعادة وفوز ونجاح وتوفيق.

فنحن أمة تملك مقومات البقاء، وأسباب النهوض، وسبل العزة والتمكين، فإن جاء جيل معرض عن دينه عاجز عن القيام بواجبه، بخيل في عطائه لدينه وأمته، أذهبهم الله وأتى بجيل أعز منهم وأكرم فحقق على أيديهم النصر الذي هو جائزة المجاهدة في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ثانيًا: عوامل النهوض والإصلاح:

الطريق الموصل إلى نهضة الأمة وإصلاحها واحد، وهو: العودة الصادقة إلى الكتاب والسُّنة أفراداً ومجتمعات، ونبذ كل صور الضلال والغي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥]، و قَالَ ﷺ: «**أَلاَ وَإِنِّى تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلاَلَةٍ**»(١)، وفي رواية البيهقي في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرك «إِنِّى قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِى، وَلَنْ يتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الْحَوْضَ»(٢). مع وجوب فهمهما على منهج السلف الصالح

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب برقم ٦١٨٣.

(٢) تقدم تخريجه.

من الصحابة والتابعين وأتباعهم أصحاب القرون المفضلة، الذي هو سبيل المؤمنين المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]

فهذا هو الدين الحق، والصراط المستقيم، والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي سبب العز والنصر الذي لن تكون لنا نهضة وعزة بسواه، مع العمل على محاربة كل صور الجهل والتخلف والانحرافات التي أضعفت الدين في النفوس، وأورثت خبالاً في الأمة، وجعلتنا في ذيل الأمم؛ وذلك لأن سر تأخر المسلمين هو ابتعادهم عن دينهم القويم فهماً وتطبيقاً، فإن أي عملية للإصلاح ينبغي أن تتم على منهج الإسلام وفق خطا الأنبياء في الدعوة والاصلاح، وليس باستيراد مبادئ وأفكار ونظريات بعيدة عن الدين والإيمان الصحيح، مع الأخذ بالأسباب المادية والإفادة مما عند الآخرين بما لا يتعارض مع الكتاب والسنة، ولا يكون ذلك إلا بتصديق ما جاء في الكتاب والسُّنة خبراً، والأخذ بشريعتهما حكماً، وتربية الأجيال على المنهج النبوي المستقيم علماً وعملاً.

والعودة إلى الكتاب والسُّنة عنوان كبير يتطلب أموراً كثيرة ترتبط بأولويات عديدة، وحاجة ملحة في الواقع الذي نسعى لإصلاحه، ولذا بعد هذه التوطئة والتمهيد نأتي إلى بيان سبل النهوض بالأمة المنبثقة من العودة إلى الكتاب والسنة، والتي تتمثل في المحاور والنقاط الآتية إضافة إلى ما تقرر من مقومات بناء الأمة الإسلامية المذكورة في أول الكتاب:

المحور الأول: عوامل النهضة الإيمانية والفكرية:

النهوض بأي مجتمع أو أمة يبدأ بالإنسان، من حيث تصحيح عقيدته وفكره وتصوراته ومفاهيمه لتستقيم وجهته وسلوكه وممارساته في الحياة؛ فإن العمل القويم لابد أن ينطلق من فهم صحيح، فعند ما تكون التصورات مختلة تكون التصرفات معتلة، ومتى كانت المفاهيم سقيمة كانت النتائج وخيمة.

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب لتعليم الناس وتصحيح مفاهيمهم، وتزكيتهم على المنهج الحق الذي صرنا به خير أمة أخرجت للناس، وعُرف فضلها، واتحدت كلمتها، وعزَّ جنابها، وبطل كيد عدوها الذي يسعى دائماً ليطفئ نورها، ويفرق جمعها، ويجهل أبناءها، ومن هنا كان أولى عوامل نهضة الأمة العوامل الإيمانية والفكرية التي تتلخص في النقاط الآتية:

أولاً: ترسيخ قيم الإيمان في النفوس:

من الأمور التي كان لها دورها الكبير في واقع الأمة المتردي ما أصاب الأمة من خلل كبير في عقيدتها، حيث ضاعت معالم التوحيد في كثير من البلدان، وانتشرت مظاهر الشرك، وقل التوجه لله وتعظيمه وإجلاله ومحبته ومراقبته والاستسلام لشرعه، وأصبحت وجهة الكثير من عباد الله لغير الله خوفاً وطمعاً، وبقيت معاني العقيدة مجرد جدليات عقيمة فصلت العقيدة عن العمل، والمبدأ عن السلوك، وأصبحت العقيدة ضعيفة الأثر في دافعية العمل.

فإنَّ إقامة التوحيد في القلوب ومحاربة الشرك، وتصفية العقيدة من كل ما علق بها من انحرافات هو أساس الإصلاح والنهوض، وقد كانت بداية الإصلاح والنهوض النبوي قائمة ومنطلقة من الدعوة إلى التوحيد الحق؛ فقد بعث النبي ﷺ في مجتمع جاهلي يعج بكل صور الفساد، فأصلحهم بالتوحيد، وبه سيصلح الدعاة اليوم واقع الأمة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]

وكل محاولات إصلاح المجتمعات الإنسانية عبر تاريخها، في دعوة جميع المرسلين، كانت قائمة في أساسها على التوحيد، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وعندما أرسل النبي ﷺ إلى اليمن معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ داعياً ومصلحاً قال له: «**قَالَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللهَّ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَّ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»(١).

فالتوحيد أعظم واجبات الدين، وأهم مهماته، والشرك أقبح منكر وفساد تسعى الأمة لمحاربته في الأرض، ولا يمكن لدعوة إصلاحية أن تقوم وتنهض ويكتب الله لها النصر والتمكين وهي متخلية عن هذا الأصل، كما لا يمكن بناء أمة صالحة دون عقيدة واحدة صافية تجمعها صفاً واحداً في أخوة صادقة مهما تباعدت الديار والأقطار مستسلمين لرب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: لا تأخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ح: ١٤٥٨، مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدُّعَاءِ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَشَرَائِعِ الإِسْلاَمِ، ح: ١٣٢.

فالفساد قرين الشرك، والصلاح قرين التوحيد، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فبينت الآية أن (فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره)(١)، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، قال شيخ الإسلام: (فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع للرسول ﷺ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه والأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك ومخالفة رسوله ﷺ، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا)(٢).

فسلامة الاعتقاد وصحته تمثل الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم الصالح، المترابط المتآلف، الذي يحمل هم الدين، ويعمل له بصدق وعزم، وإن الأجيال التي ورثت الإسلام ولم يتحركوا من منطلقات الإيمان العميق هي أجيال غير مؤهلة للنهوض، لأن ولاءها لن يكون لله ولدينه، والعمل لن يكون خالصاً لوجهه الكريم، والقلوب لن تكون مجتمعة متآلفة، والتضحيات لن تكون كبيرة؛ مما يورث تلك المحاولات الخبال وعدم الاستمرار، وذلك لأن أمر الإسلام مبني على صلاح المعتقد، وصلاح الفرد والمجتمع وفوز الآخرة مرتكز على هذا الأصل العظيم الذي وضحه العلماء في كتب العقيدة بكل تفاصيله.

فالإيمان أقوى أساس يقوم عليه بناء الأمة، فعلينا أن نبدأ بما بدأ به النبي ﷺ، وأن نهتم بما

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٥).

اهتم به، مع التدرج والتربية السليمة على هذا المنهج النبوي العظيم بجعل التوحيد وإخلاص العبودية لله في أولويات التعليم والدعوة والإعلام، مع كشف ما يضاده من مظاهر الشرك بكل الوسائل والأساليب المتاحة المشروعة.

ثانياً: محاربة البدع والأفكار المنحرفة:

أكمل الله عزَّ وجل دينه لعباده بما أنزله في كتابه، وبينه النبي ﷺ في سنته، ثم أمر الأمة باتباعه، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، والذي أمرنا باتباعه هو الكتاب والسنة، وهما ما أنزله الله عزَّ وجل على رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، والدين الذي ارتضاه الله لا يؤخذ إلا منهما، وقد نهى الله تعالى عن الابتداع في الدين المخالف للكتاب والسُّنة، والتقديم بين يدي الله ورسوله، واتباع أهواء الذين لا يعلمون، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]

وقد بين لنا النبي ﷺ أن كل بدعة ضلالة، فمن دان ديناً لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ فهو مبتدع ضال، وكذلك من دعا لفكر أو طريقة لا تنبع من الكتاب والسنة فهي طريقة وفكر منحرف، فمن هنا كان من أهم ركائز الإصلاح وأعظم أسباب النهوض بالأمة بيان البدع والأفكار المنحرفة ومحاربتها، فإن البدع والأفكار الضالة المنحرفة من أعظم أسباب الانحراف والانصراف عن الدين.

ولا يكفي في الإصلاح الدعوة إلى الكتاب والسنة فقط مع عدم التحذير من البدع والأفكار المنحرفة التي قامت عليها نظم وجماعات، بل من نصرة السُّنة محاربة البدعة، ومن دعائم تثبيت الحق بيان سبل الضلال؛ لأن التقرب إلى الله تعالى لا يتم إلا باجتناب طرق الضلال وأهل الأهواء، كما لا يقوم التوحيد إلا بمعرفة الشرك واجتنابه، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ لِبِلَالِ بن الْحَارِثِ: «**اعْلَمْ**، قَالَ: مَا أَعْلَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**اعْلَمْ يَا بِلَالُ**»، قَالَ: مَا أَعْلَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَانَ**

عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئًا»(١).

فالتحذير من البدع والأفكار المنحرفة من أكبر أسباب نهوض الأمة لما لها من آثار سيئة، فهي سبب التفرق والاختلاف، وانحرافها عن الصراط المستقيم، كما هي سبب لصد كثير من الناس عن الدين، وهي من أعظم أسباب تخلف النصر وعدم التمكين في الأرض، وقد قال النبي ﷺ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كثيراً فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»(٢)، أَيْ: اجْتَهِدُوا عَلَى السُّنَّةِ، وَالْزَمُوهَا، وَاحْرِصُوا عَلَيْهَا كَمَا يَلْزَمُ الْعَاضُّ عَلَى الشَّيْءِ بِنَوَاجِذِهِ خَوْفًا مِنْ ذَهَابِهِ. وقد تضمن الحديث التحذير عما يخالفها.

وجاء فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣) وَفِي لَفْظٍ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**». ومحاربة البدع والأفكار المنحرفة يكون بكشفها وبيانها للناس بدون مجاملة، مع التحذير عنها وبيان خطورتها وأثرها.

ثالثاً: اليقين بأنَّ النصر والتمكين لهذا الدين:

من الأمور التي تبنى عليها نهضة الأمة وصلاحها اليقين بأنَّ المستقبل للإسلام والمسلمين، حتى نعمل للدين بكل ثبات وثقة بدون ضعف ووهن واستكانة، وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسُّنة التي تؤكد ذلك، كما يؤكده التاريخ والواقع الذي شهد نهضة علمية وعملية في واقع الأمة وتراثها المجيد.

ولذا فالواجب على العاملين في حقل الدعوة والمنتمين إلى هذا الدين أن يعتقدوا بصورة جازمة أن المستقبل لهم، والعاقبة للمتقين، مهما كانت الظروف التي تمر بها الأمة اليوم من جراحات وآلام، فإنها أمة تمرض ولا تموت، تملك مقومات النهوض من كبوتها في كل عصر، ولذلك لا يشك في ظهور الإسلام وعلوه ومستقبله الزاهر لو أخذنا بالأسباب، وأن محاولات

---

(١) أخرجه الترمذي ح: ٢٦٧٧، وابن ماجة في سننه ح: ٢٠٩، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) أخرجه الترمذي ح: ٢٦٧٦، ابن ماجة ح: ٤٢، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلح، باب: إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ ح: ٢٦٩٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب: نَقْضِ الأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ح: ٤٥٨٩.

الأعداء لهدم هذا الدين، وتدمير أمته محاولات فاشلة سرعان ما تتبدل الموازين كما بشرت بذلك الأدلة الكثيرة في الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]؛ وإن هذا الوعد بنصر الله لعباده المؤمنين مهما ملك الأعداء من القنابل النووية والأسلحة الفتاكة سنة من سنن الله الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، وهي سُنّة ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في أفلاكها بدقة وانتظام، وإن قل عددهم وعتادهم كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢ – ٢٣]، وهو الذي ينصر عباده حيث شاء متى شاء لا بجهدهم ولا قوتهم، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] فالمسلمون سبب لتحقيق قدر الله وإرادته كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]، وأن الله إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه جل جلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد بشرنا النبيّ ﷺ بأن النصر لهذا الدين، وأنَّ العاقبة للمتقين، جاء عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ يُعِزُّ بِهِ الإِسْلاَمَ، أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ**»(١). كما ضمن لنا ﷺ أنه «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي الله وهم كذلك**»(٢).

بل كان النبي ﷺ يبشر بالنصر في أحلك الظروف، ويضربُ المثلَ بالسابقين إشارةً إلى سنّة الله تعالى في خلقه، حتى لا يدخل اليأس والقنوط إلى قلوب المؤمنين، كما يقول خَبَّاب بن الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)(٣).

وما يقَع على الأمّة من بلايا ومِحن وفِتن ومصائبَ فهو أمر طبيعي للابتلاء والتّمحيص، وطريقٌ لا بد أن يمر به من ينشدون العلو والتمكين، وهي أمور لا ينبغي أن تكون سبباً لليَأس والإحباط، بل إنها تحمل بشائر النصر وقرب التمكين، لأن مع العسر يسرا، وعند شدة الظلام يتوقع طلوع الفجر، ورحمة الله قريب من المحسنين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح: ١٦٩٩٨، والبيهقي في السنن الكبرى ح: ١٨٤٠٠، وصححه الألباني في أول أحاديث السلسلة الصحيحة.

(٢) أخرجه البخاري ح: (٣٤٤٢) ومسلم ح: (١٩٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: المناقب، باب: علامة النبوة في الإسلام، ح: ٣٦١٢.

كما أنَّ اليقين بالنّصر، وثقتنا بوعد الله تعالى، وظهور البشائر بذلك لا يعنِي القعودَ والاتكال، كما لا يعني غضَّ الطرف عن الخطأ والخللِ والنّقص والتقصير الذي لا زال موجودًا في الأمّة، بل الواجب، مع إذكاءِ جانبِ الثقة بوعدِ الله، العودةُ الصّادقة إلى الله سبحانه، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة، والله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم.

فالمستقبل لهذا الدين بلا ريب؛ ولكنه لا يتحقق بالأماني، وإنما يتحقق بالعمل والمجاهدة الصادقة والدعوة إلى الله على بصيرة وفق منطلقات صحيحة على منهج أهل السنة والجماعة، فإن شروط الاستخلاف والتمكين، وحصول الأمن والطمأنينة واضحة جلية، في كل زمان متى ما أخذت الأجيال بها حقق الله لهم ما وعدهم به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وذلك من خلال العودة الصادقة إلى الكتاب والسنة، وهذا هو ما صنعه النبي محمد ﷺ حين أرسى دعائم الأمة وبنى كيانها الأول، فإنَّ تحقيق الإسلام بسلامة المعتقد، وعبودية الله وحده، وتزكية النفوس بالعبادة والطاعة ومتابعة الرسول ﷺ، ثم استشعار العزة واليقين بعلو دين الله، والأخذ بأسباب النصر من أعظم مقومات النهوض التي تبشر بوعد الله ونصره المرتقب.

المحور الثاني: عوامل النهضة العلمية والإعلامية:

أولاً: النهضة العلمية:

قامت جميع دعوات الأنبياء الإصلاحية على العلم؛ ولذا كان أول ما أنزله الله في كتابه وأمر الأمة به (اقرأ)، وفيه دلالة واضحة على أهمية العلم وأثره في الإصلاح والنهوض؛ بل هو الأساس الذي يبنى عليه كل إصلاح، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

ولذلك لا يمكن لمشروع إصلاحي أن ينجح إذا لم يقم على نور العلم والهدى، فالعلم أولاً ثم يأتي العمل بعد ذلك، لتكون العبادة على بصيرة، والعمل على هدى مستقيم، وعليه فكل بناء ونهوض لا يقوم على العلم فهو بناء متصدع، ونهضة هشة، وفسادها في الأرض أكثر من صلاحها.

والأمة دائماً تُؤتى من جهل أبنائها، وعجز علمائها، وفساد حكامها؛ ولهذا كان طريق

العلم هو طريق الرفعة والخير للفرد والجماعة، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١). فما دام العلمُ باقياً في الأرض، فالنَّاس في خير وهُدى وصلاح ونعمة وعافية.

وما انتشار الشرك والبدع والمعاصي والتخلف إلا بسبب الجهل وقلة العلم؛ لأن الخير مقرون بالعلم، والسوء مقرون بالجهل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ ولذلك كان من أعظم ركائز الإصلاح والنهوض التزود من العلم النافع، ومحاربة كل صور الجهل والهوى، والأمة تنهض بعلمائها في كافة المجالات والتخصصات.

والعلم الذي تحتاج إليه الأمة ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العلوم الشرعية:

فالأمة في حاجة إلى العلم الشرعي من مصادره الأصلية ـ الكتاب والسنة ـ صافياً نقياً، وتنقيحه مما علق به من بدع وانحرافات وتأويلات واجتهادات مرجوحة اعتمدت على أدلة غير صحيحة، أو دلالات غير سليمة، مع ما أضافه العلماء من اجتهادات موفقة، دون تعصب لشيخ أو مذهب أو حزب أو هوى؛ لأن التعصب والتقليد الأعمى وأتباع الهوى عدو اتباع الحق، وآثاره خطيرة على الأمة، ومن أعظم الأسباب المانعة والحاجبة لنور الحق أن يصل إلى القلوب، إلى جانب كونه من أعظم الأسباب المؤدية إلى قتل روح الابتكار والإبداع في عقول شباب الأمة.

ولذلك فقد ذمه العلماء وحذروا منه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل يكون كلاهما موافق الشريعة، فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً، ضالاً عن الطريق، فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم. وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله»(٢)، قال تعالى في بيان سبب ضلال من ضل عن الهدى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ح: ٧١، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: النهي عن المسألة ح: ٢٤٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨).

ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فإن من استحكم داء التقليد في قلبه «فلو أوردت عليه كل حجة، وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أذناً صماء وعيناً عمياء»(١)، وذلك لأن التقليد الأعمى يُعْمِي عن الحق ويصد عنه.

وأخذ العلم الشرعي صافياً نقياً من أجل إقامة المجتمع الإسلامي من غير تعصب يحتاج إلى تجرد، وجهد عظيم من أبناء الأمة في تنقية التراث الإسلامي مما علق به في العقائد والعبادات والسلوك مما هو دخيل عليه من ضلالات وانحرافات وبدع وآراء شاذة؛ لأن تصحيح المفاهيم الخاطئة المنتشرة في أذهان كثير من المسلمين، وهي مفاهيم لها حضورها القوي فيما آل إليه حال الأمة من الأهمية بمكان.

ولاشك أن العمل الصحيح لا بد أن ينطلق من فهم صحيح، ومتى ما كانت المفاهيم غير صحيحة انعكس ذلك على العمل، ومن ثم على واقع الأمة برمته؛ كما هو الحال اليوم في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي كحال من يرون الحاجة فقط في العلوم الدنيوية، وبعضهم يقصر حاجة الأمة فقط في العلوم الدينية، وأصبحنا بين دعاة مقلدين لغيرنا، أو مجموعة متخلفة عن مواكبة عصرها.

القسم الثاني: العلوم الدنيوية:

ونهضة الأمَّة في حاجة كبيرة كذلك إلى العلوم الدنيوية النافعة التي تُعلي من شأنها وتزيدها قوة إلى قوتها، وهي ضرورية لنهضتها وتقدمها مثل علوم الطب والهندسة، وعلوم الفلك والذرَّة وغيرها؛ لأن الحاجة إليها ماسة، وإن لم نوفرها اضطررنا إلى غيرنا، والاعتماد على أعداء الله في حياتنا من أعظم أسباب الخذلان، له آثاره التي لا تخفى في عقيدتنا وفكرنا وأخلاقنا.

والعمل للدين لا يقف عند تعليم أحكامه وفرائضه، بل يشمل شتى مجالات الحياة الطبية والصناعية والتقنية وامتلاك كل وسائل القوة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن

(١) فتح القدير، للشوكاني (٤ / ١٠٤).

ذلك الاستفادة ممن سبقنا في مجال العلوم التجريبية، والإسلام لا يمانع من الاستفادة من الآخرين، ومواكبة كلّ ما يتمّ إنجازه في البلاد الأخرى من الاختراعات والمبتكرات الفنّيّة والتقنيّة والعلميّة، إذ هي من أسباب القوّة الّتي تحرص الأمّة الراقية على امتلاكها. وقد استفاد المسلمون في حياة الرسول ﷺ مما عند غيرهم من علوم نافعة في صناعة السلاح أو الملابس أو الأفكار كحفر الخندق حول المدينة وغيرها.

فالنهوض بالأمة يحتاج إلى قيم معنوية وإلى علوم تجريبية، وبهذا نرتقي بأمتنا نحو المجد، فنحن أمة تنصر وتنهض بالعلم والعمل به، وتهزم بالجهل والغفلة والعجز والكسل، والبعد عن الدين الحق، إضافة إلى عدم اتباعها لسنن التمكين في الأرض المعنوية والمادية التي هي العلم قائدها وسلاحها في كل مواجهاتها، وأمة بلا علم كجسد بلا روح. وليس هنالك تقاطع وتدابر بين علوم الدين والدنيا، بل علوم الدنيا إذا كانت لخدمة الدين هي من علوم الدين المطلوبة.

ثانياً: النهضة الإعلامية:

النهضة العلمية لابد أن تواكَب بنهضة إعلامية حديثة من حيث الوسائل، والبرامج المقدمة تتناسب مع متطلبات العصر ووسائله وأساليبه المتنوعة المتجددة، وذلك لارتباط الإعلام الكبير اليوم بحياة الناس وثقافتهم وتطلعاتهم؛ لأن الإنسان بطبيعته يتطلع إلى معرفة من خلال ما يعرض حوله من أفكار، وهو يمثل واجهة الأمة نحو العالم.

فالوسائل الإعلامية الحديثة من قنوات البث الفضائية، ومواقع التواصل الاجتماعي، والصحف الإلكترونية، ووسائل التواصل الحديثة عبر الأجهزة الذكية المتعددة الأشكال والأحجام التي أصبحت ملازمة للفرد في سائر حياته، كسرت الحواجز بين الأمم، ومكنت من التواصل المفتوح بين الأفراد والشعوب في كل وقت ومن أي موقع.

وقد أصبح الفضاء مكشوفاً يقدم من خلاله كل شيء، بدون تمحيص، أو تقيد بقيم وقوانين، ولا يميز بين فئات عمرية، ولا مستويات ثقافية، ولا يقف عند حدود جغرافية، وأصبحت الأجيال الجديدة من خلاله معرضة لكل خطر من حيث الشهوات والشبهات، مما كان له الأثر العقدي والاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي في أمتنا المسلمة.

و هذه التقنية المتطورة والإعلام الجديد الذي أصبح العالم من خلاله قرية واحدة أو بيتاً واحداً لا يمكن أن تقف الأمة منه موقف العاجز والمتلقي لما يبث. فهي وسائل فيها الكثير من

الجوانب الإيجابية مع ما حملته من سلبيات، ويمكن من خلالها نقل قيمنا ومبادئنا الخيرة إلى الناس كافة، وفتح سبل للحوار الجاد مع كافة أهل الديانات والثقافات، فهي سلاح قوي إذا سخر في الدعوة إلى الله تعالى، ونشر الخير والإصلاح، وخير مثال وشاهد على نفعها وتأثيرها الكبير ما نجده من خلال بعض القنوات الفضائية والمواقع الإسلامية من تأثير كبير على المسلمين وغيرهم أفراداً ومجتمعات يصعب حصرها.

وحتى ننهض بإعلامنا الإسلامي ليؤدي دوره المطلوب من تصحيح المفاهيم والأفهام، وإبراز الإسلام في صورته الصحيحة، ويتصدى للأفكار والدعوات المنحرفة، ويدفع عن الأمة كل الشبه والدعاوي المغرضة، ويقف في وجه تأثير الإعلام الحديث الذي يتعارض مع قيمنا وديننا، لابد من تجاوز الاجتهادات الفردية إلى الأعمال المؤسسية التكاملية القائمة مشاريعها على دراسات علمية متخصصة، تراعي حاجة الواقع، وما يتناسب مع الأجيال المعاصرة، وتكون الرسالة واضحة وعميقة، ومتنوعة ومتجددة، ومناسبة مع رسالة هذه الأمة الوسط، وتقدم في أعلى مستوى من الجودة والاتقان، ويتجاوز ما يطرح من المحلية إلى العالمية.

كما أن إعلامنا بحاجة كي يحقق أهدافه المرجوة، ويحمل رسالة الأمة الحقيقية أن يكون إشرافه عند العلماء والدعاة وأهل الخبرة والرأي، وأن تؤهل المِلاكات الفنية على أحدث وسائل التقنية الحديثة، وأروع أساليب العرض والتأثير بما لا يتعارض مع ديننا الحنيف. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

المحور الثالث: عوامل النهضة التربوية والعملية:

إن التغيير الذي تنشده الأمة لا يمكن تحقيقه في عالم اليوم الذي تقوده قوى شرسة متبصرة ذات إمكانات مادية قوية دون صياغة جيل يفهم تحديات المرحلة وأبعادها؛ ويكون مهيأ للقيام بدوره بكل صدق وجد، مع توكل على الله وثقة بنصره وكفايته؛ لأن الأجيال التي لا تحسن فهم دينها، ولا تدرك عظمته، ولم تترب على قيمه، ولا تعرف طرق العمل لنصرته، ولا قيمة السعي في سبيل الله، أو جعلت اعتمادها على غير ربها، وثقتها في سواه؛ فهي أجيال غير مؤهلة للنهوض بالأمة، ومن هنا كان من أبرز عوامل النهوض التربية الشاملة والجامعة للقيم الأخلاقية، مع الأخذ بكل أسباب القوى في كافة المجالات، ومعالجة كل صور الضعف في جميع الجوانب والاتجاهات حتى نبني أمة متوحدة في العقيدة، مجتمعة على السنة، قوية الأركان، مرهوبة الجناب؛ محققة لنصر الله.

ويتلخص ذلك في الآتي:

أولاً: التربية الشاملة المتوازنة:

تعد التربية العملية الشاملة المتوازنة من أعظم الأسباب لنهوض الأمة وإصلاحها و يجب على كل مصلح ومعلم مراعاتها، وهي التي تعطي العقل حقه، والروح حقها، والنفس حقها، والزوجة حقها، والأصحاب حقهم، والأمة حقها، كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، فآت كل ذي حق حقه**»(١).

وهي أيضا التربية التي تجمع بين العلم والعمل وبين الفكرة والدليل شعارها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. و تعظم قيم الإيمان، وتسعى نحو الإحسان متوكلة على الله، ومستعينة به، ومستقيمة على أمره. و تخرج رهباناً بالليل عبادة وخشوعاً ودعاء، وفرساناً بالنهار بذلاً وعطاء. و توازن بين الحقوق والواجبات فتعطي كل ذي حق حقه من الوالدين والأرحام والجيران والأصحاب، والحاكم والمحكوم، والمسلم، والمسالم في الإنسانية، بل ترعى حتى حقوق الحيوانات.

وهي كذلك التربية التي تجمع بين الدنيا والدين فلا تجد بينهما تعارضاً واختلافاً بل تكاملاً وائتلافاً. و تقيم العدل وترفض الظلم، وتعلم الأمانة وتنبذ الخيانة، وتعلم الشجاعة والكرم والمروءة، وترفض الجبن والبخل والخور. والتربية التي تخرج جيلاً يحمل هم البناء ويعمل في البناء، ولا يكون معول هدم في الأمة. والتربية التي تعرف الفرد واجباته وكيف يتحمل مسؤولياته في الحياة. والتربية التي تجمع بين المثالية والواقعية. والتربية التي تعزز الوسطية والاعتدال، وتنبذ التفريط والإفراط. والتربية التي تهدم فوارق اللون والجنس واللسان وتقيم رابط الإيمان والأخلاق.

وهذه التربية أيضا تشجع الفكر والإبداع، وتنبذ الجمود والتقليد والاستسلام. وتجعل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فيعيش الفرد مرفوع الرأس موفور الكرامة يأبى الذل والهوان. كما أنها تبني جيلاً يعيش لله ويعمل لله، لا يعيش لشهواته ونزواته الخاصة فيكون كالبهائم أو

(١) أخرجه الترمذي ح: ٢٤١٣، والنسائي في سننه ح: ٢٩٢٢وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني.

أضل. و تخرج جيلاً ثابتاً أمام المتغيرات والانحرافات. وهي التربية التي يراعى فيها ما يحبه الله ورسوله «ويعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وأن الله بعثه رحمة للعالمين؛ بعثه بسعادة الدنيا والآخرة في كل أمر من الأمور، وأن يكون مع الإنسان من التفصيل ما يحفظ به هذا الإجمال، وإلا فكثير من الناس يعتقد هذا مجملا ويدعه عند التفصيل: إما جهلاً وإما ظلماً وإما اتباعاً للهوى»(١).

ونحن في حاجة إلى تربية تعزز الأمن النفسي والفكري، وتعظِّم القيم والمبادئ التي تهدف إلى رضوان الله تعالى، وتترك ما يغضبه ولو كانت النفوس تشتهيه، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فإن التربية الناقصة وغير المتوازنة هي التي جرَّت على عالمنا الإسلامي الوبال والدمار، وأنتجت معاول الهدم لا البناء، وخرجت خداجاً من الأجيال شوهوا صورة الإسلام والمسلمين، والالتزام والملتزمين، وأصبحت الأمة تبذل الطاقات والأموال لمواجهة نتاج تلك التربية المعوجة الناقصة التي ذمها الله في كتابه حيث قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، وأمر بتربية عامة شاملة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

فأمتنا تُهدم يوم يختل ميزانها التربوي، فطبيب عالم ماهر بدون خلق وأمانة سوف يكون سبباً لزيادة عللنا وأمراضنا، ومهندس حاذق بدون أمانة سوف يكون سبباً لسرقة أموالنا، وشاب متحمس بدون علم سيدمر ممتلكاتنا، وحاكم ظالم لن يزيد الأمة إلا تخلفاً ودماراً.

فالتربية التي تجعلُ شرائعَ الإسلام عِضين، يؤخذ ما يشتهى، ويذرُ ما لا يهوى، تنشئ نماذجَ بشريةً هزيلةً ونفوساً مهزوزة، لن تفلحَ في النهوضِ بالأمةِ إلى مواقعِ عزها وسُؤددِها؛ ولا يمكن أن نصل إلى تربية شاملة متوازنة إلا في ظل المنهج النبوي الراشد الشامل المتوازن.

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢ / ٣٥١).

ثانياً: الأخذ بأسباب القوة:

والواجب على الأمة لتنهض من جديد أن تُبَصَّر بكل أسباب القوة فتتخذها، وبمواطن الضعف فتجتنبها، فالدين يحتاج إلى كتاب هادٍ وحديد ناصر، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والإعداد المأمور به في الآية الكريمة عام يبدأ بالإعداد النفسي، وينتهي بكل أنواع الإعداد المادية التي قد تحتاج إليها الأمة في يوم ما، مما يتطلب تنمية شاملة لجميع الجوانب التي تحقق النهوض الديني والعلمي والاقتصادي والصناعي والزراعي، والسعي لتحقيق ذلك في حدود الطاقة والاستطاعة فريضة على المسلمين باختلاف صنوفها وألوانها، وأسبابها، مادّيةً كانت أو معنويةً، وهي ضرورية للانطلاق بنور الله في الأرض، والتصدي لجنود الشر المنتشرين في كل أنحاء المعمورة الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وقد حث النبي ﷺ المؤمنين أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فقال ﷺ: «**المؤمن الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(١).

فقد أمر الله تعالى أمة الإسلام أن تأخذ بكل أسباب القوة التي تجعلهم أقوياء أعزاء في الأرض؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله، وإلا كان الدين في محل الذل والهوان لا في محل العزة والسمو، فحين تحرس القوة الحق؛ فلن يقف شيء أمامه، فإن الحق سيكون قوياً عزيزاً مرغوباً منتصراً، من خلال حجة تأسر القلوب والعقول، وقوة تردع الباغين المفسدين، وإلا كان العكس.

فإنَّ الأمة إذا أخذت بأسباب القوة العلمية والعسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإعلامية وغيرها لابد أن يتحقق لها ما وعد الله به من رهبة عدوها وقطع طمعه فيها بقدر ما حققته من أسباب، يقول الإمام الشاطبي: «إن الإتيان بالسبب على كماله، وانتفاء أي مانع يمنعه، تنشأ النتيجة عنه لا محالة، كما أن الفاعل إن قصد ألا تقع النتيجة بعد الأخذ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: في الأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ للهِ، ح: ٦٩٤٥.

بالسبب التام فهو عابث، كذلك فإن أخذ بجزء السبب أو بسبب ناقص لم يوصله إلى النتيجة المرجوة وإن أراد ذلك»[(١)]؛ ولذا علينا أن نأخذ بأسباب القوة مجتمعة حتى يتحقق لنا مقصودنا بالوجه الأتم الأكمل، وإن الأخذ بجزء من الأسباب لن يوصل إلى نتيجة المتكاملة.

فالأمة محتاجة إلى نهضة عسكرية تبني من خلالها عددها وعتادها، وتطور في فنونها وأساليبها العسكرية، كما هي في حاجة إلى نهضة إعلامية من حيث الوسائل والبرامج والأساليب حتى يسهم إعلامنا في نهضة أمتنا، ويحافظ على هويتها واستقلالها، ويحمل رسالتها إلى الناس كافة، كما أننا في حاجة إلى نهضة اقتصادية تستثمر فيها مواردنا الطبيعية في الصناعة والزراعة والرعي، ويحافظ على مدخرات الأمة بما يبني قوتنا الاقتصادية، ويجعلنا أمة مكتفية مصدرة، كما نحن في حاجة إلى نهضة اجتماعية تسهم في بناء المجتمع الواحد.

ومن الأخذ بأسباب القوة الإفادة من تجارب تقدم الأمم الأخرى، ووسائل اللحاق بها والأخذ عنها بما لا يتعارض مع شرعنا الحنيف، فإن ديننا لا يمنعنا الاستفادة من غيرنا فيما لا يتعارض مع قيمنا الإسلامية.

وكذلك من الأخذ بأسباب القوة معرفة سنن الله الجارية في الأمم كافة والعمل بها، من ذلك: أن تقوى الله سبب العلو، والمعصية والبدعة سبب للذلة، وأن الاجتماع سبب للنصر، والتفرق سبب للهزيمة، وأن العلم سبب للتفوق، والجهل سبب للتخلف، وأن المال سبب للقوة، والفقر سبب للهوان، وأن بالعمل الجاد الصادق تتقدم الأمم، وليس بالشعوذة، والتواكل وترك الأسباب، وإن العودة إلى الكتاب والسنة فوز وسعادة ونجاة، وتركهما ضلال وهلاك وخسران، وهكذا؛ ولذا فإن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وتقود أن تحكم تصوراتها العلمية، وتبني قاعدة صلبة من رجالها تتحمل عبء التغيير، وتأخذ بكل أسباب القوة، مع أخذ الحذر المستمر من عدوها المتربص بها حتى لا تقوّض مساعي البناء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [النساء: ١٠٢].

(١) الموافقات، (١/ ٢١٨).

ومن أسباب القوة بسط العدل ومحاربة كل صور الظلم الذي يؤذن بخراب الدول، وكل صور التبعية والتقليد الأعمى للآباء في الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

والمؤسف حقا أن بعض الشباب الذين درسوا في بعض الدول الغربية خرجوا من تقليد الآباء إلى تقليد سنن اليهود والنصارى. إلى غير ذلك من واجبات كثيرة في مجالات متعددة، تحتاج إلى تضافر الجهود، والعمل المستمر وفق المنهج الحق، دون وهن أو ضعف أو استكانة واستسلام للواقع، تورثه الأجيال بعضها لبعض دون استعجال للثمرة، حتى تكتمل نهضة الأمة.

المبحث الثالث
دور الطالب الجامعي في النهوض والإصلاح وأخلاقيات المهنة

ولا شك أن الشباب هم عماد الأمة، ورصيدها المذخور، وكنزها الاستراتيجي الذي تعده لحمل الراية، وقيادة المسيرة في المستقبل القريب، ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا إذا وعى الشباب واجبهم واستشعروا المسئولية العظيمة الملقاة على عواتقهم.

ولعل من الأمور المهمة التي لابد أن يعيها الشباب عموما - والشباب الجامعي على وجه الخصوص - وهم على وشك التخرج، والخوض في مسيرة الحياة العامة أن يلموا بأخلاقيات المهنة المقبلين عليها قريبًا - إن شاء الله -، وضوابط القيام بها على الوجه الأمثل، وهو ما نعرض له في السطور الآتية.

أخلاقيات المهنة:

تتميز الأخلاق في الإسلام بأنها تتسع لتشمل جميع جوانب الحياة كما تصاحب الإنسان في جميع أحواله وتعاملاته، فالأخلاق تدخل في كل مجالات النفس الإنسانية الظاهرة منها والباطنة، فتشمل جانب الاعتقاد، والقلب، والنفس، والسلوك وتشمل شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة والمعاملات ومختلف العلاقات، كما أن الأخلاق في الإسلام تشمل علاقة الإنسان بخالقه، وبنفسه وبني جنسه، بل تمتد لتشمل علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الأخرى، وقد تقدم تفصيل ذلك والحديث عنه في المستوى الأول من الثقافة الإسلامية.

ومن الطبيعي أن يكون للمهنة حظ وافر من الأخلاق في الإسلام لا سيما أنها تشغل حيزا كبيرا من نشاط الإنسان ووقته، وتمثل جانبا مهما من رسالته في هذه الحياة ولا يمكن لمجتمع أو أمة أن تستغني عنها، أو أن تتقدم وتنشئ حضارة بدونها، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فالقرآن الكريم جاء لبيان سائر ما يحتاجه الناس في كافة جوانب حياتهم، ولا شك أن أخلاق العمل تعد من الأمور الضرورية لصلاح معاش العباد ومعادهم.

مفهوم المهنة لغة واصطلاحا:

والمقصود بالمهنة لغة الْعَمَل الذي يحْتَاج إِلَى خبْرَة ومهارة وحذق بممارسته، وقد ورد هذا اللفظ في السنة كما في قوله ﷺ: «ما على أَحَدِكم لو اشترى ثَوْبَين ليوم جمعته سوى ثَوْبَي

مَهْنَته»[١].

والمهنة في الاصطلاح المعاصر تطلق على الحرفة التي تشتمل على مجموعة من المعارف العقلية، ومجموعة من الممارسات والخبرات التدريبية التي يؤديها الفرد من خلال ممارسته العمل، أو هي عمل يحتاج إلى معارف عقلية وخبرة ميدانية، كالطب، والهندسة، والتدريس والمحاسبة، وغيرها[٢]، وثمة مصطلحات مقاربة للمهنة – وإن كان بينها فروق دقيقة – وقد تستخدم بدلا منها مثل: الوظيفة، والحرفة، والصنعة، والعمل[٣].

وللمهنة جملة من الخصائص أهمها[٤]:

أ- أنها تقدم خدمات أساسية ومفيدة للمجتمع.

ب- حاجتها إلى الإعداد العلمي من خلال برامج ذات أهداف محددة وواضحة ومن جهات علمية معترف بها.

ج- لكل مهنة معارف ومهارات خاصة بها.

د- لكل مهنة قوانين وآداب تنظم وتحكم العمل بها.

هـ- غالباً ما يوجد في وقتنا الحال تجمع للعاملين بالمهنة يتحدث باسمها ويدافع عنها.

و- لكل مهنة معالمها الواضحة التي تميزها عن غيرها من المهن.

مكانة العمل في الإسلام[٥]:

وللعمل في الإسلام قيمة كبيرة ومكانة معتبرة، حيث ينظر الإسلام إليه نظرةَ احترام وتكريم وإجلال، وثمة مظاهر كثيرة تدل على ذلك، من أبرزها[٦] ما يلي:

أولاً: أنَّ الإسلام حث على العمل والسعي في طلَب الرزق؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ

(١) رواه أبو داود (٩١٠) وابن ماجه (١٠٨٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٨٩).

(٢) انظر د. عبد الله الديرشوي: الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة ص ٣١ .

(٣) انظر د. مفرح القوسي: أخلاق العمل في الإسلام ص ٢.

(٤) انظر د. عبد الله الديرشوي: الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة ص ٣٢.

(٥) تقدم في المستوى الثالث من الثقافة الإسلامية في النظام الاقتصادي في الإسلام التفصيل في مكانة العمل في الإسلام وبيان كونه سمة من سماة شخصية المسلم ثم وضع الضوابط والأصول المنظمة له.. فلتراجع.

(٦) انظر د. مفرح القوسي: أخلاق العمل في الإسلام ص ٢، ود. مسفر بن علي القحطاني: أخلاقيات المهنة ص٥.

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقرن العمل بالجهاد كما في قوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠]، ويقول النبي ﷺ: «**ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده**»(١) ويقول أيضًا: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فإن استَطاع ألاَّ يقوم حتى يغرسها فليفعلْ**»(٢).

ثانيًا: أنَّه اعتبَر العمل جهادًا، فقد رُوِي أنَّ بعض الصحابة رأوا شابًّا قويًّا يُسرِع إلى عمله، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله، فردَّ عليهم النبي ﷺ بقوله: «**لا تقولوا هذا؛ فإنَّه إنْ كان خرَج يسعى على ولده صِغارًا فهو في سبيل الله، وإنْ كان خرج يسعى على أبوَيْن شيخَيْن كبيرَيْن فهو في سبيل الله، وإنْ كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإنْ كان خرج رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**»(٣).

ثالثا: أنَّ الله سبحانه خفَّف على عِباده قِيام الليل من أجْل انشِغالهم بالعمل بالنهار؛ حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

رابعا: أنَّه سبحانه جعَل العمل سنَّة أنبيائه ورسله بالرغم من انشِغالهم بالدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى أممهم وأقوامهم؛ يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وكما ذكر بعض المفسرين فقد عَمِلَ آدَم في الزراعة، وكان إبراهيم بزازًا، ونوح نجارًا وكذا زكريا، كما كان لقمان خياطًا وكذا إدريس، وكان موسى راعيًا، وأخبر سبحانه عن داود ـ عليه وعليهم جميعًا أفضلُ

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢)

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ح: (٣٧١) والصحيحة (٩).

(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).

الصلاة وأَتَمُّ التسليم ـ أنَّه كان يصنع الدروع[١]؛ فقال تعالى عنه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠ - ١١].

وقد أخبر نبيُّنا محمد ﷺ أنَّه كان يعمَل برعي الأغنام؛ حيث يقول: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**» فقال أصحابه: وأنت؟ قال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[٢]، كما كان ﷺ يخرج إلى الشام للاتِّجار بمال خديجة رضي الله تعالى عنها وقال ابن القيم: إن النبي ﷺ باع واشترى، وشراؤه أكثر، وآجر واستأجر وإيجاره أكثر، وضارب وشارك، ووكل وتوكل وتوكيله أكثر، وأهدى وأهدي له، ووهب واستوهب، واستدان واستعار، وضمن عامّاً وخاصّاً، ووقف وشفع فقبل تارة وردّ أخرى[٣].

وقد فقه صحابة رسول الله ﷺ ذلك، فاجتَهدوا في العمل لكسب الرزق؛ حيث رُوِي أنَّ أبا بكرٍ كان بزازًا، وكان عمر بن الخطاب يعمل بالأدم (الجلد)، وكان عثمان بن عفَّان يعمل بالتجارة، وقد أجَّر علي بن أبي طالب نفسه أكثر من مرَّة ليكسب قوت يومِه، وكان عبدالرحمن بن عوف يعمَل في تجارة البز ـ الثياب ـ، وكذا طلحة بن عبيدالله، وكان الزبير بن العوَّام، وعمرو بن العاص خرازين، وعمل خبَّاب بن الأرتِّ حدادًا، وقام سعد بن أبي وقاص بصنع النِّبال، وعمل عثمان بن طلحة خيَّاطًا، وغيرهم كثيرٌ من الصحابة، وكذا التابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم أجمعين.

ومن الوظائف التي كان يشغلها بعض الصحابة بتكليفٍ من النبي ﷺ.

- التعليم: حيث قام به مصعب بن عمير، ومعاذ بن جبل، وعمرو بن حزم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- والقضاء: حيث قام به علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- والأذان: حيث قام به بلال بن رباح، وابن أم مكتوم، وأبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- وأخذ الجزية: حيث قام به أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١١ / ٣٢١).

(٢) رواه البخاري (٢١٠٢).

(٣) انظر زاد المعاد لابن القيم (١ / ١٥٤).

• وأخذ الصدقات: حيث قام به جماعة كثيرون منهم عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، وعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

واختلاف أنواع الوظائف بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يدلّ على أفضلية بعضها على بعض، بل كلٌّ منهم على ثغرة، فلو عمل كل الصحابة في التعليم لما وجد الناس من يبيع لهم الثياب لستر العورات، أو يبري لهم النبال للجهاد، أو يصنع لهم السرُج للإنارة !

وأما الأئمة الأعلام فقد كان الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله يعمل في تجارة الخزّ (الأقمشة) والإمام مالك بن أنس رحمه الله يعمل في تجارة البزّ (الثياب) والإمام أحمد بن حنبل يكري (يؤجر) دكاناً، وينسج أحياناً ويبيع .

أخلاقيات المهنة في الإسلام :

ويقصد بأخلاق المهنة مجموعة المبادئ والقِيَم الفاضلة التي حَثَّ الإسلام على تَمَثُّلها والالتِزام بها في أثناء القيام بالمهنة أو الوظيفة، ولاشك أن أخلاق المهنة في التصور الإسلامي تعد فرعا عن الأخلاق الإسلامية بصفة عامة ومن ثم ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الأخلاق الإسلامية من صفات وخصائص.

فأخلاق المهنة في الإسلام ربانية المصدر، وهي ثابتة غير متغيرة، ومعتدلة متوسطة غير مغالية أو متطرفة، وشاملة لجميع الأحوال والأشخاص والأعراق، كما أنها أخلاق إنسانية لا تعلي من شأن الربح وتحقيق المكسب على حساب حاجة المجتمع والأفراد، كما لا تهتم بمصالح الفرد على حساب المجتمع أو العكس، بحيث تلغي وجود الفرد وقيمته ومصلحته من أجل مصلحة الجماعة .

وتتسع أخلاق المهنة لتشمل جوانب كثيرة منها ما يتعلق بمزاولة المهنة وحسن الأداء فيها، ومنها ما يتعلق بزملاء العمل في مؤسسة أو شركة أو مكان ما، ومنها ما يتعلق بالجمهور المستفيد من تلك المهنة، ومنها ما يتعلق برئيس العمل وطبيعة علاقته بالمرؤوسين، ومنها ما يتعلق بالمجتمع ككل أفرادا وجماعات وبيئة يجب المحافظة عليها .

وسوف نذكر فيما يلي أهم الأخلاق والآداب التي يجب التحلي بها في شتى الوظائف والمهن ومن ذلك ما يلي[1]:

---

(١) انظر د. مفرح القوسي: أخلاق العمل في الإسلام ص ٥، و الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة د. عبد الله الديرشوي ص ٣٥، و وميثاق أخلاقيات مهنة التعليم ص ٩، ود. سعيد بن ناصر الغامدي: أخلاقيات =

أولا: الكفاءة: فلا يسند العمل إلا لِمَن تتوافَر فيه الأهليَّة والكفاءة، ومن الواجب أنْ يكون معيارُ اختِيار العامل وتوظيفه هو أهليَّته لهذا العمل، لا قرابته من المسئول أو صداقته، أو وجود مصلحة شخصيَّة في اختياره وتقديمه على غيره، أو نحو ذلك من المعايير الزائفة .

ولا شك إنَّ الأمَّة التي تَشِيع فيها المحاباة والوساطات، وتَعبَث فيها المصالح الشخصيَّة بالمصالح العُليَا لها، فتَتجاهَل أقدارَ الأكفاء وتُهمِلهم وتقدِّم عليهم مَن دونهم - لا شكَّ أنَّ ذلك سيُولِّد لديها اضطرابًا، ويُوجِد عندها ضعفًا وعجزًا يدبُّ في أوصالها ومختلف مؤسَّساتها، ويُعِيق تقدُّمها ونموَّ اقتصادها ويضعها في آخر الرَّكب بين الأُمَم يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فعبَّر بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ عن توافر الكفاءة فيه لتولِّي خزائن أرض ملك مصر، ويقول سبحانه على لسان ابنة الرجل الصالح شعيب حين طلبت من أبيها استِئجار نبيِّ الله موسى عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، فعبَّرت بقولها: ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ عن توافر الكفاءة فيه للعمل عند أبيها في رعي الماشية والقيام على شؤونها.

وقد جعَل النبي ﷺ من علامات الساعة إسناد العمل إلى مَن ليس له بأهل؛ حيث قال حينما سُئِل: متى الساعة؟: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهلِه فانتظر الساعة**»(١) كما راعى النبي ﷺ وصحابته الكرام هذا الأمرَ فيما يخصُّ الولايات والمسؤوليات، فوضعوا كلَّ عامِلٍ في مكانه المناسب، ومن ذلك على سبيل المثال: أنَّ النبي ﷺ اختار معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليوليه القضاء في اليمن؛ لفقهه ورجاحة عقله، واختار مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكون داعية الإسلام في المدينة؛ لحكمته وعلمه وحسن أسلوبه، واختار عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عامِلاً على الصدقات؛ لحزمه وعدله، واختار خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائدًا للجيش؛ لمهارته وحنكته العسكرية، واختار بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبيت المال؛ لزهده وتَقواه وحسن تَدبِيره، واختار أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيدَ بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمهمَّة جمعِ القرآن؛ لعلمه وقوَّة حفظه.

=

العمل ضرورة تنموية ومصلحة شرعية ص ٥٣، ود. مسفر بن علي القحطاني: أخلاقيات المهنة ص ٢٢.

(١) رواه البخاري (٧٥).

وتختَلِف محددات»الكفاءة«ومعاييرها من عملٍ إلى آخَر، وذلك بحسب طبيعة هذا العمل والقدرات الذاتيَّة اللازمة للقِيام به، وكما يقول ابن تيمية: «وَالْقُوَّةُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ بِحَسَبِهَا؛ فَالْقُوَّةُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ تَرْجِعُ إلَى شَجَاعَةِ الْقَلْبِ، وَإِلَى الخبرة بالحروب، والمخادعة فِيهَا، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ، وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْوَاعِ الْقِتَالِ: مِنْ رَمْيٍ وَطَعْنٍ وَضَرْبٍ وَرُكُوبٍ، وكر، وفر، ونحو ذلك؛ كما قال الله تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، وَمَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ نَسِيَهُ فَلَيْسَ مِنَّا**» وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَهِيَ نِعْمَةٌ جَحَدَهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١). وَالْقُوَّةُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ تَرْجِعُ إلى العلم بالعدل الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ. وَالْأَمَانَةُ تَرْجِعُ إلَى خَشْيَةِ اللهَّ، وَأَلَّا يَشْتَرِيَ بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَتَرْكِ خشية الناس؛ وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حَكَمٍ عَلَى النَّاسِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]»(٢).

ثانيا: الأمانة:

وهي من أهمِّ الأخلاق التي يجب أنْ يتَّصِف بها العامل؛ وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤكِّد أهميَّة هذا الخُلُق الكريم في العامل في أكثر من موضع، من ذلك على سبيل المثال قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ويقول النبي ﷺ مُؤَكِّدًا على أهميَّة الأمانة: «**لا إيمان لِمَن لا أمانة له**»(٣).

ومن لَوازِم الأمانة الإخلاص في العمل وعدم التهاوُن به؛ لأنَّه لا يمكن القِيام بالعمل على أكمل وجهٍ وأحسنه إلاَّ إذا تحقَّق فيه الإخلاص من العامل نفسه؛ فالإخلاص هو الباعث

(١) في كتاب الجهاد باب فضل الرمي ح: (١٩١٩) دون قوله: ارموا واركبوا. وهو بتمامه عند أبي داود (٢٥١٣) والنسائي (٣٥٧٨) والدارمي (٢٤٠٤).

(٢) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص ١٣.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١١٩٣٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٥٦).

الذي يحفِّز العامل على إتقان العمل، ويدفعه إلى إجادَتِه، ويُعِينه على تحمُّل المتاعب فيه، وبذْل كثيرٍ من الجهد في إنجازه، وتوافر هذا الخلق الكريم في العامل من العوامل الرئيسة التي تَحُول دون وقوع الخلل والانحِراف عن الطريق الصحيح في أداء العمل، فهو بمثابة صمام الأمان ضدَّ الفساد بكلِّ صوره وأشكاله.

ومن معاني الإخلاص وصوره المتعدِّدة وجودُ الرقابة الذاتيَّة في العامل، ومبعث هذه الرقابة إحساسُ العامل واستِشعاره بأنَّ الله تعالى يرى سلوكه وكلَّ تصرُّفاته في أداء عمله، وأنَّه سائله عنها ومُجازِيه عليها يوم القيامة؛ يقول تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فعلى العامل في مجال عمله أنْ يجعل كلَّ ما يكتبه وما يحسبه وما يكدُّ فيه عقله ويتعب فيه يده - عملاً صالحًا يقصد به مصلحة البلاد والعباد، ورضا رب العباد؛ ليكون من عباد الله المخلصين الذين أثنى الله تعالى عليهم في محكم كتابه الكريم، وينبغي عليه ألاَّ يجعل إخلاصَه في عمله وجده فيه على قدر ما يَتقاضاه من مرتَّب شهري، أو حوافز ماديَّة ومعنويَّة.

والأمانة في نظَر الإسلام واسعة الدلالة؛ فهي ترمز إلى معانٍ شتَّى، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته في كلِّ أمرٍ يُوكَل إليه، وإدراكه الجازم بأنَّه مسؤولٌ عنه أمامَ ربه، وللأمانة هنا معانٍ وصورٌ كثيرة، منها:

١- أنْ يحرص العامِل على وقت العمل، وأنْ يستثمره في سرعة إنجاز العمل الموكول إليه، وأداء واجبه كاملاً في عمله؛ مصنعًا كان أو مزرعة أو متجرًا أو مكتبًا أو غيره، وعدم إضاعة الوقت وتبديده في الانشِغال بأمورٍ لا علاقة لها بالعمل، سواء كان ذلك داخل مقرِّ العمل أو خارجه.

٢- أنْ يجتنب في أداء عمله الغشَّ بكافَّة أشكاله وصُوَرِه، فهو محرَّم شرعًا؛ يقول النبي ﷺ: «**مَن غشَّنا فليس مِنَّا**»(١).

٣- ألاَّ يستغلَّ موقعه في العمل لجرِّ منفعة شخصيَّة له ولقرابته وصداقته، أو للاستِيلاء على المال العام بطُرُق ملتويَة، أو لصرف العهدات الماليَّة ونحوها في غير ما خُصِّصت له، أو للتكسُّب المادي غير المشروع؛ كتلقِّي الهدايا والرَّشاوَى مقابل خدمات وتسهيلات للمُهدين أو الراشين.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦)

يقول النبي ﷺ: «**مَن استعمَلناه على عملٍ فرزقناه رزقًا، فما أُخِذَ بعد ذلك فهو غلولٌ**»(١)، ويقول عزَّ وجلَّ عن هذا الغلول: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦١].وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي حميدٍ الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: استعمَل النبيُّ ﷺ رجلاً من بني أسدٍ يُقال له: ابن الأَتبِيَّة على صدقة، فلمَّا قدم قال: هذا لكم وهذا لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: «**ما بالُ العامل نبعَثُه فيأتي يقول: هذا لك وهذا لي؟ فهلاَّ جلَس في بيت أبيه وأمِّه فينظر أيُهدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيءٍ إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته؛ إنْ كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَرُ**»، ثم رفَع يديه حتى رأينا عفرتي إبطَيْه وقال: «**ألاَ هل بلغت**» ثلاثًا(٢).

٤- المحافظة على أدوات العمل وأجهزته ومعدَّاته ووسائله، وعدم استِخدامها أو تسخيرها لقضاء مصالح شخصيَّة ومنافع ذاتيَّة، للعامل أو لمعارفه وأصدقائه ومَن له مصلحة معهم؛ ذلك أنَّ هذه الأدوات والأجهزة والمعدَّات أمانة عند العامل أيًّا كان عمله، وسيُحاسَب يوم القيامة إنْ فرَّط في المحافظة عليها، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته**»(٣).

٥- المحافظة على أسرار العمل وكتمانها، ويقصد بالأسرار الوظيفية تلك المعلومات أو البيانات التي يطلع عليها بحكم شغله الوظيفة، والتي قد تبقى خافيةً عن البعيدين، و يطلب من الموظف الالتزام بهذا الواجب، سواء كان على رأس العمل أو حتى بعد تركه الخدمة، لأنَّ إذاعة هذه الأسرار قد يترتَّب عليها كثيرٌ من الأضرار على طبيعة العمل نفسه، وكذا على المُرتبِطِين بالعمل موظفين وعاملين ومراجعين، ولا شكَّ أنَّ بعض معاملات المراجعين تحوي أسرارًا لا يحسن اطِّلاع الناس عليها، ممَّا يتعلَّق بأمورٍ شخصية ومسائل عائليَّة خاصَّة هي ملكٌ لأصحابها.

ومع أن الأمانة خلق عظيم، وواجب متحتم لابد منه في كافة الوظائف إلا أن الحاجة

(١) رواه أبو داود (٢٥٥٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٠١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٠٧) ومسلم (٣٤١٣)

(٣) رواه البخاري (٨٤٤) ومسلم (٣٤٠٨)

إليها تتعاظم في المهن المرتبطة بأمور يحرص الناس على كتمانها ويكرهون بشدة أن يعرفها الآخرون.

ومن ذلك مثلا أنه لابد للطبيب ان يحفظ أسرار مرضاه وألا يطلع عليها أحدا لاسيما ما كان من الأمور الحساسة التي يتأذى الناس من معرفة الآخرين لها، ولابد للقاضي أن يحفظ أسرار المتقاضين وسير القضية حتى مرحلة إصدار الأحكام، ولابد لموظفي البنوك من حفظ أسرار الصفقات وحسابات العملاء لأن تسريبها قد يؤدي لخسائر فادحة .

ومن الأخلاقيات المهمة للعاملين في المجال التجاري: وجوب الأمانة والعدل واجتاب التطفيف الذي حرمه الله وهذا يشمل أمورا كثيرة منها: تحريم التلاعب بالموازين والمقاييس والمواصفات بيعا وشراء، والصدق والتبيين في حال البيع والشراء، والامتناع عن ضد ذلك كله من التدليس والغش بكل أنواعه وكتمان عيوب السلعة.

ثالثا: إتقان العمل:

من القِيَم الخلقيَّة المهمَّة في مجال العمل والإنتاج إحسانُ العمل وإتقانُه، ذلك أنَّ الإسلام يَحُضُّ على إتقان العمل وزِيادة الإنتاج، ويعدُّ ذلك أمانة ومسؤوليَّة، فليس المطلوب في الإسلام مجرَّد القيام بالعمل، بل لا بُدَّ من الإحسان والإجادة فيه وأدائه بمهارة وإحكام؛ فذلك مدعاة لنَيْل محبَّة الله ومرضاته سبحانه يقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ إذا عمِل أحدُكم عملاً أنْ يُتقِنه**»(١) ويقول أيضًا مُرَغِّبًا في هذا الخُلُق الفاضل وحاثًّا عليه: «**إنَّ الله كتَب الإحسان على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتلَة، وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرتَه وليُرِح ذبيحته**»(٢).

ومن إتقان العمل: شعورُ العامل بالمسؤولية تجاه ما يُوكَل إليه من عمل، وحسن رعايته لعمله، وتطويره، والإسراع في إنجازه، وبذْل الوسع والطاقة في اجتِناب الوقوع في الأخطاء في أداء العمل وإنتاجه، وألاَّ يفرِّق بين عمله في قطاع حكومي أو مؤسَّسة خاصَّة وعمله لخاصَّة نفسه، فهو مُطالَب بإتقان العمل وإجادته وإحسانه سواء كان له أو لغيره.

وخلق الإتقان لابد أن يستصحب في سائر المهن والوظائف، لا سيما ما كان غياب

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٣١٢) - بيروت: دار الكتب العلمية، ج٤، ص٣٣٤، وصحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١١١٣)،

(٢) رواه مسلم (٣٦١٥).

الاتقان فيها مؤديا لمصائب وكوارث تحل بأفراد المجتمع في الحال أو المآل، وعلى سبيل المثال فالمدرس لابد أن يتقن عمله التعليمي حتى يخرج جيلا واعيا مؤهلا للخوض في كافة المجالات، مسهما في نهضة بلده وأمته المسلمة.

والطبيب لابد أن يتحلى بأعلى درجات الإتقان، لأن أي خلل في التشخيص أو العلاج يمكن أن يودي بحياة المرضى أو يوقع بهم أضرارا جسيمة، والمهندس لابد أن يكون متقنا فيما يؤديه تمام الإتقان لأن الخلل في عمله ـ بناء أو غيره ـ يمكن أن يؤدي لكوارث فادحة وإزهاق الكثير من الأرواح وخسارة الممتلكات، والقاضي إن غاب عنه الإتقان والدقة في دراسة ما يعرض عليه من قضايا فربما ظلم بريئا أو برأ ظالما وأضاع حقوقا معصومة في الدماء والأموال والأعراض.

رابعا: الالتزام بأداء الواجبات الشرعية:

ومن الأخلاق الفاضلة والصِّفات الحميدة في العامل التزامُه بأداء الواجبات الشرعيَّة، وقيامُه بالعبادات المفروضة التي أوجب الله على عباده المؤمنين القيامَ بها، وعلى رأسها أداءُ الصلوات المفروضة جماعةً، وصيام شهر رمضان؛ ويقول تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ويقول أيضًا: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ويستلزم أداء هذه الواجبات الشرعيَّة اجتِناب جميع المحرَّمات والمعاصي المُوجِبة لغضب الله سبحانه وسخطه وعقابه، والالتزام بهذا المبدأ الخلقي يَعُود بالكثير من الآثار الإيجابيَّة النافعة على العامل في أداء عمله، من حيث تحقيق رضا الله سبحانه ونيل تسديده وتوفيقه وتحقيق البركة في العمل والرزق، وتحقيق الطمأنينة والسكون، والاستِقرار النفسي والصفاء الذهني لدى العامل، وترسيخ كثيرٍ من القِيَم الخلقيَّة المطلوبة في أداء العمل؛ كالأمانة والإخلاص وإتقان العمل، وإيجاد روح المحبَّة والتآلف بين العاملين في مقرِّ العمل.

خامسا: الالتزام بأنظمة العمل:

ومن الأخلاق الإسلاميَّة الفاضلة التي يجب على العامل الحرصُ عليها والتحلِّي بها الالتزامُ بأنظمة العمل ولوائحه وقوانينه المحدَّدة، فذلك مقوم من مقومات العمل، وعاملٌ

رئيسٌ من عوامل النجاح فيه؛ ولذا كلَّما تَمَّ الالتِزام بهذه الأنظمة والقوانين انعَكَس أثرُ ذلك على الإنتاج في العمل وزيادته واستمراريَّته لصالح الفرد والجماعة.

ويدخُل ضمن الالتِزام بأنظِمة العمل أمورٌ كثيرة، منها:

أ- الالتِزام بأَوقات العمل والمحافظة عليها، فذلك من أهمِّ واجبات العمل التي تنصُّ عليها الأنظِمة والقوانين؛ فيجب احترام مواعيد العمل الرسميَّة والتقيُّد بها في الحضور والانصِراف، وعدم التغيُّب عن العمل إلا لضرورة أو لظرف قاهر، وعدم الانشغال في أثناء وقت العمل بأمورٍ ومصالِحَ شخصيَّةٍ لا علاقة لها بالعمل.

ب- طاعة المسؤولين، فطاعة العامل التامَّة لرئيسِه المباشِر في أيِّ مجالٍ من مجالات العمل فيما يخدم العمل ويطوِّره ويَزِيد الإنتاج ويحسنه خلقٌ كريم ينبغي التحلِّي به؛ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، إلا أنَّه يُشترَط في هذه الطاعة أنْ تكون بالمعروف، بحيث لا يَتجاوَب العامل أو الموظَّف مع رئيسه إلا بما يُرضِي الله سبحانه وتعالى ولا يُسخِطه؛ لأنَّه كما قال الرسول ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١).

ج- التعاون في الأداء، فالتعاون بين عموم المسلمين على البر والتقوى خلقٌ رفيع دعا إليه الإسلام ورَغَّب فيه؛ حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢] ومن صُوَرِ التعاون الذي حَثَّ عليه الإسلام: تعاونُ العاملين فيما بينهم في أداء العمل فيما يُحَقِّق النفع والخير للعامِلين، ويُفعِّل أنظمةَ العمل وقوانينه، ويحقِّق الفائدة والتطوير لهذا العمل.

سادسا: حسن التعامُل مع المراجعين:

يجب على العامل أن يُحسِن التعامُل مع المُراجِعين له لإنجاز معاملاتهم التي بين يديه، وذلك باتِّباع ما يلي:

أ- احترامهم واللُّطف معهم والرِّفق بهم، فهذه من الخِصال الحميدة التي حَثَّ عليها الإسلام ضمن طائفةٍ من الأحاديث النبويَّة الصحيحة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «**الراحمون يرحمهم الله تعالى ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**»(٢) وقوله ﷺ: «**ما**

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري ح: (٤٣٤٠) ومسلم ح: (١٨٤٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٠) والترمذي (١٩٢٤) وقال: حسن صحيح.

تَواضَع أحدٌ لله إلا رفَعَه»[١] وقوله ﷺ كذلك: «**اللهم مَن ولي من أمر أمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومَن ولي من أمر أمَّتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»[٢].

ب- البَشاشَة وطَلاقة الوجه عند لِقائِهم وطيب الكلام معهم، فهذا الخلق الكريم مصدرٌ عظيم للنجاح في العمل، وسببٌ في تكوين مجتمع راقٍ متحابٍّ مُتكافِل؛ ولذا عُنِي به المربُّون المُصلِحون، ودعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وفي قوله أيضًا: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وفي قوله كذلك: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] كما دَعَتْ إليه السنَّة النبويَّة في قوله ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أنْ تلقى أخاك بوجهٍ طلق**»[٣]، وفي قوله ﷺ أيضًا: «**الكلمة الطيِّبة صدقة**»[٤].

ج- الإحسان إليهم، وذلك بتقديم المشورة والنُّصح لهم في كلِّ أمرٍ يَخُصُّ مُعامَلاتهم، واختِيار أفضل الخِيارات المُتاحَة لهم، وسرعة إنجاز أمورهم ومعاملاتهم، والمبادرة إلى تقديم كلِّ خدمة مُمكِنة لهم؛ يقول النبي ﷺ: «**مَن نفَّس عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرَبِ يوم القيامة**»[٥].

د- احتِمال الأذى، والعفو والصَّفح عمَّن أخطأ منهم، فالعامل يمرُّ عليه - غالبًا - فئاتٌ شتَّى من المراجعين، منهم المتعلِّم والجاهل، ومنهم الكبير الناضج والصغير الطائش، ومنهم الكريم واللئيم، فعليه أنْ يُوَطِّن نفسه على احتِمال الأذى منهم في أدائه عملَه، والحلم عليهم، والعفو والصَّفح عمَّن قد يصدر منه شيءٌ من الطيش والسَّفَه أو السلوك الخاطئ؛ وذلك امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ بهذا، واحتِسابًا للأجر العظيم عنده سبحانه يوم القيامة.

يقول تعالى في الحثِّ على هذا الخلق الكريم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

---

(١) رواه مسلم (٤٦٨٩)

(٢) رواه مسلم (٣٤٠٧)

(٣) رواه مسلم (٤٧٦٠)

(٤) رواه البخاري (٢٦٧٧) ومسلم (١٦٧٧)

(٥) رواه مسلم (٤٨٦٧)

﴿ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]ويقول النبي ﷺ مبيِّنًا الأجرَ العظيم الذي ينتظر أهل العفو والصفح يوم القيامة: «**مَن كظَم غيظًا وهو يستطيع أنْ ينفذه دَعاه الله على رؤوس الخلائق يومَ القيامة حتى يخيِّره في أيِّ الحُورِ شاء**»(١).

وليس حسن التعامل مقصورا على موظفي المصالح الحكومية ممن يقصدهم جمهور الناس لقضاء حوائجهم وإنما يمتد أيضا لكل من ولاه الله وظيفة ما يتعامل فيها مع من هم تحت رعايته.

ومن ذلك مثلا المشتغلون بالتدريس في المدارس والجامعات حيث يتأكد في حقهم التحلي بالصبر والحلم، لأن المعلم محتاج للصبر على تعليم طلابه على اختلاف مستوياتهم في الفهم، ويزداد الأمر حاجة مع الطلاب محدودي القدرات في الفهم والإدراك، وعلى المعلم ألا يتضجر من كثرة الأسئلة أو طلب الإعادة، كما يجب عليه أن يحلم ، ويغلب جانب العفو والمسامحة على جانب العتب والمعاقب، دون أن يعني ذلك التهاون أو التفريط.

كذلك يتعين على العاملين في الميدان الطبي والصحي بشكل عام: مراعاة الاحترام والمواساة مع الجميع، والتعامل الحسن معهم، وإدخال الطمأنينة على قلوبهم، وزيادة أملهم في الشفاء، وتعليق قلبهم ورجائهم بالله تعالى القادر على كل شيء والدعاء لهم ومواساتهم بالكلمة الطيبة.

سابعا: مراعاة صاحب العمل ما عليه من واجبات(٢):

وكما جاء الإسلام بالكثير من القِيَم الخلقيَّة التي ينبَغِي على العامل أن يلتَزِم بها، جاء أيضًا في المقابل بقِيَم خلقيَّة أخرى ينبغي على صاحب العمل الالتزام بها، والحرص عليها في علاقته بالعامل وكفالة حقوقه المشروعة، سواء أكان صاحب العمل هذا فردًا، أم مؤسسة خاصَّة، أم قطاعًا حكوميًّا، أم غير ذلك، ولعلَّ من أبرز هذه القِيَم ما يلي:

أ- دفع أجرة العامل: وهي من أهمِّ الحقوق التي ينتَظِرها العامل من ربِّ العمل بعد أدائه ما كلف به هو إعطاؤه حقَّه من الأجرة دون بخسٍ ولا منَّة، وقد أمَر الإسلام بإعطاء الأجير أجرَه فوْر انتهائه من أداء عمله؛ حيث يقول عزَّ وجلَّ بشأن المرضعات ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ

(١) رواه أبو داود (٤١٤٧) والترمذي (٢٠٢١) وقال: حسن غريب.

(٢) انظر د. مفرح القوسي: أخلاق العمل في الإسلام ص ١١.

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، ويقول النبي ﷺ: «**أعطوا الأجير أجرَه قبل أنْ يجفَّ عرقه**»(١) وتوعَّد عزَّ وجلَّ مَن مَنَع أجرة العامل أو أنكرها بالمخاصَمة يوم القيامة؛ حيث يقول سبحانه في الحديث القدسي: «**ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أُعطِي بي ثم غدَر، ورجل باع حُرًّا فأكل ثمنَه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعطِه أجره**»(٢).

ب- العدل: وهو وضعُ الشيء موضعَه، وأن يَنال كلُّ إنسان ثمار عمله ويتحمَّل تبعة فعله، وللعدل من قِبَل رب العمل صور كثيرة؛ منها:

- المساواة بين العمال في حسن التعامل وفي بذْل الحقوق، دون تمييزٍ بينهم في ذلك من غير مُبرِّر شرعي منطقي، فإنَّ العدل يقتَضِي المساواة بين المتماثِلَيْن، إلاَّ أنَّه ينبغي أنْ يقول للمحسن منهم: أحسنت، ويُكافِئه على هذا الإحسان، ويقول للمُسِيء: أسأت، ويُعاقِبه على هذه الإساءة إذا كانت مقصودة متعمَّدة، وألاَّ يساوي بين المُحسِن والمُسِيء في الحوافز والعلاوات والترقيات ونحوها، بل يُعطِي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

- المساواة بين العمَّال في التكليف بالأعمال، من حيث حجمها وطاقة الإنتاج فيها، مع مراعاة الفروق الفردية بينهم والتفاوت في الطاقات والإمكانات والقدرات المهاريَّة.

- تولي النظر في مظالم العمَّال والموظفين، وتفقُّد أحوالهم، وإنصاف المظلوم من الظالم منهم، وتخليص إدارة العمل من مرض المحسوبيَّة والفساد الإداري، ودفعها نحو النزاهة والاستقامة.

- التناسب بين حجم العمل المطلوب وأجرته، لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ**﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي: «لا تنقصوهم أموالهم»، ولتحذيره سبحانه من سوء عاقبة بخس الناس أشياءهم، حيث يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

- وكما يكون التطفيف في الكيل والميزان يكون من أمور أخرى غيرها تشمل بخس العامل حقَّه من الأجرة، فالمطفِّف - كما يقول الطبري - المقلِّل حقَّ صاحِب الحق عمَّا له من

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٤٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٥)

الوفاء والتمام، وأصل ذلك من الشيء الطفيف، وهو النَّزر القليل.

ج- التواضع: وهو فضيلة خلقيَّة محمودة مطلوبة، ورَد الحثُّ عليها والنهي عن ضدِّها في كثيرٍ من النصوص الشرعيَّة؛ يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ويقول النبي ﷺ: «**ما تواضَع أحدٌ لله إلا رفَعَه**» ويتأكَّد الالتزام بخلق التواضُع بصفةٍ خاصَّة في تعامُل ربِّ العمل مع مرؤوسيه من عمَّال وأُجَراء، ويدخل في ذلك: مجالستهم، والتبسُّط في الحديث معهم، ومشاركتهم همومهم الوظيفيَّة، وتفقُّد متطلَّباتهم وحاجاتهم وتفهُّمها، والسعي إلى توفير سُبُل الراحة لهم، وعدم الاحتِجاب عنهم؛ يقول النبي ﷺ: «**مَن ولاَّه الله عز وجل شيئًا من أمر المسلمين فاحتَجَب دون حاجتهم وخلَّتهم وفقرهم، احتَجَب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره**»(١).

د - احترام العامل وتقدير كرامته الإنسانية: وقد كفَل الإسلام لكلِّ إنسان كرامته الإنسانية؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأقرَّ مبدأ الأخوَّة بين المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وجعَل المعيار الوحيد للتفاضُل بينهم هو مستوى التقوى والتديُّن، فلا يكرم أحد منهم ولا يفضل على غيره إلا بالتقوى؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

والعامل مهما كان مستواه التعليمي أو المهني أو الاقتصادي أو الاجتماعي له شأن مهم وأثر بالغ في حياة المجتمع الذي يَعِيش فيه؛ فعلى كاهله يقوم النشاط اليومي، فهو عضو فعَّال في المجتمع أيًّا كان النشاط الذي يُزاوِله، أو المجال الذي يعمل فيه، كما أنَّه ورب العمل كلٌّ منهما يُتِمُّ رسالة الآخر، فهو يحتاج إلى تأمين مصدرٍ للعيش والرزق بالأجر الذي يتقاضاه، ورب العمل يحتاج إلى إنجاز العمل وإتقانه، وكلاهما يحقِّق تطلُّعات المجتمع في الإنتاج

(١) رواه أبو داود (٢٥٥٩) والترمذي (١٢٥٣) وصححه الألباني في الصحيحة (٦٢٩).

(٢) أخرجه مسلم ح: (١٥٦٤).

والرُّقِيِّ، وغاية الأمَّة في الرخاء والأمن بكافَّة مجالاته المتعدِّدة، ولذا فمن أبرز الأخلاق التي ينبَغِي على رب العمل الحرصُ عليها والالتِزام بها: احترِام العامل وتقدير كرامَته الإنسانية، ومُعامَلته بالرِّفق واللين، واجتناب كلِّ سلوك أو تصرُّف يتضمَّن مهانة أو مذلَّة له، ولرب العمل في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة الحسنة في معاملة العمَّال؛ فعن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «خدَمتُ النبيَّ ﷺ عشْر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لمَ صنعتَ؟ ولا: ألا صَنعت؟»(١).

وسائل ترسيخ أخلاقيات المهنة(٢):

أ- تنمية الرقابة الذاتية: .

فالموظف الناجح هو الذي يراقب الله تعالى قبل أن يراقبه المسؤل، وهو الذي يراعي مصلحة أمته ووطنه قبل المصلحة الشخصية، فإذا تكون هذا المفهوم الكبير في نفس الموظف فستنجح المؤسسة بلا شكّ ؛ لأن الموظفين مخلصون لها.

ومراقبة الله هي التي كانت تدفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتفقد رعيته في مسيراته الليلية المشهورة في المدينة المنورة كما أن هذه الرقابة هي التي كانت ترقى بإيمان ذلك الراعي الذي مرّ به عبد الله بن عمر وطلب منه أن يذبح له شاة ويعطيه ابن عمر ثمنها، فاعتذر الراعي بأن مولاه لم يأذن له، فقال له ابن عمر يختبره: إذا سألك مولاك عنها قل له: أكلها الذئب، فقال الراعي: فأين الله؟!

ب- وضع الأنظمة الدقيقة التي تمنع الاجتهادات الفردية الخاطئة:

لأن الممارسات الأخلاقية غير السوية تنتج أحياناً من ضعف النظام، أو عدم وضوحه.

ج- القدوة الحسنة:

فإذا نظر العاملون إلى المدير وهو لا يلتزم بأخلاق المهنة، فهم كذلك من باب أولى.

وقد قال الخليفة الأول للمسلمين أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، ولذا لما مات قال فيه أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من بعدك.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٨) ومسلم (٤٢٦٩)

(٢) انظر د.مسفر القحطاني: أخلاقيات المهنة ص ١٦.

د- تصحيح الفهم للمقصد من الوظيفة:

فإذا اقتنع العامل بأن العمل إذا خلصت النية وصح القصد عبادة يثاب عليها، وأنه وسيلة مهمة لنفع نفسه ووطنه وأمته، وتحسين مستوى الدخل زاد لديه الالتزام بأخلاق المهنة.

هـ- محاسبة المسؤلين، والموظفين:

فلا بدّ من المحاسبة للتأكد من تطبيق النظام، وهو ما يعرف بالأجهزة الرقابية التي تشرف على تطبيق النظام، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل الرعية: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنتُ قضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله، أعمِل بما أمرته أم لا.

و- التقييم المستمر للموظفين:

مما يحفزِّهم على التطوير إذا علموا أن من يطوِّر نفسه يقيَّم تقييماً صحيحاً، وينال مكافأته على ذلك، والتقييم يعين المسئول على معرفة مستويات موظفيه وكفاءاتهم ومواطن إبداعهم.

عقبات وموانع تحول دون تطبيق أخلاقيات المهنة[1]:

وهناك الكثير من العقبات والقيم السلبية التي تحول دون التطبيق الصحيح لأخلاقيات المهنة ولابد للمجتمع المسلم أن يتخلى عنها ومن ذلك:

١-عدم تطبيق العقوبات:

فمن أمن العقوبة أساء الأدب، والعقوبة لا تراد لذاتها، بل لتقويم سلوك الأفراد والمسئول المنحرف، وإعطاء الآخرين صورة عن الجدية في تطبيق النظام.

٢- غياب القدوة الحسنة.

٣- ضعف استشعار المسؤولية أمام الله تعالى والأمانة، وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة.

٤- عدم وجود، أو وضوح، أو تفعيل النظام.

٥- فقدان روح التفاهم بين المسؤل والموظفين.

تمّ هذا الكتاب والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) انظر د.مسفر القحطاني: أخلاقيات المهنة ص ١٨.

فهرس المصادر والمراجع

- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، للدكتور بكر أبو زيد.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني.
- الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخافة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- الانتصار لأصحاب الحديث، لأبي المظفر السمعاني.
- التحرير والتنوير، للعلامة محمد بن الطاهر عاشور.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي (ابن جُزَيّ).
- تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي.
- التفسير الكبير، فخر الدين بن محمد بن عمر التميمي الرازي.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في تحصيله، أبو عمر يوسف بن عبد البر.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- الرد على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي.
- روضة الناظر وجنة المناظر، لموفق الدين عبد الله بن محمد قدامة المقدسي.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية.
- سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة.
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي.
- سنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على النسائي.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام.
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي.
- شرح العقيد الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
- الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل أبو طامي.

- صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم.
- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية،أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية.
- العصرانيون ومفهوم التجديد، عرض ونقد، الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم مختار.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،لابن قيم الجوزية.
- مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، للدكتور ناصر القفاري.
- المستدرك على الصحيحين، الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري.
- المسند، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الإشبيلي.
- منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان علي حسن.
- الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي.
- الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- موطأ مالك، مالك بن أنس، أبو عبد الله الأصبحي.
- موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع للدكتور إبراهيم الرحيلي.
- وجهة العالم الاسلامي، مالك بن نبي.
- الوحدة الإسلامية، محمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٢
المقدمة	٤
القسم الأول: المجتمع المسلم بين المثالية والانحراف	٧
الفصل الأول: المجتمع الإسلامي والمجتمعات المغايرة	٨
- المبحث الأول: المجتمع المثالي للأمة المسلمة	٩
- المبحث الثاني: أساس بناء المجتمع الإسلامي	١٤
- المبحث الثالث: مقومات بناء الأمة الإسلامية	٢١
- المبحث الرابع: الجاهلية وحال العرب قبل الإسلام	٤٣
الفصل الثاني: الانحراف في المنهج	٥٤
- تمهيد	٥٥
- المبحث الأول: أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة	٥٩
- المبحث الثاني: الانحراف بالمصادر المعتمدة فهماً واستدلالًا	٧١
الفصل الثالث: الانحراف في المفاهيم	٨٩
- تمهيد	٩٠
- المبحث الأول: مفهوم التوحيد	٩٤
- المبحث الثاني: مفهوم الإيمان والكفر	١٠٠
- المبحث الثالث: مفهوم العبادة	١٠٧
- المبحث الرابع: مفهوم القضاء والقدر	١١٠
- المبحث الخامس: مفهوم التوكل	١١٢
- المبحث السادس: مفهوم الزهد	١١٧
- المبحث السابع: مفهوم الحرية	١٢١
- المبحث الثامن: مفهوم التجديد	١٢٩
القسم الثاني: أحوال المجتمع المسلم المعاصر وسبل النهوض به	١٣٦
الفصل الأول: أحوال المجتمع المسلم المعاصر	١٣٧
- المبحث الأول: الغزو الفكري وأثره على المجتمع المسلم	١٣٨
- المبحث الثاني: أبرز التيارات الفكرية المعاصرة وأثرها في المجتمع المسلم	١٤٨

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية ١٦٥
- مدخل: عن أسباب دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٦٦
- المبحث الأول: أحوال العالم الإسلامي والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٦٧
- المبحث الثاني: نشأة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه العلم..... ١٧٠
- المبحث الثالث: الدعوة الإصلاحية للشيخ نشأتها وحقيقتها..... ١٧٣
- المبحث الرابع: آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب العلمية والدعوية ١٨٧
- المبحث الخامس: شبه المناوئن لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٩١

الفصل الثالث: سبل الإصلاح والنهوض بالأمة ١٩٣
- المبحث الأول: معالم الخلل في واقع الأمة ١٩٤
- المبحث الثاني: ضرورة النهوض بالواقع وإصلاحه وعوامل ذلك..... ٢١١
- المبحث الثالث: دور الطالب الجامعي في النهوض والإصلاح وأخلاقيات المهنة..... ٢٣١

مفهوم المهنة لغة واصطلاحًا..... ٢٣١
خصائص المهنة ٢٣٢
مكانة العمل في الإسلام..... ٢٣٢
أخلاقيات المهنة في أهل الإسلام..... ٢٣٥
وسائل ترسيخ أخلاقيات المهنة ٢٤٧
العقبات والموانع التي تحول دون تطبيق أخلاقيات المهنة ٢٤٨

فهرس المصادر والمراجع ٢٤٩
فهرس الموضوعات..... ٢٥١